الانتماء

الولاء والبراء والانتماء
من
منظور إسلامي

تأليف
اللواء الركن م/ يوسف بن عبد الله بن محمد الليل

مكتبة
جُلّ المعرفة

مكتبة
التوبة

الانتماء

الولاء والبراء والانتماء

من

منظور إسلامي

ⓒ يوسف عبد الله جمل الليل ١٤٢٣هـ .
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .
جمل الليل ، يوسف عبد الله .
الانتماء بحث عن الولاء والبراء والانتماء من منظور إسلامي – الرياض .
٤٤٥ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .
ردمك : ١ – ٥٢٠ – ٤١ – ٩٩٦٠
١- الولاء والبراء في الإسلام أ- العنوان
ديوي ٢٤٠ ٢٣/١٦٠٢

رقم الإيداع : ٢٣/١٦٠٢
ردمك : ١ – ٥٢٠ – ٤١ – ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م

مكتبة جُلّ المعرفة
الـرياض – السليمانية شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز
هـاتف ٤٧٦٨٨٣١ فـاكس ٤٧٧٧٢٦٧ ص.ب ٩٩٩٦١
الرياض ١١٦٥٢٥

مكتبة التوبة
المملكـة العـربية السـعودية – شـارع جريـر
هـاتف ٤٧٦٣٤٢١ فـاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠
الرياض ١١٤١٥

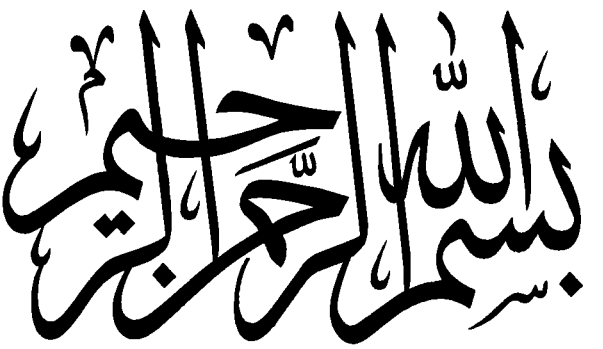
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل مسلم غيور على :

دينه ، وأمته ، ووطنه

أهدي جهد المقل الطامع في رحمة الله وعفوه ورضاه .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١١٨ . قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة** ﴾ أصفياء تطلعونهم على سركم ﴿ **من دونكم** ﴾ أي غيركم من اليهود من النصارى والمنافقين ﴿ **لا يألونكم خبالاً** ﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد ﴿ **ودوا** ﴾ تمنوا ﴿ **ما عنتم** ﴾ أي عنتكم وهو شدة الضرر ﴿ **قد بدت** ﴾ ظهرت ﴿ **البغضاء** ﴾ العداوة لكم ﴿ **من أفواههم** ﴾ بالوقيعة فيكم وإطلاع المشركين على سركم ﴿ **وما تخفي صدورهم** ﴾ من العداوة ﴿ **أكبر قد بينا لكم الآيات** ﴾ على عداوتهم ﴿ **إن كنتم تعقلون** ﴾ ذلك فلا توالوهم ، تفسير الجلالين .

قـــال رسول الله ﷺ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

أن رسول الله ﷺ قال : ((**ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانـــة تأمـــره بالســـوء وتحضـــه علـــيه ، والمعصـــوم من عصمه الله**))[1] .

---

(١) البخـــــاري ٧١٩٨ – النســـائي ١٥٨/٧
مسند الإمام أحمد ٣٩/٣ – ابن حبان ٦١٩٢
النسائي في الكبرى ٧٨٢٥ .

المقدمة

الحمـــد لله حقًا خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وصلاة دائمة متصلة على مـــن لا نبي بعده إمام المتقين وسيد المرسلين بعثه الله رحمة للعالمين بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا فبلغ الرسالة ، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور . اللهم صل وسلم على عبد الله ورسوله محمد بن عبد الله الذي نشرت ذكره في الكتـــب الســـماوية ، والـــذي لـــم تقبضـــه حـــتى أقمت به الملة العوجاء ، ووهبـــت له كـــل خلق كريم ، وجعلت الهدى إمامه والإسلام ملته ، والعدل ســـيرته ، والحـــق شـــريعته . والذي هديت به بعد ضلالة ، وجمعت به بعد فرقة ، وألفت به قلوبا متفرقة ، وأممًا مختلفة ، وجعلت أمته خير أمة أخرجت للناس .

أمـــا بعـــد : فإنه بعد الرجوع إلى كثير من الكتب وانتقائها من شتى مصـــنفاتها التي تذخر بها المكتبات العربية ، والتي تعتبر المعين الزاخر التي استقى من جداولها الثرة جمهرة العلماء . فقد جمعت هذا الكتاب الذي يحوي بين طياته على ثلاثة فصول هي كالتالي :

يعرض الفصل الأول : أصل من أصول الإسلام هو « الولاء والبراء » ، وهما مظهـــران من مظاهر المحبة لله ، ثم لأنبيائه وللمؤمنين . والبراء مظهر من مظاهـــر كراهية الباطل وأهله . إن المحبة في الله هي أوثق عرى الإيمان ، وإن الطـــريق الموصـــل إليها وإلى موالاة الله عز وجل هو : « إتباع شرعه الذي جاء به رسول الله ﷺ . وأنه لا حياة شريفة إلا في ظل هذا الدين الحنيف

بـــالعودة إلى ينابيعه الصافية كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . وفهم العقيدة الصحيحة وسيرة سلف الأمة وإدراك معنى الدين . وعلى المسلمين الاستعلاء بأنفسهم وعقيدتهم من كيد الكائدين وأنهم مفتقرون إلى عون الله لهم .

إن حاجة المسلمين ماسة إلى أن يعودوا إلى تحقيق الموالاة فيما بينهم والمعـــاداة مع أعدائهم ، حيث تداعت عليهم قوى الكفر والظلم من كل حدب وصـــوب ، ورمـــيها لهـــذا الديـــن الحنـــيف بالقصور والجمود والتعصب والـــتخلف قاتلهم الله . إن الإسلام يوجب على المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جمـــيعًا علـــى أســـاس الإســـلام ، وإن الموالاة هي المحبة قولاً ، وفعلاً ، واعتقاداً ، وإن محبة الله واجبة ولا تتحقق إلا بحب ما يحبه الله ويرضاه من : الأقوال ، والأفعال ، والأشخاص . وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وهـــناك بعـــض الموالاة بمعنى المسامحة والمسالمة وتبادل المصالح مع عدم الرضا عن حالة غير المسلمين وكفرهم . إن نصوص الكتاب والسنة لم تذكر إباحـــة تولي الكفار أو موالاتهم سوى في حالة الإكراه . والتسامح الذي أقره الإسلام ضمن حدود معينة مع غير المسلمين ، ينبغي أن لا يكون على حساب إضعاف تميز المسلم في تصوره الاعتقادي و نظامه الإجتماعي .

وإن مـــن مقتضـــيات الولاء « الحب » والبراء « البغض » ، وقد ينشأ عـــنها من أعمال الجوارح ما يؤيد صدق ذلك الحب والمشتمل على : (حب الله ورســـوله ، وحـــق المســـلم علـــى المســـلم من مودة ، ونصرة وإيثار ، وقضـــاء حاجات وذكر محاسن ، والعفو عن هفوة الأخ والكف عن عثرته ،

والدعـــاء للإخوان بالنصر والتمكين و بعد مماتهم بالمغفرة والرضوان ...) الخ .

والهجرة مبنية على النية كما قال ﷺ : ((**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكـــل امرئ ما نوى ...**)) الحديث . والهجرة معناها الانتقال من مجتمعات الكفر والشرك إلى مجتمعات الإيمان .

أما الجهاد في سبيل الله فهو الفاصل بين الحق والباطل ، والجهاد لغة المشقة ، وشرعًا بذل الجهد في قتال الكفار . ويطلق على مجاهدة النفس بتعلم أمـــور الدين ثم العمل بها ثم تعليمها . فالدين الإسلامي يبدأ بدعوة الناس إلى الخير وجدالهم بالتي هي أحسن .

أمـــا **الفصل الثاني** فيعرض : الانتماء إلى الوطن والوطنية ، وحب الأمة يماثل حب الأهل . وحب الوطن إنما يتولد من توسع نطاق حب الأهل ، وتوســـع دائـــرة حب الوطن . ولا شك أن الوطنية هي حب الوطن والإنسان يحب وطنه تحت تأثير النزعة الوطنية . فيشعر نحوه بتعلق قلبي عميق فيفرح لســـعادته ويفجع عند نكبته ، ويسعى لخدمته ويضحي في سبيل دينه ووطنه حتى ولو كانت حياته لما من شأنه عزة الإسلام والمسلمين .

فصـــفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له علـــى الوطن بل يجب أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه . فإذا لم يوف أحد من أبناء الوطن بحقوق دينه ووطنه ضاعت حقوقه التي يستحقها على وطنه .

وإن أهم وأعم الميول النفسية التي تعارض الانتماء للدين وللوطن هي « الأنانية » لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية . على حين أن الانتماء للإسلام وللوطن « الوطنية » على العكس من ذلك تعود إلى « الإيثار والتضحية » في سبيل الدين والوطن ، بل تعادي جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية على اختلاف أنواعها غير أن هناك بعض النزعات التي تعادي الانتماء للدين وللوطن ، ومنشأ هذه النزعات الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية .

والعالم مبتلى بدعوات هدامة منها الإلحاد والعلمنة بسبب مكرها تصدعت الأمم والشعوب . إن ما جاء في القرآن الكريم لو طبق فسوف تتحقق عدالة اجتماعية ليس بعدها عدالة .

لقد كان لكل أمة رسول ، ولكل قوم نبي ، فكان لابد من نبي واحد لكل الناس والأجناس والألسن ، فبعث الله سيد الخلق رسول الله ﷺ ليكون بشيراً ونذيراً للعالمين . ويبدأ صوت الحق يعلو ، وأصبحت الدعوة تسير في الأرض وتتناقلها الدنيا . ويبدأ الصراع بين المسلمين والمشركين ثم يمتد حتى شمل فارس وشطراً من دولة الروم . إنه صدام لم تكن القوميات فيه متحاربة ، ولم يكن العرب في وضعهم دعاة عنصر وأهل تعصب وإنما حملة هداية ورسل خير . يريدون أن تهتدي البشرية على أيديهم برسالة السماء وتنقذها من ظلامها بنور القرآن الكريم . ويلتقي الإسلام بهم جميعًا فإذا هم في الله متحابون .

حـــتى وصـــل المســـلمون على قمة الزمن يشيرون الناس إلى درب الخـــلاص وطـــريق النجاة عدة قرون . فلما ابتعدت الأمة عن تعاليم دينها . ســـارت فـــي طـــريق الهبوط حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن من جمود عقلي ، وانحدار سياسي ، وتأخر اقتصادي ، والتفكك إلى دويلات .

إن مـــا عملـــته الأمـــة المسلمة يوم استنارت بنور الله فكان الإسلام مبدأها ، والقرآن ميثاقها ، والسنة طريقها استولت على الدنيا لا مستعمرة ولا غازية ولكن محضرة ومعلمة . ولكن في ظل الدعوة إلى القومية التي تحصر الولاء في دائرة الجنس والتراب ، ماذا ربحنا منها ، ألم تستمر التجزئة ، ألم تثبت الفرقة .

لقـــد أراد المستعمر للكثير من الدول الإسلامية والعربية أن يصرف بعـــض شـــباب الأمة عن سر عظمتهم ومكمن قوتهم ، فأوعز لبعضهم فكرة القومـــية العربية التي تعترف بالعنصر . وركز في الأذهان أن الإسلام يجب أن يفصل عن الحياة ، وأن الدعوة إليه رجعية لا تتفق مع الإنسان المتحضر . ونجـــح فـــي بـــث سمومه لينزع الولاء الإسلامي ليحل محله انتشار بعض المذاهـــب اللادينـــية لمحو شريعة الله من الأرض وتشتيت ولاء المسلمين . وأدرك أعـــداء الإســـلام مـــدى جدوى وفاعلية ذلك ، فبدؤوا فكرة القومية ، مبتدئين بتركيا وتتريكها ، وكان مؤشر للعرب أن يتحدوا في قومية جديدة .

إن الانـــتماء الأكبر للإسلام وأمته ، وإلى دار الإسلام وحضارته لا يـــنكر وجـــود انـــتماءات ثانـــية . وإذا كانت دار الإسلام هي الوطن الأكبر للمســـلم ، فإن هذا لا يعني انتفاء حب المسلم لوطنه الأصغر الذي نشأ فيه .

وكذلك الحال مع دائرة الوطن والإقليم أي الوطن القومي ، وكلمة قوم التي اشتقت منها القومية ، وسمات القومية هي التي تحدد اللغة دائرتها وخريطتها . فالقومية في الرؤية الإسلامية هي الدائرة اللغوية في إطار الانتماء الإسلامي الأكبر ، وعالمية الإسلام لابد أن تشمل أقوامًا تميزهم باللغات . وفي دائرة الأمة الإسلامية والانتماء الإسلامي قوميات سيحتضن محيطه الجزر القومية في عالم الإسلام . فالقومية العربية واعتماد العربية كلغة معيارًا لتحديد العربي و « القوم العرب » سيدخل العروبة في النسج الإسلامي لأن اللغة العربية لسان الإسلام وخاصية الإعجاز القرآني .

إن التشديد على دائرة الوطنية سواء كانت عربية أو غير عربية مع إسقاط الدائرة الإسلامية هو مفهوم عنصري لمصطلح القومية ، طرأ علينا من المفاهيم القومية الغربية . وإذا اعتمد على علاقة الأخص بالخاص والعام بالأعم لدوائر الوطنية والقومية والجامعة الإسلامية والإنسانية . انتفت هذه التناقضات . وذلك بإحلال منهاج الفطرة السليمة محل المفاهيم العنصرية الطارئة على حياتنا الفكرية العربية الإسلامية .

أما الدولة فتعرف من أنها جماعة بشرية تكاملت لها خصلتان : رابطة للتضامن وتنظيم سياسي متكامل ، وشخص معين يرمز إلى مجموعة شعب مستقر على إقليم معين حاكمًا ومحكومين ، بحيث يكون له سلطة سياسية ذات سيادة ، فإنه يكون للدولة الأركان الأساسية التي تتكون من : الشعب ، الإقليم الأراضي والمائي والجوي ، الحكومة وهي سلطة سياسية يخضع لها الشعب

تقــوم بالوظــائف التنفيذية والتشريعية والقضائية حتى تتأكد لها السلطة العليا التي لا تنازع ، وإلزام الأفراد بإطاعتها وتنفيذها .

لا شــك أن أصل الدولة ونشأتها يعود إلى « التطور العائلي الذي يقوم على أساس أن العائلة هي أصل المجتمع » . أي الدولة أسرة تطورت بارتباط أكثر من عائلة فتكونت عشيرة ، وتطورت فتكونت القبيلة حتى وصل التطور إلــى الدولــة . وقيام الدولة تنظيم سياسي يرجع إلى الأسرة وإرجاع أساس الســلطة فــي الدولــة إلــى سلطة رب البيت . إلا أن سلطته تزول بزواله أو باستقلال أفراد الأسرة عنه . إلا أن السلطة السياسية في الدولة تعتبر سلطة دائمــة عــن أشخاص يمارسونها . ووفقا للقانون الدولي تنشأ الدولة باكتمال العناصر المكونة لها من : إقليم ، ورعايا ، وحكومة واعتراف بقية المجتمع الدولي بها . وسيادة الدولة تعبير عما تملكه من سلطات عليا ومطلقة تمارسها الدولــة علــى رعاياهــا . ويجب أن يكون للدولة قوة رادعة تمنع الاعتداء علــيها ، وتســتخدمها لتحقيق مصالحها وأهدافها الوطنية ، وليكون لها تأثير استراتيجي في البيئة الإقليمية والدولية .

ويعــرض **الفصــل الثالث :** الأسس التي قام عليها الحكم السعودي : محاربة البدع في الدين وتطبيق الشريعة الإسلامية في كل أمور الحياة وذلك فــي ظــل دولة قادرة على تحقيق تلك الأهداف . هذه الدولة التي قامت على أساس ديني ، ولم تقم على عصبية قبلية وحدت معظم مناطق الجزيرة العربية فــي دولــة لــم ير لها مثيل من قبل باستثناء فترة قصيرة من فجر التاريخ الإسلامي .

ويعـــرض **الفصـــل الرابع :** بعض مقتضيات الولاء والبراء والانتماء مـــنها : مـــنهج الإسلام الأخلاقي وحرصه على أن يكون فعل الخير والتزام الفضائل ، وترك الشر وهجر الرذائل خالصًا لوجه الله جل وعلا . ومن هنا نرى الإسلام أول داع إلى الخير لذات الخير ، وللفضائل لأنها فضائل ، وأن دعوتـــه تقـــوم علـــى إعداد خاص يطهر النفس ويزكيها . وقد عبر رسول الرحمة ﷺ عن ذلك بقوله : ((**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)) . وفي كل آية من القرآن الكريم يرشد إلى نمط من أنماط مكارم الأخلاق .

« فالعفو » خلق يسمو بصاحبه عن الانتقام ، وخلة تؤثر الرحمة على العقاب وتحل المودة والوئام محل الخصام . والرحمة من أشرف الخصال وإن الله عـــز وجـــل لا يحب شيئا مثلما يحب الرحمة والتواضع ، ولا يكره شيئا مـــثلما يكره القسوة والكبرياء . وكذلك « العدالة » فهي صفة إنسانية تتفاضل وتـــتفاوت تبعا لأسبابها ومقوماتها في النفس الإنسانية . وليست فضيلة العدالة بالفضـــيلة التـــي يسهل الحصول عليها ، ولابد من الحصول عليها من منبت شـــريف زكي ووراثة نقية من الشوائب وهمة نزاعة إلى المعالي ، أما الظلم وضـــعف شأنها يكون بالشهوات المتحكمة والأهواء المتردية . وإنه كلما كان « الـــترف » المـــردي كانـــت القـــوى المنحلة ، وكلما كانت الإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة والإخلاص كان النصر المبين والتأييد من رب العالمين .

إن أركـــان الإســـلام ومبادئ الأخلاق حددها رسول الله ﷺ موضحا الغايـــة الأولى من بعثته ، والمنهاج المبين في دعوته والعبادات التي شرعت فـــي الإســـلام ليست طقوسا مبهمة . فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكـــم من شتى الطبقات ، والصوم لم ينظر إليه على أنه حرمان مؤقت من

الأطعمـــة والأشربة بل اعتبر خطوة إلى حرمان النفس من شهواتها ، وكذلك الحج الذي كلف به المستطاع لم يكن رحلة مجردة عن المعاني الخلقية . هذه العبادات هي أركان تربط الدين بالخلق .

أمـــا عـــن « القيم » فإن تصور الإسلام الشامل لها ، واستيعابه للزمن والحياة وكيان الإنسان ، أوضح أن الشمول أحد الخصائص التي تميز بها عن كـــل ما عرفته الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب . فالإسلام وهو يتولى تنظـــيم الحياة الإنسانية جميعًا لم يعالج نواحيها المختلفة جزافا ، ولم يتناولها أجـــزاء . بل يمتاز بتناسق عجيب بين عقائده وعبادته ، وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق وما يحبذه ويأمر به من الأخلاق والآداب . هذا التصور يلـــتمس في أصول التشريع الإسلامي « القرآن والسنة » وما انبثق عنهما من إجماع وقياس . فهو دين جاء لينقذ الإنسان فيه القيم التي قررها الله له .

الإســـلام نظـــام اجتماعـــي متكامل الجوانب لجميع البشر في جميع إعصـــارهم ومواطنهم ، وحريص على إصلاح سريرة الإنسان وسلوكه على الســـواء فهـــو دين عبادة يرعى صلة العبد بربه ، ودين حياة وسلوك فمنطق الإسلام جعل المسلمين أمة واحدة مترابطة الأجزاء ، في حين ينظم مجتمعهم بما يكفل سلامة البناء ، فالمسئولية في الإسلام تعتبر الفرد مسئولا عن ذاته ، تلـــيها مسئولية الأسرة عن أفرادها والجماعة عن توجيه الأسر الذين يشكلون الجزئيات لذلك المجتمع الكبير . والدولة بأنظمتها مسؤولة عن استقامة الأفراد وسلامة الأسر وأمن الجماعة بتنفيذها الشرائع وإقامة الأحكام .

إن تطبيق الشريعة الإسلامية يستلزم وجود الهيئات التي تقوم بتطبيقها، فدور العلماء والدعاة هو أحد أهم اللبنات في المجتمع الإسلامي ، فثم القائمون

علـــى تفســـير الشـــرع وتوجيه الناس ، ونصح الولاة والحكام فمكانة العلماء والدعـــاة إنمـــا يستمدونها مما أفاء الله سبحانه وتعالى به عليهم من علم وبما وفقهم في الدين . وما مسئولية العلماء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا صـــدى لإتمـــام القرآن والسنة بهذه المسئولية ، وأن ممارستها تحتاج إلى جهد وصبر دائبين . لهذا تركز اهتمام العلماء المسلمين على بيان وجوب هذه الفريضة ، وخطورة التهاون في القيام بها .

كرم الله تعالى الإنسان ، فتوافد على هذا المخلوق المتميز بالعقل أنبياء الله ورســـله ،حـــتى كانت الرسالة الخاتمة ، ورضي لنا الإسلام دينا . وأقر الإســـلام حـــق الفرد في أن يكون له رأي يعلنه وهو متميز بالعقل أجل نعمة منحـــت له . وجـــاء الإسلام دينًا يخاطب العقول ، ولو شاء الله لأنزل على الناس ما يضطر إلى الإيمان قهرًا ، ولكنه سبحانه لا يريد من أحد إلا الإيمان الاختـــياري . والنبـــي يحتكم إلى منطق العقل ، وهو يدرك أن العقول التي يخاطبها لو تجردت عن الهوى فستسلم لدعوته . وأنه لا يجوز بدعوى حرية الـــرأي أن يهـــدم كـــيان المجتمع ويخوض في سِيَر الناس وأعراضهم وبث الشـــائعات بـــل يجـــب أن يرد الأمر لأولي الأمر ، فهم الأقدر على استنباط الأمـــور . وأن هناك ضوابط لحرية الرأي فالكلمة أمانة وهي ملك لصاحبها مادامت حبيسة نفسه فهو يملكها ، فإن نطق بها صارت حجة عليه .

وحقـــوق الإنســـان لها مكانة سامية في الإسلام ، ويتفرع عنها كل ما على الإنسان من واجبات وما له من حقوق . والرسالة الإسلامية موجهة لكافة الـــناس أينما كانوا في بقاع العالم ومهما اختلفت أجناسهم وأعراقهم وتباعدت بلادهـــم أخوة في الدين . وكان للشريعة الإسلامية فضلها الذي لا ينكر حتى

مـــن أعدائهـــا في ترسيخ دعائم الحق ونشر العدالة التي أنقذت الإنسانية من مخالب الجهالة والضلالة . وبهذا التشريع الرباني المحكم أقر الإسلام حقوق الإنسان ، وشرع الحدود عقوبة عليها . وأن السمع والطاعة لولاة الأمر أصل مـــن أصـــول العقيدة إذ بالسمع والطاعة لهم تنظيم مصالح الدين والدنيا معًا، وبـــالا فتيات عليهم قولا وفعلا فساد الدين والدنيا وقد علم بالضرورة من دين الإســـلام أنـــه ديـــن جماعـــة ، ولا جماعة إلا بإمامة ، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة .

والبيـــئة تطلـــق علـــى المكان أو الحالة ، وهي الإطار الذي يمارس الإنسان حياته منه مثل الهواء والماء والأرض ، وتشمل عناصر الثروة مثل الـــزراعة ، والمصـــانع ، والمعادن ، والبترول . فالسماء رفعها الله وزينها بالنجوم وجعلها سقفا مرفوعا ، ومن آثارها الغلاف الغازي المحيط بالأرض يحمـــيها ويحفظها في درجة حرارة مناسبة . وهو الوسيط الذي يحمل بخار المـــاء ليكثف منه المطر ، يستنشق الإنسان الأوكسجين . والأرض أم رؤوم خلقـــنا مـــنها ونـــأكل من خيراتها ، وندفن بين أحضانها . إن الإسلام نظام أخلاقـــي مـــتكامل للـــتعاون على البر والتقوى ، وسلامة البيئة . فكان الفرد المســـلم عضـــوا فـــي المجتمع يهتم بأمور الناس ويحرص على سلامتهم ، ومأمور بالأمانة والصدق والصبر . كل هذه تهتم في تكامل شخصيته ودوره فـــي خدمـــة المجـــتمع ، والـــتعاون على النظافة والرعاية الصحية والثقافية والاجتماعـــية . ممـــا يمـــتد لسلامة البيئة وحسن تأهيلها إلى العمل النافع ، والسلوك الحضاري المهذب .

لقــد اســتطاع الإنسان بالإسلام ، أن يقدر دوره في الفعل الحضاري ويــنظر إلــيه كقيمة بالتفكير الذي يمكنه من التبصر وتقدير العواقب . ومن الــتعامل مع المتاح ومن خلال رؤية شمولية تستصحب الزمن بأبعاده الثلاثة الماضي ، الحاضر ، والمستقبل لقد أصبح المسلم يستشعر قيمة الزمن ، بعد أن كان قبل الإسلام كلا مستسلما للنظرة الدهرية وأدخل في حساب المسلم ، من خلال ملاحظات المظاهر الكونية . وربط أداء العبادات التي تمثل أركان الإسلام وتقيم بناءه الزمن والأزمنة المتميزة للفعل وبركة الإيمان . لقد اعتنى القرآن الكريم بالوقت ، مما يدل على قيمة الوقت وأهميته في حياة المسلمين ، ويحذر المفرطين في أوقاتهم ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

بعث الله تعالى رسوله ليخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور الحق واليقيــن ، فسعدت الإنسانية بهديه وازدادت فخرًا . مما قلل من شأن التفاخر بالأنساب وجعل التقوى مكرمة للإنسان . إذ الفضل الحقيقي هو إتباع ما بعث به محمدًا من الإيمان والعلم ، فكل من كان فيه أمكن كان أفضل ، لا بمجرد الإنســان عربــيًا أو عجميًا أو أسود أو أبيض ، وأصبح الأكرم هو الأتقى . ومعرفة أنساب الأمم مما افتخر به العرب لأنها احترزت على معرفة الأنساب اســم العلــم فهو علم فاضل . فمعرفة النسب وسيلة للتعارف الذي ينتج عنه التقارب . وأداء الحقوق ، والأقربون أولى بالمعروف . والله الموفق .

الفصل الأول

- الولاء والبراء .
- المفهوم اللغوي .
- المفهوم الشرعي .
- المقتضيات ....

الولاء و البراء

مـــن رحمة الله سبحانه وتعالى أن جعل الرسالة المحمدية هي خاتمة الرســـالات الســـماوية ، وجعلهـــا سبحانه كاملة صافية نقية لا يزيغ عنها إلا هـــالك . وأن أصل هذه الرسالة الخالدة : كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رســـول الله » . وحقيقة هذه الكلمة : مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا ، والتصديق به عقدًا ، والإقرار به نطقًا ، والانقياد له محبة وخضوعًا ، والعمل به باطنًا وظاهرًا ، وتنفيذه والدعوة إليه في الحب في الله والبغض في الله ، وأن يكون الله جل جلاله وحده إلهه ومعبوده .

ومـــن مفاهـــيم هـــذه الكلمة العظيمة بل من أهمها موضوع « الولاء والـــبراء » وهمـــا أصـــل مـــن أصول الإسلام ، وهما مظهران من مظاهر وإخـــلاص المحبة لله ، ثم لأنبيائه وللمؤمنين . وإن البراء مظهر من مظاهر كراهـــية الباطل وأهله . وهما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة . ولـــن تتحقق كلمة التوحيد في الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء ، والبراء ممن يستحق البراء .

ولقـــد قامت الأمة الإسلامية بقيادة البشرية دهرًا طويلًا حيث نشرت هذه العقيدة الغراء ، وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومـــن ضـــيق الدنـــيا إلى سعة الدنيا والآخرة . ومن ثم ما الذي حدث : لقد

تقهقــرت هذه الأمة إلى الوراء بعد أن تركت الجهاد وزهدت فيه وهو ذروة سنام الإسلام[1] .

لقــد تبعــت الأمــم الأخرى بعد أن ركنت إلى حياة الدعة ، وتبلبلت أفكارهــا بعــد أن خلطت نبعها الصافي بالفلسفات الجاهلية . وبرزت صور مــوالاة الكفار ، واستيراد قوانينهم شرقية أم غربية وإحلالها محل شريعة الله الغــراء لهدف صلاح دنياها بذهاب دينها . وإفساد المجتمعات الإسلامية عن طريق بث سموم الغزو بكل الوسائل الإعلامية المقروءة والمرئية .

إن حاجــة المســلمين ماســة إلى أن يعودوا إلى تحقيق الموالاة فيما بيــنهم ، والمعاداة مع أعدائهم ، حيث قد تداعت عليهم قوى الكفر والظلم من كــل حــدب وصوب وتنادى الجميع للقضاء على هذا الدين الحنيف بوسائلهم المختلفة ، ورميها له قاتلهم الله بالقصور والجمود ، والتعصب والتخلف . ولن يقــف فــي وجه من ينطبق عليهم « البراء » سوى اتحاد المسلمين وتلاحمهم صــفًا واحدًا ، كما قال عز من قائل في كتابه العزيز : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[2] . فقد اقتضت حكمة الله ســبحانه ، أن يبتلي خيار هذه الأمة بشرارها و مؤمنيها بفجارها ، وهذه سنة الله التــي قــد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا . ولله در الشاعر الذي قال :

كــل العــداوة قــد ترجي مودتها إلا عــداوة مــن عاداك في الدين

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام ، محمد سعيد القحطاني ، ص٧-١١ .

(٢) سورة الصف آية : ٤ .

يقــول فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عن الولاء والبراء في الإسلام : (فإنه بعد محبة الله ورسوله تجب محبة أولياء الله ومعاداة أعدائه . فمــن أصــول العقيدة الإسلامية أنه يجب على كل مسلم يدين بهذه العقيدة أن يوالــي أهلهــا ويعــادي أعدائها . فيحب أهل التوحيد والإخلاص ويواليهم ، ويــبغض أهل الإشراك ويعاديهم ، وذلك من ملة إبراهيم والذين معه ، الذين أمــرنا بالإقــتداء بهــم ، حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **لقد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير** ﴾[1] .

وهــو مــن دين محمد عليه الصلاة والسلام . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذيــن آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[2] . وهذه في تحريم مــوالاة أهل الكتاب خصوصًا . وقال في تحريم موالاة الكفار عمومًا : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء** ﴾[3] . بل لقد حرم الله على المؤمنين موالاة الكفار ولو كانوا من أقرب الناس إليه نسبًا ، وقال الله تعالى :

---

(١) سورة الممتحنة آية : ٤ .

(٢) سورة المائدة آية : ٥١ .

(٣) سورة الممتحنة آية : ١ .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم و إخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون** ﴾[1] .

وقد جهل كثير من الناس هذا الأصل العظيم ، حتى لقد سمعت بعض المنتسبين إلى العلم والدعوة في إذاعة عربية يقول عن النصارى إنهم إخواننا ، ويا لها من كلمة خطيرة .

وكما أن الله سبحانه حرم موالاة الكفار أعداء العقيدة الإسلامية فقد أوجب سبحانه موالاة المؤمنين ومحبتهم ، قال تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾[2] .

وقال الله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[3] فالمؤمنون إخوة في الدين والعقيدة وإن تباعدت أنسابهم وأوطانهم وأزمانهم قال تعالى : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك غفور رحيم** ﴾[4] . فالمؤمنون من أول الخليقة إلى آخرها مهما تباعدت أوطانهم وامتدت أزمانهم أخوة متحابون يقتدي آخرهم بأولهم ويدعو بعضهم لبعض ويستغفر بعضهم لبعض)[5] .

---

(١) سورة التوبة آية : ٢٣ .

(٢) سورة المائدة الآيتان : ٦٥ ، ٥٦

(٣) سورة الحجرات آية : ١٠ .

(٤) سورة الحشر آية : ١٠ .

(٥) الولاء والبراء في الإسلام ، صالح بن فوزان الفوزان ص١ - ٢ . هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التوعية ، جـ١ .

الحب والبغض أو الولاء والعداء ، صفات في النفس البشرية ، ولكن يؤاخذ الإنسان على متعلقاتها . فإن وافق الحب والبغض أمر الله في ذلك أثيب الإنسان عليهما ، وإن خالف الإنسان أمر الله في صفة الحب والبغض استحق العقاب على ذلك[1] . لأن الحب والبغض يتبعهما ذوق وإرادة وعمل عند وجود المحبوب أو المبغض . فمن اتبع ذلك بغير ما أنزل الله ، فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، بل قد يصعد به الأمر إلى الشرك فيكون ممن اتخذ إلهه هواه[2] .

إن الإسلام يوجب على المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعًا على أساس الإسلام . « الولاء والعداء » ، لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا من خلال ما تقتضيه الشريعة الإسلامية . وبناء على ذلك فقد قسم الشيخ حسن البنا رحمه الله الناس إلى أصناف هم : « مسلم مجاهد ، مسلم قاعد ، مسلم آثم ، كافر محايد ، كافر محارب ، ومن ثم لايمكن أن يقوم الولاء وهو التناصر بين المسلم والكافر في مجال العقيدة . حيث ليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه »[3] .

الولاية هي المحصلة النهائية لتفاعل العناصر المكونة للأمة المسلمة : أي عناصر الإيمان والهجرة والجهاد والرسالة والإيواء والنصرة . كما دل على ذلك أسلوب الإشارة إلى الولاية في آخر الآية التي وجهت إلى عناصر

---

(١) تعليق : الأساس أن يبغض ويحب في الله وليس أن يبغض ويحب ثم ينظر موافقة ذلك .

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ، للشاطبي ، جـ٢ ص١٠٧ .

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، جـ٦ ص٧٦٧ .

الأمة ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾[1] .

والولايـــة مصـــطلح قرآنـــي تـــردد في مئات المواضيع من القرآن والحديث ، بأمور الآخرين كلها . و « الولي » هو القائم بأمور غيره من الأمة المســـلمة بالطريقة التي أمر الله . أي إن « الولاية » مصطلح اجتماعي يعني ولاء الفـــرد المسلم للأفكار التي من خلال الإسهام مع المسلمين الآخرين في تحويـــل الأفكار المذكورة إلى تطبيقات عملية بين الأفراد الذين يشتركون في الإيمان بالأفكار الإسلامية المشار إليها . فالولاية هي الشعور بالمسؤولية في السلوك والعلاقات والحاجات ، وقيام الأفراد والمؤسسات والجماعات برعاية شـــؤون بعضـــهم البعض في الميادين المختلفة . ومن هذه الولاية والرعاية اشتقت : « أولي الأمر » و « الولاة » ، والذين يحسنون هذه الولاية والرعاية ، ويلتزمون في ولايتهم ورعايتهم لشؤون غيرهم أوامر الله وتوجيهاته .

لقد تطور مفهوم الولاية أو الولاء بتطور المجتمعات البشرية . فحين كـــان المجتمع الإنساني يتمثل في العائلة تحدد إطار الولاء بالعائلة . وحينما أصـــبح المجتمع البشري هو القبيلة تحدد الولاء بحدود القبلية . وحينما أصبح المجـــتمع البشري هو القوم تحدد إطار الولاء بحدود القومية . وحينما تهدمت الحـــدود الجغرافية والثقافية بين المجتمعات البشرية جاءت الرسالة الإسلامية بـــرباط الولاية الواسع الذي يفتح الباب لكل عضو في الإنسانية للإنضواء في عقده . إن جيل الصحابة قد جسد رباط الولاية بأوسع دوائر الولاء ، فضحوا

---

(١) سورة الأنفال آية : ٧٢ .

بأنفسهم وأموالهم لإخراج الناس إلى عدل الإسلام ، وسعة الدنيا والآخرة . ثم تلتهم أجيال ارتدت إلى محاور الولاء القومي أو الشعوبي ثم إلى محاور الولاء الإقليمي ، ثم إلى محاور الولاء القبلي . فالإنسان الحاضر في بلاد الإسلام يتحدد محور ولائه لدولته وليس لديه مفهوم واضح عما يعنيه الولاء للأمة المسلمة الواحدة .

وللولايات الإيمانية في القرآن والحديث درجات متسلسلة كالتالي :

الدرجة الأولى : ولاية الله للمؤمنين قال تعالى : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[1] . والله يتولى شئون المؤمنين بإخراجهم من ظلمات الجهل ومزالق الانحراف إلى مناهج الحياة الصائبة . والمؤمنون يتولون القيام بعبادته تعالى ونشر دعوته والجهاد في سبيلها بالمال والنفس . وولاية الله هي الأصل الذي تتفرع عنه بقية درجات الولاية . فمن لم يحقق هذه الولاية بينه وبين الله لا تنفعه موالاة سواه . قال تعالى : ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾[2] . ولذلك يجري التأكيد وتكرار التذكير ، وتتكرر الإشارة والبشارة للذين حققوها في القرآن الكريم والسنة الشريفة .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٧٥.

(٢) سورة الرعد آية : ١١ .

الدرجة الثانية : ولاية الرسل والمؤمنين وإلى هذه الدرجة من الولاية قال الله تعالى : ﴿ **إن أولـــى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمـــنوا** ﴾[1] . كمـــا قال تعالى : ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾[2]. فالرســـل يـــتولون المؤمنين بالتربية والتوجيه والإرشاد . والمؤمنون يتولون الرسل بالاستجابة والإتباع والإيواء والنصرة .

الدرجـــة الثالثة : ولاية المؤمنين للمؤمنين ، وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات يتولون إيواء بعضهم أولـــياء بعـــض** ﴾[3] . فالمؤمـــنون والمؤمنات يتولون إيواء بعضهم بعضاً ، ونصرة بعضهم بعضاً ، ويأمن بعضهم بعضاً في ميادين الحياة المختلفة ابتداءً من الأسرة ومروراً بالجوار في الدائرة الإنسانية الكبرى . ومن هذه الموالاة تـــتحد مـــن مفاهـــيم الولايـــة ابتداءً من ولاة الأسر وأولي الأمر من العلماء والرؤســـاء والخلفاء وولاة العمل إلى جميع المسؤوليات والوظائف كبرت أم صغرت .

الدرجة الرابعة : ولاية أولي الأرحام من المؤمنين ، وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كـــتاب الله من المؤمنين والمهاجرين** ﴾[4] . فأولو الأرحام وذوو القربى في « أمة » المؤمنين يقومون بتولي أمور بعضهم بعضاً في شئون الحياة كلها .

---

(١) سورة آل عمران آية : ٦٨ .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٦ .

(٣) سورة التوبة آية : ٧١ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٦ .

وتقـدم مصـادر التربـية الإسلامية في القرآن والسنة تفاصيل دقيقة لأشـكال الولاية والولاء الواجب تطبيقها في كل درجة من الدرجات المشار إليها . ففي درجتي ولاية الله للمؤمنين ، وولاية الرسل للمؤمنين تتميز أشكال الولايـة بسـلوك المحبة والإخلاص والإحسان والصدق . وفي درجة ولاية المؤمنين لبعضهم بعضاً تتميز أشكال السلوك بالمودة والتراحم[١] .

وولايـة غـير المؤمنين الذين لا يكون لهم مكان في ولاية المؤمنين تكون ولايتهم في الطرف المقابل من الولاية الفاسدة القائمة على نصرة الباطل والدعوة قائمة إليه والالتفاف حوله . وهذه الولاية الفاسدة درجتان :

الدرجـة الأولى : ولاية الشياطين للكافرين والمنافقين والعصاة ، أي يـتولونهم بالإضـلال والإفساد والاصطدام مع أوامر الله وسنته في الحياة . وإلـى هـذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى : ﴿ **فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم** ﴾[٢] .

وقـال تعالى : ﴿ **إنا جعلنا الشياطين أولياء الذين لا يؤمنون** ﴾[٣] . فالقـرآن والحديث يطلقان مصطلح « الشيطان » ليدل على « المنشطن » : أي المنحرف الضال عن قصد وإصرار[٤] .

---

(١) الأمة المسلمة ، د/ماجد الكيلاني ، ص١٢٥-١٢٨ .

(٢) سورة النحل آية : ٦٣

(٣) سورة الأعراف آية : ٢٧ .

(٤) تفسير الطبري ، جـ١ ص٢٩ ، وتفسير ابن كثير سورة البقرة آية : ١٥ .

وهناك نوع آخر هو الشيطان الإنسان الذي « ينشطن » أي ينحرف عن قصد وإصرار عن منهج الله ، ويتبنى منهاجاً مضاداً في الفكر والسلوك . ويجعل من الانحراف والضلال فكراً صائباً وعملاً صالحاً وإنجازاً حضارياً متقدماً ، ثم يكرس حياته وجهوده للدعوة إلى هذا الانحراف والضلال وإشاعتهما . وفي معنى قوله تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم** ﴾[1] .

أي أن الشياطين المشار إليهم في هذه الآية هم شياطين فارس من المجوس ، وأن أولياءهم المتمردون من مشركي قريش . فقد أرسلت فارس إلى أوليائها من قريش أن جادلوا محمد وأصحابه حول أكل الميتة ، وكانوا يسمونها قتل الله . فقالوا ما قتل الله لا تأكلون وما قتلتم تأكلون ؟ فأنزل الله قوله : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾ [2] . وفي رواية أخرى قالوا : أما قتل الصقر والكلب فتأكلون ، وأما قتل الله فلا تأكلون ؟ فوقع في نفوس بعض المسلمين شيء ، فأنزل الله الآية ونزلت أيضاً آية : ﴿ **شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾[3] .

إن ظاهرة شياطين الفكر من المستعمرين يثيرون الشبهات حول الإسلام . وظاهرة أوليائهم من العرب كانوا وما زالوا يتلقون القضايا الفكرية من شياطين الخارج . ففي الماضي كانوا يتلقون المعتقدات والشبهات من فارس والروم ، واليوم يتلقونها من الغرب والشرق ، ولا عاصم لهم إلا

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٢١.

(٢) سورة الأنعام آية : ١٢١.

(٣) سورة الأنعام آية : ١١٢.

الإسلام . والحديث النبوي يركز على التحذير من شياطين الإنس . ومن ذلك قوله : ((**يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قلت يا رسول الله وهل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم شر من شياطين الجن**))[1] .

وبهذا التصور الذي يقدمه القرآن والحديث يكون هناك شيطان الفكر ، وشيطان التربية ، وشيطان الآداب ، وشيطان الفنون ، وشيطان الإعلام ، وشيطان الإباحية ، وشيطان الأزياء . ومن أحب أحد من هؤلاء الشياطين أو قلده فهو ولي له ، وهم أولياء له باعتبار أن لكل هؤلاء اهتمامات مشتركة تعمل في الاتجاه المضاد لصحة الأمة الإسلامية وسلامة عناصرها في الإيمان .

الدرجة الثانية : ولاية الكافرين والمنافقين والعصاة بعضهم لبعض : وإلى هذه كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى : ﴿ **وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾[3] . وينبه القرآن الكريم إلى ضرورة العلم بالنوعين من « الولاية » والتمييز بينهما بغية اتقاء التداخل أو الاختلاط بين الأفكار والتطبيقات والروابط والولاء مما يضعف الأمة المسلمة . وأبرز الظواهر التي تختلط فيها مفاهيم الولاية والرعاية هي : « روابط العصبية والدم والمصالح الاقتصادية » .

---

(١) تفسير الطبري ، جـ٨ ص١٦ ، وص٥ .

(٢) سورة الجاثية آية : ١٩ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٧٣ .

ولذلـــك أخضعتها التربية الإسلامية لتوجيهاتها وسمحت بها ما دامت « صلة رحم » تدور في فلك ولاية الإيمان . أما إذا انقلبت عصبية جاهلية واصطدمت بولاية المؤمنين ، فعند ذلك لا مكان لها في « أمة المؤمنين » وإلى ذلك يشير أمثال قوله تعالى : ﴿ **يـــا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجـــارة تخشـــون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهـــاد فـــي سبيله فتربصوا حتى يأتي أمر الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾[1] . والرسول ﷺ يخرج من بقي موالياً لروابط العصبية من إدارة الانـــتماء إلى الأمة المسلمة . وأنه ليس من هذه الأمة من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية[2] .

وتبدو الحكمة من المفهوم الإسلامي « للولاية » حين ننظر في العلاقة بيـــن فاعلـــية الولاية وسعة دائرتها ، فالأمة التي تمتد حدود الولاية فيها إلى الدائـــرة الإيمانية التي تتسع للإنسانية كلها تتفوق على الأمة التي ينتهي رباط الولاية فيها عند « الدائرة القومية » . والأمة التي ينتهي رباط الولاية فيها عند القـــوم تتفوق على الأمة التي تنتهي فيها رباط الولاية عند دوائر « القبلية » . السبب أنه كلما اتسعت دائرة الولاء تطلبت إلى قدر أكبر من العمل الجماعي ومحتويات أوسع وأعمق لروابط الإيمان[3] .

---

(١) سورة التوبة آيتا : ٢٣-٢٤ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة .

(٣) المرجع السابق ، ص١٢٨-١٣٢ .

المفهوم اللغوي « للولاء » و« البراء »

والمولى اسم يقع على جماعة كثيرة ، فهو : الرب ، والمالك ، والسيد ، والمنعم ، والمعتق ، والناصر ، والمحب ، والتابع ، والجار ، وابن العم ، والحليف ، والصهر ، والعبد ، والمعتق ، والمنعم عليه . ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمحبة[1] .

والولاء بمعنى الدنو والقرب والولاية ضد العداوة ، والولي عكس العدو . فالمؤمنون أولياء للرحمن ، والكافرون أولياء للشيطان . ومن أسماء الله عز وجل « الوالي » ، وهو المالك للأشياء جميعها المتصرف منها . ومن استعمالات « الولي » بمعنى الناصر ، قول الله تعالى : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾[2] . يراد به الناصر والمؤيد قال الله تعالى : ﴿ **بل الله مولاكم وهو خير الناصرين** ﴾[3] . وكلمة « أولياء » بمعنى الخاصة قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾[4] .

إن معنى الموالاة في أغلب الأحايين هو المحبة ، والمودة ، والمتابعة ، والقرابة ، والنصرة . وكل هذه المعاني القيمة ، أراد الإسلام

---

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، جـ٣ ص٩٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٧ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٥٠ .

(٤) سورة النساء آية : ١٤٤ .

تحقيقها في واقع المسلمين وفي حياتهم العملية[1] . وقد جسد هذا المعنى حديث رسول الله ﷺ في أوضح صورة ، فقال : ((**ترى المؤمنين في تراحمهم ، وتوادهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**))[2] .

بريء إذا تخلص ، وبريء إذا تنزه وتباعد ، وبريء إذا أعذر وأنذر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾[3] . أي إعذار وإنذار . والبراء والبريء سواء . وليلة البراء ليلة يتبرأ القمر من الشمس ، وهي أول ليلة من الشهر[4] .

فالمعاداة : مصدر يعادي ، والعداوة : اسم بمعنى الخصوصية والمباعدة وهي شعور المتمكن في القلب في قصد الأضرار وحب الانتقام . والعدو ضد الولي ، والجمع أعداء ، وجمع الجمع أعادي ، وكذا العدو ضد الصديق ، يطلق على الواحد والجمع . والعدوان الظلم الصراح . والعدو ، والعداوة ، والأعداء ، والعدوان كلها ورد استعمالها في القرآن الكريم قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ....** ﴾الآية[5] . وقال تعالى :

---

(١) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ، محماس الجلعود ، جـ١ ص٢-١١ .

(٢) صحيح البخاري ، باب كتاب الأدب ، جـ٨ ص١٢.

(٣) سورة التوبة آية : ١ .

(٤) لسان العرب ، ابن منظور ، جـ١ ص١٨٣ ، القاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، جـ٤ ص٣٦ .

(٥) سورة الممتحنة آية : ١ .

﴿ **والقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .... ﴾**[1] وقال تعالى : ﴿ **والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴾**[2] . وقال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾**[3] . وقال الله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾**[4] . أي فلا قتال إلا على الذين لم ينتهوا من الظلم ، قال الله تعالى : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم ﴾**[5] . فالمعاداة إذاً تأتي في أغلب استعمالاتها ، ويراد بها البغض والكراهية وحب الانتقام . عكس الموالاة تماماً ، التي تدل في أغلب استعمالاتها على المحبة والمودة والنصرة والقرابة . ولذلك فالموالاة والمعاداة ضدان لا يجتمعان ، فوجود أحدهما ينفي الآخر[6] ، قال الشاعر :

تحب عدوي ثم تزعم أنني صديقك إن الود عنك لعازب

---

(١) سورة المائدة آية : ٦٤.

(٢) سورة النساء آية : ٤٥ .

(٣) سورة الفرقان آية :٣١ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٩٣ .

(٥) سورة لقمان آية : ١٣ .

(٦) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ، محماس الجلعود ، جـ١ ص١٢-١٥ .

المفهوم الشرعي في الفرق بين الموالاة والتولي

الـــولاء والمـــوالاة وتعنـــي الـــتقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا ، لمن يتخذه الإنسان ولياً . فإن كان هذا التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا ، مقصود به الله ورسوله والمؤمنين ، فهي الموالاة الشرعية الواجـــبة علـــى كل مسلم . وإن كان المقصود بالتقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا ، هم الكفار ، على اختلاف أجناسهم ، فهي موالاة كفر وردة عن الإسلام ، إذا صدرت ممن يدعي الإسلام[1] .

إن معـــنى « الولاية » التي ينهي الله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين الـــيهود والنصارى ، هي ولاية التناصر والتحالف ، ولا تتعلق بمعنى اتباعهم فـــي ديـــنهم . فبعـــيد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى إتباع اليهود والنصارى في الدين . وإنما الذي يخشى منه هو ولاء التحالف حتى نهاهم الله عنه ، وأمر بإبطاله . بعد ما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر الـــذي كان يتلبس على المسلمين أمره في أول الدعوة الإسلامية ، حتى نهاهم الله عـــنه ، وأمـــر بإبطالـــه . بعـــد ما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود في المدينة المنورة[2] .

---

(١) كتاب الإيمان ، د/محمد نعيم ياسين ، ص١٨٨.

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، جـــ٦ ص٧٥٨.

كمـــا أن الفـــرق بيـــن الموالاة والتولي في المفهوم الشرعي يبين أن « التولي » هو الدفاع عن الكفار ، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي . وهذا كفر صـــريح يخرج من الملة الإسلامية . أما « الموالاة الخاصة » فهي كبيرة من كـــبائر الذنوب وهي المصانعة والمداهنة ، لغرض دنيوي ، مع عدم إضمار نية الكفر والردة عن الإسلام . وبعد نزول الآيات بذلك قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذيـــن آمـــنوا لا تـــتخذوا عـــدوي وعدوكم أولياء ...** ﴾ الآية . إلى قوله تعالى : ﴿ **ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾[1] .

إن الموالاة المطلقة العامة مرادفة لمعنى التولي ، وهي بهذا الوصف كفر وردة ، ومنها ما دون ذلك بمراتب متعددة ، ولكل ذنب حظه وقسطه من الوعـــيد والـــندم بحسب نية الفاعل وقصده . والموالاة التي تصل بفاعلها إلى درجة الكفر ، والردة عن الإسلام هي ما يلي :

أولاً : أن يوالـــي المســـلم الكافر ، وتكون موالاة لهم مع مساكنهم في ديـــارهم والخـــروج معهـــم فـــي قـــتالهم ونحـــو ذلك ، كما في ظاهر قوله تعالى : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم ...** ﴾ الآية[2] .

ثانـــياً : أن تكـــون موالاة المسلم لهم بإتباع نظمهم ، وتطبيق قوانينهم الجاهلـــية التـــي تبيح ما حرم الله من ربا وزنا وخمر ونحو ذلك ، وتحرم ما أحـــل الله مـــن نسل أو تزاوج أو إرث أو أمر بالمعروف ونهي عن منكر .

---

(١) سورة الممتحنة آية : ١ .

(٢) سورة المائدة آية : ٥١.

قـــال الله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[1] .
وفي الحديث الصحيح : ((**من أحب قوما رجي أن يكون معهم**))[2] .

أما الموالاة الخاصة التي لا تصل إلى درجة الكفر ، إنما ذنباً ومعصية وإثماً ، فهي ما يلي :

أولاً : إذا كانت الموالاة لهم في ديار المسلمين إذا قدموا إليها ، وذلك مثل الإكرام العام لهم ، بغير دعوة إلى الإسلام ، ومن غير مودة قلبية لهم .

ثانـــيًا : إذا كـــان الإكـــرام للكفار والموالاة لهم من أجل دنياهم ، مع اعتقاد القلب ببطلان ما هم فيه من كفر وكراهية ذلك منهم[3] .

ومـمـــا تقـــدم نجد أن الذين تكلموا في الموالاة من العلماء الذين سبقت الإشـــارة إليهم قد عدوا أعلى درجات الموالاة للكفار « ردةً وكفراً » ، وأقلها يكـــون ذنباً ومعصية وإثماً . ولم يذكروا أي نوع من أنواع الموالاة تصح مع الكفار .

إلا أن بعـــض العلمـــاء المعاصـــرين[4] ، قسموا الموالاة للكفار إلى قسمين :

---

(١) سورة المائدة آية : ٥١ .
(٢) سنن الترمذي ، باب ما جاء المرء مع من أحب جـــ٤ ص٥٩٥ رقم ٢٣٨٥ .
(٣) تفســـير القرطبي ، جـــ١٨ ص٥٢ ، تفسير أحكام القرآن ، ابن العربي ، جـــ٤ ص.١٧٧ ، مجموع التوحيد ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، ص١٢٦ .
(٤) تفســـير آيات الأحكام ، محمد السايس جـــ٢ ص٦ ، مقرر الفقه للصف الثاني ثانوي ، مناع القطان .

القسم الأول : أن تكون الموالاة بمعنى المسامحة والمسالمة والمعاشرة الجميلة في الدنيا ، والمعاملة بالحسنى وتبادل المصالح بحسب الظاهر ، مع عدم الرضا عن حالتهم وكفرهم فهذا أمر غير منهي عنه . وقد استدلوا على ذلك بقوله تعالى:﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾[1].

القسم الثاني : أن تكون الموالاة بمعنى المحالفة والمناصرة ضد المسلمين والرضا عن الكفار وبما هم فيه من كفر ، فإن الرضا بالكفر كفر ، ولا يبقى مؤمناً مع كونه بهذه الصفة . لأن في مناصرة الكافرين على المسلمين ، ضرراً بالغاً بالكيان الإسلامي ، وأضعافاً لقوة الجماعة المؤمنة ، وهذا النوع من الموالاة قد نهى الله عنه بقول الله تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء** ﴾[2] .

ويتضح من كلام الشيخين أن هناك نوعاً من أنواع الموالاة يجوز فعلها مع الكفار . ولكن الذي قصده الشيخان ، هو البر والصلة فعبر بالموالاة عن البر والصلة التي أباحها الله مع المسالمين من الكفار في قوله تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾[3] .

---

(١) سورة الممتحنة آية : ٨ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٢٨ .

(٣) سورة الممتحنة آية : ٨ .

وإلا فـإن نصـوص الكـتاب والسـنة ، لم تذكر إباحة تولي الكفار أو موالاتهم على أي وجه من الوجوه سوى حالة الإكراه قال تعالى:﴿ **لا يتخذ المؤمـنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير** ﴾[1] . فـيجوز في حالة الضعف والخوف من آذاهم الموالاة لهم ظاهر ، ريثما يعد المسـلمون العـدة لمواجهة الكفار والتحرر من سيطرتهم . فالموالاة شيء لا يعتـبر مـرادفاً للبر، يعني الصلة في الخير والاتساع في الإحسان . فدعوة الإسلام إلى المسامحة في معاملة بعض الكفار والبر بهم لا يعني الموالاة لهم . فسـماحة الإسـلام بـتعامل المسـلم مع الناس جميعاً ، على أساس العدل والاحترام المتبادل ، بدون محبة القلب للكفار ، أو مودة ما هم فيه من كفر . وإنما التعامل فيما ليس له مساس في جانب العقيدة ، كالبيع والشراء ، وتبادل المنافع التي لا تستلزم حباً أو بغضاً في بعض الأحوال . فعدم موالاة الكفار لا تمنع مصاحبتهم بالمعروف ، فقد قال تعالى : ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً** ﴾[2] . فهذا دليل على أن الإسلام لا يمنع من مصاحبة الوالدين بالمعروف ، مع اختلاف العقـيدة ، وهـذه المصاحبة ليست هي الموالاة المنهي عنها ، لأن المصاحبة بالمعروف لا ترقى إلى درجة الموالاة . أما إذا وصل الأمر إلى درجة المحبة

---

(١) سورة آل عمران آية : ٢٨ .

(٢) سورة لقمان آية : ١٥ .

القلبـــية لهـــم ، ولمـــا هو من خصائص كفرهم ، فهذا هو التولي ، والموالاة المحرمة[١] .

إن المســـلم الحقيقـــي هو الذي يتحلى بالمفاصلة الكاملة بينه وبين من ينهج غير منهج الإسلام . وأن المسلم مأمور بأن لا يخلط بين منهج الله وبين أي منهج آخر وضعي لا في تصوره الاعتقادي ، ولا في نظامه الاجتماعي ، ولا في كل شأن من شئون حياته . وأن الفوارق بين الإسلام والكفر لا يمكن الالـــتقاء عليهما بالمصالحة والمصانعة . والتسامح الذي أقره الإسلام ضمن حدود معينة مع غير المسلمين ، ينبغي أن لا يكون على حساب أضعاف تميز المسلم في تصوره الاعتقادي ونظامه الإجتماعي[٢] .

إن الغـــرض مـــن معاداة الكفار من قبل المسلم هي أن تبقى شخصية المســـلم واضحة قوية متميزة بارزة المعالم ، ترى دلائل الإسلام ظاهرة فيها وفي كل حركاتها[٣] .

ومما تقدم أن الموالاة هي المحبة : « قولاً ، وفعلاً ، واعتقاداً » ، وأن محـــبة الله واجبة . وهي لا تتحقق إلا بحب ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال والأشخاص . حيث أن من الأمور البديهية « أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » ، وأن المحبة تنقسم إلى قسمين :

---

(١) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ، محماس الجلعود ، جـــ١ ص٢٩-٣٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، جـــ٦ ص٧٥٨ - ٧٦٧ .

(٣) ليس من الإسلام ، محمد الغزالي ، ص٣٠١ .

أولاً – محبة في الله :

وهـــي أن يحـــب المسلم كلما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال والأشخاص ، وهذه المحبة من الموالاة المأمور بها شرعاً ، وهي منبعثة من محبة الله ، متممة لها غير متنافية معها .

ثانياً – المحبة مع الله :

وهـــي أن يـــتعلق قلب الإنسان بمحبوبه يحبه مع الله أو من دون الله فـــيغفل عـــن محبة الله ، أو يتوجه إلى غير الله بالرغبة والرهبة فتكون هذه المحـــبة مغنية وصارفة له عن محبة الله ، ومحبة ما يحبه الله ، فتكون منافية لمحبة الله متعارضة معها ، وتلك حقيقة « موالاة أعداء الله » وإذًا المحبة في الله محمـــودة إلـــى كل داع إلى الله ومهتدي بهداه . أما المحبة مع الله ، فهي محبة مذمومة ، حاملة لصاحبها على محبة الشرك [1] .

أنواع المحبة الضادة :

الـــنوع الأول : المحبة مع الله ، وهي أصل الشرك ، وأصل المحاب المذمومـــة ومـــثلها مثل محبة كفار قريش لأصنامهم في عهد الرسول ﷺ ، ومحـــبة بعض المنتسبين إلى الإسلام للأحزاب الكافرة المنحرفة في العصر الحاضر .

---

(١) المـــوالاة ولمعـــادة في الشريعة الإسلامية ، محماس الجلعود ، جـــ١ ص٣٤-٣٧ ، الشرك ومظاهره ، مبارك الميلي ، ص١٧٩ .

النوع الثاني : محبة ما يبغضه الله من كفر وفسوق وعصيان .

الـــنوع الثالـــث : محبة ما تقطع محبته عن محبة الله أو تنقص ذلك مـــثل : محـــبة « الأهل ، والمال ، والولد » ، إذا كانت على حساب محبة الله أو صارفة للمسلم عن محبة الله .

وإن بين الموالاة والمعاداة دلالة في مفهوم المخالفة . فإذا نهى الله عن المعاداة بالنص الظاهر دل المفهوم على وجوب الموالاة ، وإذا نهى الله تعالى بالنص الظاهر عن الموالاة دل المفهوم على وجوب المعاداة . أي بمعنى أن الأمـــر بالشيء نهى عن ضده من طريق اللزوم العقلي . وحول هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية « رحمه الله » : أن كمال الإخلاص ويقينه موجب أن يكون الله أحب إلى المرء من كل شيء سواه ، وأخوف عنده من كل شيء عداه . فلا يبقى يومئذ إرادة لما حرم الله ، ولا كراهية لما أمر الله .

إن أصـــل الدين وكماله ، أن يكون الحب في الله ، والبغض في الله ، والمـــوالاة في الله ، والرجاء لله ، والإعطاء لله ، والمنع لله . وهذا إنما يكون بمتابعة رسول الله ﷺ الذي أمره لله ، ونهيه لله . فالذي لا يرضى لرضى الله ورســـوله ، ولا يغضب لغضبهما ، وإنما يرضى لهواه ويغضب لذلك ، فهو من قال الله فيهم : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾[1] .

---

(١) سورة النجم آية : ٢٣ .

فالمسلم المؤمن المخلص في عقيدته هو من أخلص توحيده لله وعادى المشـــركين في الله وهم أعداء الله[1] . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق...** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾[2] .

---

(١) المرجع السابق ، جـــ١ ص٣٧ - ٣٩ .

(٢) سورة الممتحنة آية : ١ .

مقتضيات الولاء والبراء

إن مـــن مقتضـــيات الولاء والبراء أو التولي والموالاة :هو أن الولاء أصله الحب ، والبراء أصله البغض . وقد ينشأ عنهما من أعمال الجوارح ما يؤيـــد صدق ذلك الحب أو يكذبه ، وما يؤيد ذلك البراء أو ما يبطل زعمه ، ويشتمل على :

أولاً : حب الله ورسوله :

الحـــب عنصـــر أصـــيل فـــي التصـــور الإسلامي ، دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً** ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾[2] . ذلك أن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية لا يجفف ذلك النداء الحبيب بين الله وعباده ، فهي علاقة الرحمة والعدل والود .

ومن نعمة الله على عباده المؤمنين أن يجعل المحبة فيه هي الوشيجة العظمى بينهم ، وهي المورد العذب الذي ينهلون منه جميعاً . ثم جعل سبحانه وجود المحبة للقوم ولما يلحق بهم المحب سبيلاً للحاق بهم يؤيد ذلك قوله ﷺ : ((**المـــرء مع من أحب**))[3] . وعن أنس أن رجلاً سأل النبي متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : ((**ما أعددت لها**)) قال : ما أعددت لها من كثير الصلاة

---

(١) سورة مريم آية : ٩٦ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٣١ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأدب باب علامة الحب في الله ، جـ١٠ ص٥٥٧ .

ولا صـــوم ولا صـــدقة ، ولكنـــي أحب الله ورسوله . قال : ((**أنت مع من أحببت**))[1] .

علـــى أن مـــن الواجـــب : أن هذا الحب ليس مجرد أماني أو أحلام تناقضـــها الأفعـــال القبيحة . وإنما هو حب بالقلب وعمل بالجوارح [2] . قال الله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[3] .

قـــال الحســـن : لا تغتر بقولك المرء مع من أحب إن أحب قوماً اتبع آثـــارهم ، ولـــن تلحـــق الأبرار حتى تتبع آثارهم ، وتأخذ بهديهم ، وتقتدي بســـنتهم ، وتمســـي وتصبح وأنت على منهاجهم ، حريصاً أن تكون منهم ، وتسلك سبيلهم ، وتأخذ طريقهم ، وإن كنت مقصراً في العمل فإن ملاك الأمر أن تكـــون على استقامة . أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء الرديئة يحبون أنبيائهم وليسوا في القول والعمل وسلكوا غير طريقتهم فصار موردهم النار[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأدب باب علامة الحب في الله ، جـ١٠ ص٥٥٧ .

(٢) الولاء والبراء في الإسلام ، محمد سعيد القحطاني ، ص ٢٦١ – ٢٦٣ .

(٣) سورة آل عمران آية : ٣١ .

(٤) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب ، ص١٣٣ .

والمحبة تنقسم إلى :

١- **محبة شركية :** وأصحابها هم الذين قال الله فيهم : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العقاب** ﴾[١] .

٢-**حب الباطل وأهله :** وبغض الحق وأهله وهذه صفة المنافقين .

٣- **محبة طبيعية :** وهي محبة المال والولد إذا لم تشغل عن طاعة الله فهي مباحة .

٤- **حب أهل التوحيد وبغض أهل الشرك :** وهي أوثق عرى الإيمان ، وأعظم ما يعبد به العبد ربه .

وما دامت المحبة في الله هي أوثق عرى الإيمان ، قال ﷺ : ((**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**))[٢] . فإن الطريق الموصل إليها وإلى موالاة الله عز وجل هو : إتباع شرعه الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ . ومعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلابد أن يبغض أعداءه . وقد وصف الله سبحانه وتعالى عباده الذين يحبهم ويحبونه قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم**

---

(١) سورة البقرة آية : ١٦٥ .

(٢) الجامع الصغير ، للسيوطي ، جـ١ ص٦٩ .

ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾[1] . أي إنهم يعاملون المؤمنين بالذلة واللين وخفض الجناح . ويعاملون الكافرين بالعزة والغلظة لهم . فهم يحبون من أحبه الله ويبغضون أعداء الله كما قال الله تعالى : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود .... ﴾** الآية[2] .

ثانيًا : حق المسلم على المسلم :

إن من مقتضيات الولاء : حق المسلم على المسلم ، فالمحبة في الله هي الوشيجة العظمى التي التقى عليها المؤمنون ، ويلتقون عليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وعلى هذه الوشيجة تبنى حقوق المسلم على المسلم . وهي كثيرة جداً مما هو منصوص عليه في الكتاب والسنة ، ومن هذه الحقوق :-

١- المودة :

وهذه للمؤمنين بعضهم لبعض ومنها : حب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه كما قال ﷺ : **((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))** متفق عليه[3] .

---

(١) سورة المائدة آية : ٥٤ .

(٢) سورة الفتح آية : ٢٩ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، جـ١ ص٥٧ جـ١٣ .

٢- النصرة :

وهــذا واجب أخوي إيماني على كل مسلم لأخيه المسلم من أي جنس كان ينصره بنفسه وبماله . قال ﷺ : ((**ما من امرئ يخذل امرءًا مسلماً في موضــع تنتهك فيه حرمته وينقص فيه عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فــيه نصــرته ، وما من امرئ ينصر مسلماً في موطن ينتقص فيه عرضه وينتهك فيه حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته**))[١] .

النصرة هي من العناصر المكونة للأمة الإسلامية ، وان معنى النصرة في القرآن الكريم والحديث لتعني : « النصرة بمعنى إتباع دين الله والجهاد في سبيله وطاعة أوامره واجتناب معاصيه »، مثل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمــنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[٢] . النصرة بمعنى التأييد والمســاعدة على التفوق والغلبة ، مثل قوله تعالى : ﴿ **وقلد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ...** ﴾ الآية[٣] . وقال تعالى : ﴿ **لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ...** ﴾ الآية[٤] .

---

(١) أبو داود ، كتاب الأدب ، جـ٥ ص١٩٧ جـ٤٨٨٤ .

(٢) سورة محمد آية : ٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٢٣ : .

(٤) سورة التوبة آية : ٢٥ .

وقـــال الله تعالى : ﴿ **فالذين آمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنـــزل معـــه أولـــئك هـــم المفلحـــون** ﴾[1] . والنصرة بمعنى الحماية مثل قوله تعالى : ﴿ **إلا تنصروا فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا...** ﴾ الآية[2] .

أمـــا عـــن المناسبات التي اقترنت بالتوجيهات القرآنية والنبوية التي عالجت عنصر النصرة وأدرجته في العناصر المكونة للأمة الإسلامية فهي :

أولاً : ذلـــك الالتزام الكامل الذي قام به الأنصار قولاً وعملاً لنصرة رســـوله ﷺ ، ونصـــرة المهاجريـــن معه ، ومن أجل ذلك أطلق عليهم اسم « الأنصار » .

ثانياً : تلك التضحية الكاملة التي قدمها المهاجرون حين اقتلعوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي وثقافته اقتلاعاً كاملاً ثم أوقعوا على الأنفس نصرة دين الله سبحانه وتعالى .

ثالـــثًا : إقامـــة الفريقين مجتمعين لمعاني الإسلام في واقع حياتهم في المجـــتمع النـــبوي ، ثـــم الخروج إلى العالم كله لإقامة هذه المعاني في حياة الآخرين .

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

(٢) سورة التوبة آية : ٤٠ .

ويـــتحقق عنصر « النصرة » في حياة الأمة المسلمة من خلال نصرة « أفكـــار » الرسالة الإسلامية . ويتكون كل مجتمع من ثلاثة عناصر رئيسية هـــي : « الأفكار ، والأشخاص ، والأشياء » . وتكون الأمة في أعلى درجات الصـــحة حيـــن تكـــون نصرة « الأفكار » هي المحور الذي يدور في فلكه : « الأشـــخاص ، والأشـــياء » . ففـــي هذه الحالة يخلف « أشخاص » المؤمنين الرســـول ﷺ فـــي نصرة أفكار الرسالة ، ومدى القدرة على حملها أي فقهها وتطبـــيقها ، ومدى الإخلاص في هذا الحمل ، والقرآن الكريم يطلق على كل مـــن القـــدرة الإخـــلاص اصطلاحي : « القوة ، والأمانة » . وذلك عند قوله تعالى : ﴿ **إن خير من استأجرت القوي الأمين** ﴾[1] . وفي آية أخرى يسميها التمكين ، والأمانة وذلك عند قوله تعالى : ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾[2]. والقـــوة هنا تعني الجدارة وهي شاملة ذات مظاهر عديدة . فهي القدرة على تنفـــيذ الأحكام ، والقوة في ميدان العسكرية تدور حول شجاعة القلب والخبرة العســـكرية ، وهكذا بقية ميادين الحياة . أما « الأمانة فتدور حول الولاء الذي من أجله تبذل القدرة »[3] .

ومن الأوامر النبوية في شأن النصرة قوله ﷺ : ((**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**))[4] . ونصرته إذا كان مظلوماً ظاهرة أما نصرته إذا كان ظالماً فبردعه عن الظلم ومنعه عنه . وقال ﷺ : ((**المسلم أخو المسلم لا يظلمه** ،

---

(١) سورة القصص آية : ٢٦ .

(٢) سورة يوسف آية : ٥٤ .

(٣) الأمة المسلمة ، د / ماجد الكيلاني ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، جـــ٥ ص٩٧ جـــ٢٤٤٣ .

ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله عز وجل في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة))[1] .

وتتحقق النصرة بعدة أمور منها : الدفاع بالنفس عن الأخ المسلم ، وبذل المال له لإعزازه و تقوية جانبه ، و الرد على أهل الباطل الذين يريدون خدش كرامة المسلمين ، والدعاء للمسلم بظاهر الغيب بالنصر والتوفيق ، وتتبع أخبار المسلمين والوقوف على أحوالهم ودعمهم بقدر الاستطاعة[2] .

لقد أكرم الله عز وجل المسلمين حين جعل من دينه رابطة تربط المسلم بأخيه المسلم مهما نأى المكان واختلف الزمان . وأصبحت العقيدة الإسلامية ، تجمع بين القلوب المؤمنة ، وتنشأ العطف والرحمة فيما بينها ، قال الله تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ...** ﴾ الآية[3] . فالإسلام هو العروة الوثقى بين أتباعه جميعاً ، وأن التناصر بينهم يتم في حدود الشريعة الإسلامية . فقد أمرنا الله تعالى بأوامر وكلفنا بتنفيذها ، ونهانا عن محرمات وطلب منا عدم مقارفتها ، قال تعالى : ﴿ **و تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾[4].فالموالاة لله لا تصدر من طرف واحد،

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة ، جـ٤ ص١٩٩٦ جـ ٢٥٨٠ .

(٢) الولاء والبراء في الإسلام ، محمد سعيد القحطاني ، ص٢٦٤ - ٢٦٩ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٠٣ .

(٤) سورة المائدة آية : ٢ .

وإنما هي شركة بين المؤمنين يكمل بها بعضهم بعضاً، والحقوق التي تقتضيها الأخوة في الله تتلخص في :

١- الإيثار :

إن من الصفات الكريمة التي امتدح الله بها الأنصار صفة الإيثار ، قال تعالى: ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[١] . فالمسلم الذي يؤثر إخوانـــه في الله بماله ونفسه ، فإن ذلك دليل على كمال إيمانه وعظيم حبه لله تعالى ، ولمن يحبهم الله من خلقه .

٢- قضاء الحاجات :

من حقوق الموالاة في الله قضاء حاجات الإخوان والقيام بها على قدر الاســتطاعة والقــدرة ، مع البشاشة ، وإظهار الفرح والاستبشار بها . وكان بعض السلف الصالح يقوم بتفقد عيال أخيه في الله بعد موته فيقضي حاجتهم ، ويلبي مطالبهم ، ويتودد لهم ، كأنهم بمنزلة أولاده ، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه . وكان الحسن البصري « رحمه الله » يقول : « إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا ، ولأن أهلينا يذكروننا الدنيا ، وإخواننا يذكروننا الآخرة » .

٣- السكوت عن عيوب إخوانه في غيبتهم وحضرتهم :

ويستحســن أن يكــون ناصحاً لهم بطريق غير مباشر إذا كانت هذه الأمور متعلقة بعيوب شخصية مثل : قلة الأكل عند البعض منهم ، أو زيادته عند البعض الآخر ، أو كثرة النعاس ، أو عدم الاعتناء بالنظافة الشخصية .

---

(١) سورة الحشر آية : ٩ .

أمـــا إذا كانـــت هـــذه العيوب تمس شيئاً من واجبات الدين وأركانه « فالدين النصيحة » ولا يجب التهاون في ذلك ، وقد قال عبد الله ابن المبارك « رحمه الله » المؤمن يطلب لهفوات إخوانه المعاذير ، والمنافق يطلب العثرات .

٤- ترك سوء الظن في إخوانه :

مـــن حقوق الموالاة في الله ترك سوء الظن بالأخ المسلم ، فسوء الظن غيبة القلـــب ، وذلك أمر منهي عنه المسلم ، ما لم تتوفر الأدلة اليقينية في حصول الأمر المظنون فيه ، وسوء الظن هو أن تحمل فعل أخيك على وجه فاسد مع إمكان أن تحمله على وجه حسن . وسوء الظن قد ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : « فراسة المؤمن » ويستند إلى علامات ودلائل تشير إلى ذلك ، فإن هذا يحرك الظن تحريكاً لا يقدر الإنسان على دفعه .

القسم الثاني : « الظن السيئ » ومنشؤه سوء اعتقاد الأخ بأخيه في أن يـــنزل فعلـــه على الوجه الرديء ، من غير علامة يقينية ترجح ذلك الأمر . وهـــذا هو الظن الذي حذرنا منه قال تعالى : ﴿ **يـــا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثـــيراً مـــن الظن إن بعض الظن إثم ....** ﴾ الآية[١]. وقال رسول الله ﷺ : ((**إيـــاكم والظـــن فإن الظن أكذب الحديث**))[٢] . وأقل درجات المعاملة في الأخوة في الله أن يعامل أخاه بمثل ما يجب أن يعامل هو به .

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٢ .

(٢) رواه البخاري ، فتح الباري ، جـــ٩ ص١٩٨ .

٥- ذكر المسلم محاسن إخوانه :

مـــن حقـــوق الموالاة في الله أن يذكر الأخ المسلم محاسن إخوانه في الله ، لأن المحاســـن تغطـــي المساوئ وتجلب المحبة . ولذلك روي عن أبي كـــريمة المقداد بن معد بن يكرب عن النبي ﷺ قال : ((**إذا أحب الرجل أخاه فليخـــبره أنه يحبه**))[١] . والحكمة من إخبار الأخ بمحبته إياه لتحصل بينهما المـــودة والصلة والتزاور والتناصح والتعاون ، فتزداد المحبة وتتقوى الصلة بيـــنهما وتـــتوثق عرى الأخوة . والمحبة بين المؤمنين مطلوبة في الشرع ، ولذلـــك أرشـــد الرسول ﷺ إلى أسبابها القولية والفعلية ففي الحديث عن أبي هريـــرة قـــال : قال رسول الله ﷺ : ((**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمـــنوا حـــتى تحـــابوا . أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشو السلام بينكم**))[٢] . هذا في أسباب المحبة « القولية » . أما المحبة « الفعلية » فقـــد ورد فـــي الحديـــث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((**لـــو دعيـــت إلـــى ذراع أو كراع لأجبت ، ولو أهدي إلى ذراع أو كراع لقبلـــت**))[٣] . وفـــي حديث آخر : ((**كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها**))[٤] .

---

(١) نزهة المتقين ، شرح رياض الصالحين ، جـــ١ ص٣٥٢ .

(٢) صحيح مسلم ، جـــ١ ص٧٤.

(٣) صحيح مسلم ، جـــ١ ص٧٤.

(٤) رواه البخاري ، فتح الباري ، جـــ٩ ص١٩٨ .

٦- الدفاع عن أخيه بذم الذامين وقدح القادحين :

ومن مقتضيات الموالاة في الله أن يرد تعنت المتعنتين وتشويه الحاقدين الذين يريدون أن يصفوا كل مسلم بأوصاف النقيصة والازدراء . وإن تسليط الجهال على القدح من أعظم المنكرات وأقبح الصفات ، فينشرون اليأس والتخاذل بين المسلمين . ولم يسلم من تلك المصيدة الخبيثة حتى أولئك الذين يتزعمون الدعوة إلى الله . فهم قد يربون أتباعهم على الحقد والضغينة نحو الآخرين ، وكأن الإسلام وقف عليهم دون غيرهم من الناس ، وكأنهم وحدهم المعصومون من الخطأ الذي يشترك فيه عامة الناس . إن المبدأ والمنهاج في تقييم المسلمين إذا انتشر وشاع على هذا الأساس ، فسوف تفقد الأمة الثقة بالمسلمين عامة والعاملين على الإسلام خاصة ، وعند ذلك تضيع في متاهات الضلال والانحراف .

وهذا لا يعني عدم محاسبة الإخوان عن أعمالهم وعيوبهم ومناصحتهم في تقصيرهم . ولكن المقصود هو عدم التجزع الخفي الذي يهدم ولا يبني ولا يقوم ، والذي قد يكون للكذب والمكر السيئ مجال واسع فيه[١] .

٧- العفو عن هفوة الأخ والكف عن عثرته :

وهي من حقوق الموالاة ، وهي لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية ، أو في دنياه بتقصير في حقك . فإن كان في الدين من ارتكاب معصية وبترك واجب أو اقتراف محرم ، فلا يخلو ذلك من أمرين :

---

(١) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ، محماس الجلعود ، جـ١ ص ٢٤٨ - ٢٥٥ .

أ- أن تكون تلك المعصية التي اقترفها ، أو الواجب الذي تركه زلة قد ندم عليها وتاب عنها فالعفو والصفح واجب في ذلك .

ب- أن يكـــون مصـــراً على المعصية متلبساً ، فالأولى التلطف في نصـــحه بما يقيم معوجه ، ويعيد الورع والصلاح إليه . فإن لم تستطع وبقى مصـــراً ، فقـــد اختلفـــت طرق الصحابة في حق مودته واستمرار موالاته ، أو مقاطعته ومعاداته ، ولهم قولان :

القول الأول :

قـــول أبـــي ذر رضـــي الله عنه حيث يرى أن المسلم إذا انقلب على إخوانه وعصي ربه ، وأصر على معصيته ، أنه يجب بغضه ومعاداته .

القول الثاني :

قـــول أبي الدرداء وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم حيث ذهبوا إلـــى خـــلاف القول الأول فقالوا : (إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى) .

وهـــذه الطريقة يرى البعض أنها أقوم وألطف وأفقه . وقد احتج أهل القـــول الأول بأن مرتكب المعاصي لا تجوز مؤاخاته ابتداءً ، فيجب مقاطعته انتهاءً لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعقد الأخوة في الله لا يستمر مع من يقارف المعاصي ويصر عليها .

وأجـــاب أهـــل القـــول الثاني على ذلك ، بأنه إذا قوطع من انحرف عـــن طـــريق الأخـــوة فـــي الله ، وانقطـــع عـــن صحبة إخوانه الأفاضل ،

فـــإن ذلـــك يزيده إصراراً واستمراراً على معصيته ، ويتيح فرصة للشيطان وحزبه أن يجروا العاصي من الساحل إلى محيط الكفر والضلال .

والأصل أن ينزل عقد الأخوة في الله منزلة عقد القرابة ، فإذا انعقدت القـــرابة تـــأكد الحق ووجب الوفاء به ، وكذلك الأخوة في الله ، وجب بقاؤها حـــتى لـــو حصـــل ما يناقضها من معصية لا توجب الكفر . لأن استمرار الملاطفـــة والـــرفق والاســـتمالة يفضي إلى الرجوع والتوبة إلى الله ، عند استمرار الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن .

أما ما يتعلق بتقصير الأخ في حق أخيه ، فالواجب العفو والاحتمال ، وأن يحمل أقواله وأفعاله على المحمل الحسن ، وأن يطلب له العذر في ذلك . وعلـــى الأخ المسلم أن يكون معتدلاً مع إخوانه في الحب ، فلا يتكلف ما لا يطـــيق . ويكـــون معـــتدلاً مـــع أعدائه في البغض فلا يبالغ في البغض عند الوقـــيعة . فقـــد يتحول الأعداء إلى أصدقاء يومًا من الأيام ، قال الله تعالى : ﴿ **عســـى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم** ﴾[1] .

٨- دوام المحبة والمودة بين الأخوة في الله :

المحبة والموالاة والمناصرة للمؤمنين عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه ، والعـــبادة لـــيس لها أجل دون الموت قال تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾[2] . أي اليقين الموت ، فمعنى ذلك أن المحبة في الله يجب أن تستمر

---

(١) سورة الممتحنة آية : ٧ .

(٢) سورة الحجرات آية : ٩٩ .

مع أهل الإيمان إلى الموت . وحتى لو مات بعض الأخوة في الله فإن المحبة تستمر مع أولادهم وقرابتهم حيث أن الحب في الله يراد به الآخرة . قال رسول الله ﷺ : ((**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم : رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**))[1] . والمودة الدائمة هي التي تكون بسبب الموالاة في الله والحب فيه ، أما المودة لغرض دنيوي فهي تزول بزوال الغرض الذي حدثت المودة من أجله .

٩- الدعاء للإخوان بالنصر والتمكين وبعد مماتهم بالمغفرة والرضوان :

من حقوق الموالاة في الله أن الإنسان إذا عجز عن تقديم العون المادي لإخوانه فلا أقل من أن يدعو لهم في حياتهم بالنصر والتمكين ، وبعد مماتهم بالمغفرة والرضوان[2] . فقد ورد في الحديث : ((**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك : ولك مثل ذلك**))[3] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، جـ٢ ص ٧١٥ .

(٢) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ، محماس الجلعود ، جـ١ ص٢٤٧ – ٢٦٢ .

(٣) صحيح مسلم ، باب الذكر ، جـ٤ ص٢٠٩٤ .

ثالثاً : الهجرة :

إن الهجرة مرتبطة بالولاء والبراء ، ولما كان الإسلام هو دين العزة وديـــن القوة ، فإنه أبى على معتنقيه أن يستذلوا للكفار . وبذلك جاء المنع من الإقامـــة بيـــن ظهرانـــي غـــير المسلمين ، لأن إقامته بينهم تشعره بالوحدة والضعف وتربي فيه روح الاستكانة ، وقد تدعوه إلى المحاسنة ثم المتابعة . والإســـلام يـــريد للمسلم أن يمتلئ قوة وعزة وأن يكون متبوعًا لا تابعًا وأن يكون ذا سلطان ليس فوقه إلا سلطان الله . لذلك حرم الإسلام على المسلم أن يقـــيم فـــي بلد لا سلطان للإسلام فيه إلا إذا استطاع أن يظهر إسلامه ويعمل طبقًا لعقيدته دون أن يخشى الفتنة على نفسه .

لقـــد عرف أهل العلم رحمهم الله : أن « دار الكفر » هي التي يحكمها الكفـــار ، وتجري فيها أحكام الكفر ، ويكون النفوذ فيها للكفار ، ولو كان بها كثير من المسلمين . و « دار الإسلام » هي التي يحكمها المسلمون ، وتجري فيها الأحكام الإسلامية ، ويكون النفوذ فيها للمسلمين ، ولو كان جمهور أهلها كفارًا[1] .

وللهجـــرة مفهـــوم شـــامل في التصور الإسلامي ليس مقتصرًا على الانـــتقال مـــن بلد الكفر إلى بلد الإسلام فحسب ، ولكنه كما يقول ابن القيم : الهجرة هجرتان هجرة بالجسم من بلد إلى بلد ، والهجرة الثانية : الهجرة إلى الله ورسوله فهذه هي الهجرة الحقيقية ، وهجرة الجسد تابعة لها .

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٧٠ – ٢٨٢ .

فيهاجر المسلم بقلبه من محبة غير الله إلى محبته ، ومن عبودية غير الله إلى عبوديته ، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه . ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه سبحانه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له . وهذا يعني « الفرار » إلى الله كما قال تعالى : ﴿ **ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين** ﴾[1] .

والهجرة إلى الله تتضمن : هجران ما يكره ، وإتيان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض . وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب دواعي المحبة في قلب العبد ، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل ، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علمًا ولا يتحرك لها إرادة[2] .

وتتلخص أنواع الهجرة سواء ما بقي منها مفروضًا ، أو ما نسخ وما هو غير ذلك في النقاط التالية :

١- الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام :

وكانت فرضًا في أيام النبي ﷺ وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة .

---

(١) سورة الذاريات آية : ٥٠ .

(٢) الرسالة التبوكية لابن القيم ، ص١٤ – ١٨ .

٢- الخروج من أرض البدعة :

قال الإمام مالك : (لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف) .

٣- الخروج عن أرض غلب عليها الحرام :

فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم[١] . وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : أحوال البلاد كأحوال العباد فيكون الرجل تارة مسلمًا ، وتارة كافرًا ، وتارة مؤمنًا ، وتارة منافقًا ، وتارة فاجرًا شقيًا . وهكذا المساكن بحسب سكانها فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة ، وهذا أمر باق إلى يوم القيامة[٢] .

٤- الفرار من الأذية في البدن :

وذلك فضل من الله عز وجل أرخص فيه فإذا خشي المرء على نفسه في موضع فقد أذن الله سبحانه له في الخروج عنه والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور . وموسى عليه السلام قال الله فيه : ﴿ **فخرج منها خائفًا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين** ﴾[٣] .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ، جـ١ ص٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ١٨ ص٢٨٤ .

(٣) سورة القصص آية : ٢١ .

٥- خوف المرض في البلاد الوخمة والخروج منها :

وقد أذن النبي ﷺ للعرنيين في ذلك حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المرج ، فيكونوا فيه حتى يصحوا . وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون قال ﷺ : ((**إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها**))[١] .

وبعد : فإن الهجرة وغيرها من الأعمال والأقوال مبينة على النية[٢] . كما قال ﷺ : ((**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**))[٣] .

الهجرة معناها الانتقال وهي نوعان : انتقال « حسي » ومعناه الانتقال من مجتمعات الكفر والشرك إلى مجتمعات الإيمان . أما الانتقال « النفسي » فهو يعني الانتقال من ثقافة مجتمعات غير المؤمنين بنظمها وعقائدها وتقاليدها وتطبيقاتها المختلفة إلى ثقافة الإيمان بمظاهرها وتطبيقاتها ومؤسساتها . وإلى هذا النوع من الهجرة النفسية كانت التوجيهات الإلهية عند قوله تعالى :

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب السلام ، جـ٤ ص١٧٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٨٢ – ٢٨٨ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي جـ١ ص٩ .

﴿ **والرجز فاهجر** ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ **واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلا**﴾[2].وقوله تعالى :﴿ **فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي**﴾[3].

وإلـــى النوعيـــن مجتمعين من الهجرة كانت الإجابة النبوية عن معنى الهجرة وأشكالها . فلقد سأله أعرابي بقوله : يا رسول الله أخبرنا عن الهجرة إليك أينما كنت أو القوم خاصة أم إلى أرض معلومة ، أم إذا مت انقطعت ؟ فســكت عنه يسيرًا ثم قال : أين السائل ؟ قال : ها هو ذا يا رسول الله قال : ((**الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، ثم أنت مهاجر ، وإن مت بالحضر**)) [4] .

إن الهجـــرة عنصـــر أساسي من عناصر الأمة المسلمة ولها أهميتها وتتمثل هذه الأهمية في ما يلي :

الأهمـــية الأولى : تخليص المؤمنين من العوز وعدم الأمن ثم إطلاق قدراتهـــم الدفاعية والإنتاجية في أيام السلم والحرب سواء . وإلى هذه النتائج الهامـــة كانت الإشارة عند قوله تعالى : ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في**

---

(١) سورة المدثر آية : ٥ .

(٢) سورة المزمل آية : ١٠ .

(٣) سورة العنكبوت آية : ٢٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد ، جـ٢ ص٢٢٤ .

الأرض مـــراغمًا كثيرًا وسعة .... ﴾ الآية[1] . والمراغم هو المنعة والقوة ، والسعة هي الغني وسعة العيش .

ولقـــد اســـتمرت الهجرة عاملاً أساسيًا في قوة حركات الإصلاح التي نجحـــت في إخراج العالم الإسلامي من ضعفه في فترات متقطعة وفي أماكن مثل الحركة التي أخرجت جيل صلاح الدين الأيوبي ، وحركة المرابطين .

الأهمـــية الثانية : هي أن الهجرة بمعناها النفسي والحسي تنسجم مع حقـــيقة من الحقائق الكبرى التي يطرحها الإسلام عن الوجود . وهذه الحقيقة هـــي اســـتمرارية الخلق أي أن هذا الكون مازال يُخلق قال تعالى : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار** ﴾[2] . واستمرارية الخلق ترفد الحياة دائمًا بالجديد من الأفكار والأشخاص والأشياء . والكائنات الجديدة تعزز علاقات جديدة تترجم إلى نظم ومؤسسات جديدة قال تعالى : ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾[3] .

فالهجرة بمعناها الشامل عملية تكليف نفسي وحسي مع حوادث الخلق المستمرة وهي حركة تجديد مستمرة ترتكز على انتقاء العناصر الصالحة من كـــل جيل من البشرية كلها ثم إعدادها لما يناسب الطور الجديد وحمل رسالة الإسلام ، واستمرار الترقي البشري . ومن الملاحظ أن لا يبرز مفهوم الهجرة

---

(١) سورة النساء آية : ١٠٠ .

(٢) سورة القصص آية : ٦٨ .

(٣) سورة الرحمن آية : ٢٩ .

فـــي الوقـــت الـــذي يشـــاهد أثر قوانين الهجرة التي تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية ، في تجميع العناصر ذات الكفاءات العالمية من أقطار الأرض كلها ثـــم إطـــلاق قدراتها وإرادتها لما فيها قوة الولايات المتحدة واحتلالها مكان الصدارة في العالم كله .

ومن الموضوعية أنه في الوقت الذي يغيب العقل السليم المعاصر عن شـــهود العلاقة بين استمرارية الخلق والهجرة وتجدد عافية الأمم ، فإن الفكر الغربي المعاصر قد أحس بهذه الحقيقة ونظم حياته طبقًا لها ومن الإنصاف أن نقـــول إن العقل الإسلامي في الماضي لم يكن غائبًا دائمًا عن أهمية الهجرة واستمراريتها[١] .

يقول ابن تيمية رحمه الله : (إن معنى قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا مـــن بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى من بعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم** ﴾[٢] . هو إشارة إلى من اتبع هذا المنهاج إلى يوم القيامة)[٣] . ولذلك لابد للتربية الإسلامية أن تعمل على تحقيق أمرين :

---

(١) الأمة المسلمة د/ماجد الكيلاني ، ص٥٥- ٦٠ .

(٢) سورة الأنفال آية : ٧٥ .

(٣) فتاوى ابن تيمية ، جـــ١١ ص٣٩ .

الأول : تدريب إنسان التربية الإسلامية على مراجعة الموروثات الثقافية والاجتماعية المنحدرة عن كل جيل . وتنمية القدرة على التفكير واكتشاف الجوانب التي عدا عليها الخطأ في الفهم والتطبيق ، أو تلك التي مضى زمنها وبطل مفعولها ، ثم القدرة على التخلص منها ومن آثارها . فالهجرة مظهر من مظاهر التوبة من الثقافة الخاطئة أو التي بطل مفعولها وما يتفرع عنها من نظم وتطبيقات . والرسول ﷺ يربط بصراحة بين الهجرة والتوبة فيقول : ((**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**))[1] . فالهجرة توبة ، والتوبة هجرة .

الثاني : تدريب المتعلمين على فقه المثل الأعلى اللازم لزمنهم ثم تنشئتهم على استيعاب تفاصيل المثل الأعلى الجديد ، وبذلك تعدهم لزمن غير زمن آبائهم . ولتتكون لديهم القدرات والمؤهلات اللازمة للغد الذي سيعبرونه ولن يصابوا بالمفاجآت من تطورات المستقبل كما يصاب الذين يشير إليهم قوله تعالى : ﴿ **بل هم في لبس من خلق جديد** ﴾[2][3] .

---

(١) سنن الدارمي ، جـ٢ ص٢٤٠ .

(٢) سورة ق آية : ١٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص٦١ – ٦٢ .

رابعًا : الجهاد في سبيل الله :

وهـو مـن أهـم مقتضـيات الولاء والبراء لأنه الفاصل بين الحق والباطل . والجهاد « لغة » المشقة ، و « شرعًا » بذل الجهد في قتال الكفار . ويطلـق علـى مجاهدة « النفس » بتعلم أمور الدين ثم العمل بها ثم تعليمها ، ومجـاهدة « الكفار » فتقع باليد والمال واللسان والقلب ، ومجاهدة « الفساق » بالـيد ثم اللسان ثم القلب . إن العداوة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أما متأصل ، وذلك لأن المنهجين مختلفان ، ويستحيل الالتقاء بينهما . لأن حزب الله يـريد إقامـة كلمة الحق في الأرض وهيمنة الشريعة الإسلامية على كل وضـع . وحـزب الشـيطان يغيظه هذا المنهج فيسعى جاهدًا في سحقه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

إن هذا الدين الحنيف يأمر بدعوة الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة والألوهـية . فـإذا لـبوا هذا النداء فهذا هو المراد من بعثة الرسل ، وإنزال الكتـب ، وإن انتكصـوا على أعقابهم فلا بد من جهادهم . قال الله تعالى : **﴿ وقـاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾**[1] .

فالديـن الإسـلامي يـبدأ بدعوة الناس إلى الخير وجدالهم بالتي هي أحسـن ، فإذا قامت عليهم الحجة ثم أعرضوا وجب قتالهم . قال الله تعالى : **﴿ لا إكـراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن**

---

(١) سورة الأنفال آية : ٣٩ .

بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[1] . أي إذا سيطر سلطان المسلمين على منطقة ما فإن أهلها لا يجبرون على اعتناق عقيدة الإسلام ، ولكن أن يخضعوا لسلطانه . فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين وإن طلبوا البقاء على ديانتهم فعليهم دفع الجزية للمسلمين وإلا فالسيف بينهم وبين المسلمين[2] .

إن أهداف الجهاد في الإسلام أهداف سامية عالية فهو : « يقاتل الكفار لتقرير حرية العقيدة ، ويجاهد ثانية لتقرير حرية الدعوة ، ويجاهد ثالثًا لإقامة نظام الإسلام في الأرض » . وتحقيق حرية الإنسان حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال ، ويلغى من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها .

وعبودية الجهاد من أشرف أنواع العبودية لله سبحانه وتعالى لأنه « لو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها ، من الموالاة فيه سبحانه ، والمعاداة فيه ، والحب فيه ، والبغض فيه ، وبذل النفس له في محاربة عدوه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى ، وإيثار محاب الله على محاب النفس[3] .

وقد وردت نصوص كثيرة في فضيلة الجهاد منها : قال تعالى في بيان منزلة الشهيد وأنه حي عند ربه : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل**

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

(٢) تفسير القرآن ، لابن الكثير ، جـ١ ص٤٥٩ .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ، جـ٢ ص١٩٦ .

الله أمواتًـــا بـــل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشـــرون بالذيـــن لـــم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحـــزنون ﴾[1] . والجهاد هو التجارة الرابحة مع الله كما قال تعالى : ﴿ **يأيها الذيـــن آمـــنوا هـــل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورســـوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبه في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾**[2] .

أمـــا الســـنة النـــبوية الشريفة فقد ورد فيها أحاديث كثيرة في فضيلة الجهاد . منها قوله ﷺ : **((إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في ســـبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض))**[3] . والجهاد ذروة ســـنام الإسلام كما جاء ذلك في الحديث : **((رأس الأمر الإسلام ، وعاموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد))**[4] .

إن الجهـــاد فـــي سبيل الله هو طريق الدعوة إلى الله ، والجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات فترة الدعوة الأولى . إنما هو ضرورة مصاحبة لركـــب هـــذه الدعوة . وإنه لا حياة شريفة كريمة في ظل هذا الدين الحنيف

---

(١) سورة آل عمران آيتا : ١٦٩ – ١٧٠ .

(٢) سورة الصف الآيات : ١٠ – ١٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، جـــ١ ص١١ .

(٤) سنن الترمذي ، أبواب الأيمان ، جـــ٢٧٩٢ .

إلا بـــالعودة إلـــى ينابيعه الصافية «كتاب الله وسنة رسوله ﷺ » وفهم العقيدة الصحيحة وسيرة سلف الأمة[1] .

إن الجهـــاد والرســـالة من عناصر الأمة المسلمة ، والجمع بينهما في عنصـــر واحـــد ســـببه اقترانها في « القرآن والسنة » اقتران الوسيلة بالهدف فالرســـالة بـــدون جهاد مفضيه إلى مقت الله وغضبه ، والجهاد بدون رسالة نصرة للعصبيات وخدمة للشهوات موجب لعقوبة الله وعذابه ويمكن تلخيص ذلك في التالي :

١- الجهاد :

معـــناه لغويًا : بذل الجهد . أما اصطلاحًا : فهو يعني استفراغ الطاقة بتحقيق الأهداف التي توجه الرسالة الإسلامية في ميادين الحياة : « الفكرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والعمليةّ ، والعسكرية » وغيرها في أوقات السلم والحـــرب سواء . وهذا ما يوجه إليه القرآن الكريم في مواضيع كثيرة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فـــي الديـــن من حرج ....** ﴾ الآية[2] . أي إن الجهاد الذي اختاركم الله من أجلـــه لا ضـــيق فـــيه ولا عنت ، وإنما هو يتناسب مع الوسع والطاقة التي أودعها في خلقكم وتكوينكم[3] . والرسول ﷺ يرسم الإطار الواسع للجهاد من خـــلال أمريـــن : « **الأول** » طرح معادلات الجهاد العملية في ميدان العمل الإيجابي . و« **الثاني** » التحذير مما يخالفه .

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام ، محمد القحطاني ، ص٢٨٩ – ٢٩٨ .

(٢) سورة الحج آية : ٧٨ .

(٣) تفسير الطبري ، جـــ١٧ ص٢٠٥ .

فالجهـــاد تكنولوجيا الإسلام التي توفر العمل والإنتاج في أوقات السلم والمـــنعة فـــي أوقات العدوان ، والجهاد غايته (هي تأهيل كتلة بشرية لحمل رسالة الإسلام إلى العالم) .

إن المعنى الحضاري للجهاد يعكس مفهوم الأمن الإسلامي الذي يركز على إيصال الرسالة وتبليغها إلى الآخرين بغية توفير الأمن الفكري والمادي والنفسي لبقاء النوع البشري ورقيه . ومصدر الخطر على بقاء النوع البشري ورقـــيه حســـب التصـــور الإسلامي يكمن في « القيم » التي تكفر أي تحجب وتخفي قوانين الخلق في النشأة والمصير ، وتقتصر على نوازع التمتع بالحياة وشـــهواتها . حـــتى إذا ظهـــر أهل الكفر في الأرض أشاعوا الفتن والمظالم السياســـية ، والمفاسد الاجتماعية وردوا شبكة العلاقات الاجتماعية إلى عهود الغـــاب والهمجـــية والتخلف . ولذلك كان طلب بذل النفس لمحاربة قيم الكفر ومؤسســـاته ، وبـــذل المـــال لنشـــر قيم الرسالة الإسلامية وإقامة مؤسساتها والإنفـــاق على العاملين والدارسين فيها حتى يتحقق التفوق للقيم الإسلامية ، فيشيع السلام ويكون الدين كله لله . وهذا المفهوم الإسلامي للأمن والسلام[1] .

مظاهر الجهاد :

لا يكـــون الجهاد أصيلاً شاملاً ما لم تتابع التربية وظيفتها في تأصيل معناه ، وتتباين مظاهره وتفصيلها حسب متطلبات الزمان والمكان والذي يقرر عمل

---

(١) الأمة المسلمة ، د/ماجد الكيلاني ، ص٦٣ – ٦٤ .

التربـــية فـــي هذا المجال عدة عوامل منها : « درجة تطور البشرية ، ونوع الـــتحديات القائمة » . وتنقسم مظاهر الجهاد إلى ثلاثة مظاهر رئيسية يندرج تحت كل منها تطبيقات عملية لا حصر لها ولا نهاية . وإنما هي تتجدد بتجدد الخلـــق الجديد من تجديد في القيم والوسائل والعلاقات والمؤسسات ، أما عن هذه المظاهر الرئيسية فهي :

١- الجهاد التربوي :

يســـتهدف تزكية الإنسان المسلم من منزلة الخضوع للغرائز والدوافع التـــي تبقـــية حبـــيس الشهوات والانفعالات الفردية . والإرتقاء به إلى منزلة تحقـــيق الذات التي يحقق الإنسان عندها إنسانيته فيسترشد بتفكيره وعقله عن الخـــالق والكون والإنسان والحياة . ويشير القرآن الكريم إلى المنزلة الأولى الدنـــيا باســـم : ﴿ **أسفل السافلين** ﴾[١] . بينما يشير إلى المنزلة الثانية العليا باســـم : ﴿ **أحسن تقويم** ﴾[٢] . والجهاد بالشكل المذكور عمل يجب أن يعتمد علـــى التخطـــيط العلمي والإعداد الدقيق . ولذلك رفع رسول الله ﷺ الجهاد الـــتربوي والعلمـــي إلى منزلة الجهاد في ميدان القتال وساوى فيه بين مداد العلماء ودماء الشهداء[٣] .

---

(١) سورة التين آيتا : ٤ – ٥ .

(٢) تفسير الطبري ، جـــ١٧ ص٢٠٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص٦٥ ، فيض القدير شرح الجامع الصغير المناوي ، جـــ٦ ص٤٦٦ .

٢- الجهاد التنظيمي :

وغايــة هذا الجهاد تنظيم « وسع » الأمة حسب التعبير القرآني ، أي طاقاتها وقدراتهــا المعــنوية والماديــة والبشــرية ، والتنسيق بينها بما يكفل حشدها وتكاملهــا دون هدر أن نقص لتحقيق أهداف الرسالة . ويوجه القرآن الكريم إلــى أن « أمة المؤمنين » حين تفقه هذا الجهاد التنظيمي وتتقنه وتصبر على تكالــيفه النفســية والمادية فإن ما تحتاجه من الأفراد المؤمنين في هذا الجهاد ســتكون نسبة عددهم « ١ – ١٠ » مقارنة بما تحشده « أمة الكفر » . والسبب في ذلك هو انسجام « فقه » المؤمنين مع نواميس الخلق ، « وجهل » الكافرين بهــذه النوامــيس واصطدامهم بها مما يجعلها تعمل لصالح معسكر المؤمنين وهزيمة معسكر الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبون ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهــون** ﴾[١][٢] . أي لا يفقهــون نظــم الحشد والإعداد النفسي والمادي ، وأســاليب القتال ، وكذا الاستفادة من استراتيجية الموقع والتوجيه المعنوي ، وأهمية الهدف الذي يتم من أجله الحشد والجهاد .

والجهاد التنظيمي بهذا المفهوم لا يكون عملاً فرديًا ، وإنما هو مظهر إستراتيجي يقتضي من الأمة أن تقي له مؤسساته التربوية والعلمية والتطبيقية، ولا بــد مــن تجــدد علومــه والارتقــاء بمؤهــلات العامليــن فــيه[٣] .

---

(١) سورة الأنفال آية : ٦٥ .

(٢) تعليق : وهذه الآية منسوخة بالآية التي بعدها قال الله تعالى : ﴿ **ألا إن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا فإن يكن منكم ألف يغلبون ألفين بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ سورة الأنفال آية : ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ص٦٥ – ٦٦ .

٣- الجهاد العسكري :

الجهـــاد العسكري في الإسلام شرع ليكون : « الدين لله أو للدفاع عن مصالح البلاد » .

ويـــتجلى اقـــتران هذا النوع من الجهاد بالرسالة الإسلامية من خلال الضوابط العقيدية والأخلاقية التي تحكمه وتوجهه بحيث لا يخرج لحظة واحدة عـــن غايات الرسالة وأهدافها . وحين يتحقق هدف من أهداف الرسالة دون قتال يتوقف الجهاد القتالي . والأمثلة على ذلك واضحة في التطبيقات النبوية . فعـــن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال : ((بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصـــبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله فكف الأنصاري ، فطعنته برمحي حتى قتلته)) . فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال : ((**يا أسامة أقتلته بعد أن قال إلا إله إلا الله ، قلـــت : كـــان متعوذًا أي يتظاهر بقولها ليعوذ من القتل . فما زال النبي ﷺ يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم**))[1] .

ولقـــد كانت بقية مواقف النبي ﷺ مع الخصوم نماذج للعفو والامتثال للتوجـــيهات الإلهية التي تقرن الجهاد بالرسالة . فقد نال ﷺ القسط الأكبر من الأذى والضرر ، ومع ذلك كان يضبط أحزانه ويتناسى آلامه وثأره ممن أبلغ الجرح فيه .

---

(١) البخاري ، تجريد الصحيح غزوة مؤته ، جـــ٢ ص٨٣ .

فالمظهر القتالي للجهاد يصبح مبررًا ومعمولاً به حين تشيع قيم الكفر وتنتشر العدوان . ولكن بروز اتجاهات الحوار بين المجتمعات الإنسانية « ينسخ » مظهر الجهاد القتالي . فإن النسخ أو رفعه يطبقان على مظاهر الجهاد حسب الظروف والمناسبات . وتحتل المظاهر السلمية للجهاد منزلة الأولوية في كل سياق قرآني حسب تدرج معين يشمل الجهاد بالمال ، فإذا لم يكف دعمته مقدرات النفس العقلية والتنظيمية ومقدرات العمل والإنتاج ، وأخيرًا المقدرات القتالية مع بقاء الباب مفتوحًا لأية لحظة يوقف فيها سفك الدماء ويجنح للسلم .

وتتضح أهمية الجهاد القتالي في حياة الإنسانية كلها حين نرى أن الأفكار والمعتقدات التي تسود العالم عند غير المسلمين لم تتخل عن حب العدوان والسيطرة لاستعباد الآخرين ، ونهب مقدراتهم وإشاعة التخلف في حياتهم . فالغرب يعتبر القتال أداة حيوية من أدوات الصراع تطبيقًا لمسلمة الصراع والبقاء للأقوى . وأمام هذه العقلية غير المسلمة التي تعتمد الصراع أساسًا في علاقتها مع بقية المجتمعات البشرية يبرز الجهاد الإسلامي رادعًا للفتنة والفساد . لذلك لا يكون الجهاد إسلاميًا إلا إذا اقترن بالرسالة الإسلامية . فالرسول ﷺ يوضح : ((**أن الرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل غضبًا وحمية عصبية ، والرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل**

يقاتل رياء ، فمن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[1] .
وكلمة في سبيل الله هي الرسالة الإسلامية[2] .

الرسالة الإسلامية :

ومعنى الرسالة يتكرر في مئات المواضيع من سور القرآن الكريم . أما في الآية التي حددت الإطار العام لعناصر الأمة المسلمة ، فقد وردت الإشارة إلى الرسالة عند قوله تعالى : ﴿ **في سبيل الله** ﴾ . وتقسم محتويات الرسالة إلى : « الأمر بالمعروف » ومحوره الدعوة إلى التوافق مع سنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم ، « النهي عن المنكر » ومحوره التحذير من الاصطدام بسنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم ، « الإيمان بالله » ومحورها الإيمان بقدرته وهيمنته وأنه الملك المتصرف بالوجود كله . وهذه العناصر الرئيسية التي تتكون منها الرسالة متضمنة في قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[3] .

والمعروف الذي تشير إليه الآية اسم جامع لكل ما ينفع الجنس البشري ويرتقي بسلوكهم والعلاقات المتبادلة بينهم . ولذلك حين سأل رجل رسول الله ﷺ عن المعروف أجابه : ((**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تعطي صلة الحبل ، ولو أن تعطي شسع النعل ، ولو أن تفرغ من دلوك في**

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، جـ١٣ ص٤٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص٦٦ – ٧٠ .
(٣) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

إنـــاء المستسقى ، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم ، ولو أن تلقـــي أخاك إليه منطلق ، وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك وأنت تعلم نحوه فلا تسبه ، فيكون أجره لك ووزره عليه ، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به ، وما أساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه))[1] .

ومن الواضح أن التعريف النبوي « للمعروف » في الحديث المذكور ، لم يتناول المعروف كله وإنما راعى مستوى السائل وبيئته ووجه انتباهه إلى ما يشيع في تلك البيئة . ولكن البحث الشامل في ما يوجه إليه القرآن والحديث النبوي الشريف يظهر أن « المعروف » و « المنكر » يشملان شبكة العلاقات الاجتماعـــية بين الأفراد والشعوب والأمم . وأن كل ما ينفع الإنسان ويورث الانســـجام مع سنن الله وقوانينه في الخلق يندرج في قائمة « المعروف »وما يضر البشر ويصطدم مع هذه السنن والقوانين يندرج في قائمة « المنكر » .

للرسالة أهمية رئيسية في نشأة الأمم وتكوينها ومصيرها ، وتبدو هذه الأهمية في الأمور التالية :

الأمـــر الأول : تـــتكرر مكانة الأمة بين الأمم على المستوى العالمي بمقدار ما تقدمه من عطاء حضاري للآخرين . وهذا العطاء هو الرسالة التي تحملهـــا الأمـــة بين الأمم الأخرى ، وتضع في خدمة الرسالة كافة امكاناتها ومصادرها البشرية والمادية والمعنوية .

الأمـــر الثانـــي : إن هـــذا العطـــاء الحضاري هو الأمن لبقاء الأمم واستمرارها ، ذلك أن الأمة التي تتوقف عن العطاء تبدأ بالأخذ . والأخذ الذي

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، جـــ١٩ ص٢٠١ .

لا يـرافقه عطـاء متبادل سبب من أسباب الذوبان وفناء الأمم . ولكنه فناء بطـيء يـتم على مراحل قد تستغرق كل مرحلة منها جيلين أو ثلاثة . وهي كالتالي :

المرحلة الأولى : تأخذ الأمة الأشياء المادية كالمنتجات الصناعية .

المـرحلة الثانية : تأخذ الأمة العادات المادية كأشكال اللباس والأثاث وأشكال الطعام .

المـرحلة الثالثة : تأخذ الأمة المظاهر الثقافية كاللغات ونظم الإدارة والنظم الدبلوماسية والعلاقات الاجتماعية والفنون وأشكال الترويج .

المرحلة الرابعة : تأخذ الأمة القيم والمقاييس الاجتماعية والأخلاقية .

المـرحلة الخامسـة : تأخذ العقائد . وعند هذه المرحلة تنهار جميع الحواجز ويبدأ الذوبان الكامل .

والأمم التي تعي قوانين هذا الذوبان تحاول أن تتجنبه من خلال تجديد دورها في العطاء الحضاري ، واستئناف العطاء ليتوفر لها البقاء والتميز في الداخل والاحترام في الخارج .

الأمـر الثالـث : الذي يمثل أهمية هذه الرسالة في حياة الأمة هو أن الرسالة حالة نفسية اجتماعية . والأمم التي تحمل رسالة تحفظ وحدتها وتجنب مجتمعها من الانقسام والتفتت والحزبية والطائفية والتصارع من أجل المصالح والعصـبيات المحدودة . وأن « الرسالة » توحد أفراد الأمة وجماعاتها حول هدف أسمى يستهلك طاقاتهم ونشاطاتهم فتختفي الانقسامات والفتن . أما حين

تغيب الرسالة فإن الناس تتقاسمهم أهداف فردية ومصالح عصبية ، وبذلك تبرز الحزبية والعصبيات ، وتشيع الفتن ، وتتفرق الأمة إلى فئات متنابذة متصارعة وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم** ﴾[1] .

ولقد علق ابن تيميه « رحمه الله » على هذه الآية فقال : (قد يكون العذاب من عنده ، وقد يكون بأيدي العباد . فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم الفتنة كما هو في الواقع . فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم ، وجعل بأسهم على عدوهم وعدو الله . وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض)[2] .

وفي موضع آخر يحذر الله تعالى من نتائج التخلي عن حمل الرسالة وتكاليفها في الإنفاق والجهاد قال تعالى : ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾[3] . وتلقي هذه الآية ضوءًا ساطعًا على الأثر المنيع للرسالة والجهاد في الحفاظ على وحدة الأمة ونجاحها .

وتتحمل التربية الإسلامية مسؤولية كبيرة إزاء هدف الرسالة ووسائل حملها وغرس الولاء لها ، وهذه المسؤولية تتمثل في : «تبلور مضمون رسالة العصر التي يجب على الأمة حملها ، وعن كيفية إخراج الأمة المسلمة

---

(١) سورة التوبة آية : ٣٩ .

(٢) فتاوى ابن تيمية ، التفسير ، جـ١٥ ص٤٤ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٩٥ .

وصـــيانتها مـــن الضـــعف والـــتفكك وتطويـــرها حسب متطلبات العصور والأجـــيال » . ويتـــبلور مضـــمون الرسالة من خلال النظر في : « حاجات العصر الحاضر ، مصادر قيم الرسالة والسنة ، تاريخ فقه الأسلاف المسلمين وخبرات غير المسلمين وما أنجزوه من مظاهر حكمة بناء الأمم نقدًا وتحليلاً وإيجابًـــا وســـلبًا ، تاريخ المجتمعات البشرية وكيف عملت قوانين الخلق في تطورها إيجابًا وسلبًا » .

ومـــن الطبيعي أن يلحق بمحتوى الرسالة العناية « باللغة » التي تحمل هـــذا المحـــتوى وتـــنقل معانية للآخرين . وتنفرد الرسالة الإسلامية في هذا المجـــال فـــي أن شيوع اللغة العربية والارتقاء بدراستها بين المؤمنين بهذه الرســـالة أمـــر ترتقي ضرورته إلى مستوى الرسالة نفسها . لأن إتقان اللغة العربية هو وحده الذي يمكن المؤمنين في أي مكان وزمان من : « قراءة اللغة الإلهية في القرآن الكريم ، وقراءة النصوص الأصلية للحديث النبوي الشريف واستخراج حاجات العصر بما يتحقق المعاصرة والواقعية والأصالة » . ويقدم لـــنا التاريخ الإسلامي الأدلة الوافرة الكافية على أن انتشار اللغة العربية في الأقطار المفتوحة قد أسهم إلى حد كبير في فقه الرسالة نفسها ، وتطوير ثقافة إســـلامية مشتركة دعمت العناصر الرئيسية للأمة وقوتها وشدت بعضها إلى بعـــض . وحيـــن انحســـرت اللغة العربية من أقطار الإسلام الواقعة خارج المـــنطقة العربية . انحسرت الثقافة الإسلامية ، وفتح الطريق لعودة الثقافات المحلية القديمة غير الإسلامية بقيمها وتقاليدها وتطبيقاتها المختلفة[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٧٠ – ٧٦ .

خامسًا : الإيواء :

عنصر من العناصر التي تتكون منها الأمة المسلمة ، وأما عن معاني الإيواء في القرآن الكريم فهي كما يلي :

١- **الإيــواء :** بمعنى « الموطن ومكان الإقامة الدائمة » . مثل قوله تعالى : ﴿ **فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون** ﴾[١] .

٢- **الإيواء :** بمعنى « حسن الاستقبال والتكريم » . مثل قوله تعالى : ﴿ **ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه** ﴾[٢] .

٣- **الإيــواء :** بمعنى « الرعاية والعناية » . مثل قوله تعالى : ﴿ **ألم يجدك يتيمًا فآوى** ﴾[٣] .

٤- **الإيــواء :** بمعنى « الاستقرار النفسي والاجتماعي » . مثل قوله تعالى : ﴿ **ترجي من تشاء منهن وتؤي إليك من تشاء** ﴾[٤] .

٥- **الإيواء :** بمعنى « طلب الأمن والنجاة ».مثل قوله تعالى:﴿ **إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمةً وهيئ لنا من أمرنا رشدًا** ﴾[٥] .

---

(١) سورة السجدة آية : ١٩ .

(٢) سورة يوسف آية : ٦٩ .

(٣) سورة الضحى آية : ٦ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٥١ .

(٥) سورة الكهف آية : ١٠ .

٦- **الإيـــواء :** بمعنى « السند والدعم والملجأ والحماية » . مثل قوله تعـــالى : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره** ﴾[١] .

٧- **الإيـــواء :** بمعـــنى « الـــراحة والاسترخاء » . مثل قوله تعالى : ﴿ **قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت** ﴾[٢] .

وأمـــا عن التطبيقات العملية « للإيواء » في مجتمع رسول الله ﷺ في المدينة المنورة فهي تتألف من أمرين اثنين :

الأول : مـــا قدمه الأنصار للمهاجرين من استقبال كريم ، وإقامة أمنة مريحة ، ومؤاخاة عملية قامت على المشاركة الكاملة في الحياة والمصير .

الثانـــي : مـــا قام به الرسول ﷺ من تنظيم العلاقات الاجتماعية بين مخـــتلف الجماعـــات التي سكنت المدينة في زمنه مستهدفًا تجسيد الإيواء في واقع عملي ينعم الجميع فيه بمقومات العيش الكريم .

وإن مظاهر الإيواء حسب متطلبات الزمان والمكان في ضوء الخطوط العريضـــة التـــي يوجه إليها القرآن الكريم . وأهم هذه الخطوط « تقدير قيمة الأرض واســـتعمارها التي وجه الله إليها » . ولما كان الإيواء بالمفهوم الذي يطـــرحه القرآن الكريم لا يمكن فرضه على الإنسانية ابتداء وفي آن واحد .

---

(١) سورة الأنفال آية : ٢٦ .

(٢) سورة الكهف آية : ٦٣ .

فإن الحكمة الإلهية ركزت على وجوب إخراج جماعة من البشر تدرب على تطبـــيق هذا الإيواء ثم تقدمه نموذجًا محسوسًا للإنسانية كلها ، وهذه الجماعة المشـــار إليها هي الأمة المسلمة . ويتكرر ذكر الأرض في القرآن الكريم في « ٤٦٦ » موضعًا ، ويمكن تصنيف التوجيهات القرآنية المتعلقة بالأرض إلى :

التوجـــيه الأول : « حســـن الانتفاع بالأرض كمكان للإيواء والسكن والاستقرار » :

الأســـاس فـــي الإيواء أن يتوفر لكل إنسان حاجته في الاستقرار بغية الـــتفرغ لتحقـــيق الذات المتمثلة في معرفة الخالق واستشراق قدرته وطاعته ومحبته ، ثم الحكمة من النشأة والحياة والمصير . ولتحقيق أسباب الاستقرار النفسي أرسل الله تعالى رسله بالتوجيهات إلى ترسيخ مقومات هذا الاستقرار وتتكون هذه التوجيهات من قسمين :

« **القســـم الأول** » : قيم رئيسية يتفرع عنها قيم فرعيه غايتها الصلاح والإصلاح المفضي إلى الاستقرار وتجسيد الإيواء في الأرض مثل : « إشاعة العـــدل وجعله محور العلاقات البشرية ، التواضع في الأرض واتخاذه أساسًا للأخلاق ، التوسط في إنتاج موارد الأرض واستهلاكها » .

والأصل الذي تنبع منه هذه القيم الثلاث الرئيسية هو معرفة الله تعالى وتوحيده في العبادة والطاعة .

« **القسم الثاني** » : التوجيهات الإلهية للتحذير من منكرات رئيسية تتبع جميع أشكال الإفساد في الأرض ، ويهدم استقرار الإنسان . **وهذه المنكرات الرئيسة هي** : « شيوع الظلم في الأرض وسريانه في العلاقات البشرية ، العلو والتكبر في الأرض ، الإسراف في إنتاج موارد الأرض واستهلاك خيراتها » . والمصدر الرئيسي لهذه المنكرات وأشكاله ، هو الكفر بالله أو الشرك به ومعصيته والتنكر لهديه .

التوجيه الثاني : حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للعيش والغذاء :

الأرض أعظم مصادر العيش والحياة بدون منازع ، وللانتفاع بالأرض كمصدر للعيش قاعدتان : « الأولى » الإقامة في الأرض حيث تتوفر الحرية خاصة حرية العبادة ، قال الله تعالى : ﴿ **يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون** ﴾[1] . أي هاجروا واستقروا حيث تستطيعون عبادتي شاملة غير مجزأة و« الثانية » حرية السفر في مناكب الأرض كلها للتجارة والعمل . وإلى هذه الحرية الثانية يشير القرآن الكريم بتعابير « الضرب في الأرض » و « السعي في مناكبها » .

التوجيه الثالث : اشتراك الإنسانية كلها للانتفاع بموارد الأرض وخيراتها .

وهو مايوجه به قوله تعالى:﴿**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾[2].

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٥٦ .

(٢) سورة الحشر آية : ٧ .

وإن الحكمة من قوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾[1] . فـ « الباطل » هو أن يحتكر البعض دون الآخر ، أو يستأثر بوافره دون الآخرين . لأن الأصل في مفهوم الأمة المسلمة أنها كالجسد الواحد ، وأن الغاية هي توفير أمنها مجتمعة . فإذا ظهر التفاوت وصار المال دولة بين الأغنياء وحدهم انعكست آثار ذلك على الجميع . فالأصل في المال أنه لله وأن الأمة لها حق الانتفاع به شريطة أن لا يخرج مفهوم المال عن كونه « ماعونًا » يعين الناس على إقامة أمور دينهم ودنياهم[2] .

إن الأصل في الاقتصاد الإسلامي هو ضمان حاجات الأمة . وإن تربية الرسول ﷺ للمجتمع الذي بناه قامت على جعل هذا التوازن الاقتصادي محور الحياة الاجتماعية لأنه يجسد المظهر الاجتماعي للعبادة . وهذا المظهر هو محور صدق العبادة ، والأمثلة لهذه السياسية النبوية كثيرة جدًا ، ومن أمثلتها قوله ﷺ : ((**المسلمون شركاء في ثلاثة :في الماء والكلأ والنار**))[3] .

والإشارة إلى الموارد الثلاثة بالأسماء الواردة في الحديث إنما هي إشارة إلى مقومات الحياة الرئيسية في تلك البيئة الصحراوية في تلك المرحلة من تاريخ المجتمع الإسلامي . إذ الأساس في « الإيواء » هو توفير الأمن

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٨ .

(٢) تفسير الطبري ، جـ١٠ ص١١٧ – ١٢١ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جـ١٥ ص١٣٢ .

الاقتصـــادي والاجتماعـــي المفضـــي إلـــى الأمـــن الديني . ومن توجيهات الرســـول ﷺ فـــي ذلك : ((**ما عظمت نعمة من الله على عبد إلا اشتد عليه مـــئونة الـــناس . فمن لم يحتمل تلك المئونة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال**))[1] .

التوجـــيه الرابع : حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للمعرفة الموصلة إلى الله تعالى :

إن مظاهر الانتفاع بالأرض ليست أهدافًا نهائية في ذاتها ، وإنما هي أهـــداف خاصـــة تفضي إلى هدف كبير وهو حسن الانتفاع بالأرض . وذلك باعتبارها أحد مختبرات الآفاق والأنفس التي يشاهد الإنسان فيها معجزات الله فـــي خلقه وشواهد ربوبيته ، وتوحيد ربوبيته في الطاعة والمحبة والولاية . وإلى هذا الهدف يوجه أمثال قوله تعالى : ﴿ **إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين** ﴾[2] .

ويلفـــت القـــرآن الكـــريم الانتباه إلى أن كثيرًا من الأجيال السابقة قد عمرت الأرض . وجعلت العلوم التي ساعدتها على التمكين في الأرض غاية بذاتهـــا ، وفرحـــت بها وتكبرت وبطرت وانصرفت عن الغاية الكبرى وهي « طاعـــة الله تعالى » ، وتجسيد هذه الطاعة في الإصلاح في الأرض ، فكان

---

(١) كنز العمال ، جـــ٦ ص٦٤٩ نقلاً عن الطبراني في الكبير.

(٢) سورة الجاثية آية : ٣ .

مصـــيرها أن نـــزل بها ما كانت تستهزئ بالآخرين منه من ضعف وتخلف وانهـــيار . وهـــذا هـــو الخطر الذي يتهدد الحضارة الحديثة التي فتنها التقدم العلمي فراحت تحارب الله ورسله في كل الميادين . ويرتكب الخطأ نفسه في الفـــرح بالعلم والوقوف عند ثمراته المادية دون الانتقال إلى غايته الإيمانية . قال الله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارًا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكســـبون ، فلما جاءتهم رسلهم بالبيانات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾[1] .

وتـــتكرر الدعوة على السير في الأرض شريطة أن تكون غايات هذا السير استعمال أدوات المعرفة من العقل والسمع والبصر للبحث عن مظاهر الحق في خلق الأرض لا سير الغافلين عما يرون ويسمعون . قال الله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[2] . والمحصلة النهائـــية لهـــا السير في الأرض والبحث في خلقها وما عليها والأحداث التي جرت فوقها . هي تخريج نوع من البشر يظلون في قراءة دائمة لآيات الأفاق والأنفس[3] .

---

(١) سورة غافر آيتا : ٨٢ – ٨٣ .

(٢) سورة الحج آية : ٤٦ .

(٣) الأمة المسلمة د/ ماجد غرسان الكيلاني ، ص٧٧ – ٩٢ .

الإسلام بين دعوى التعصب والتسامح مع الكفار

قد يتبادر إلى ذهن البعض منا أن الإسلام يأمر بالانطواء وعزلة عن غير المسلمين ، وأنه يربي أتباعه على إضمار الحقد والكراهية لغير المسلمين . وأن أتباعه يتعصبون لأنفسهم وأهل عقيدتهم دون أن يراعوا حقوق الطوائف الأخرى . ولا شك أن هذا الفهم الخاطئ مبعثه الجهل أو الحقد الدفين في النيل من الإسلام والمسلمين . وإلا فالحقيقة أنه لم يوجد مبدأ من المبادئ في الكون كله وعبر تاريخه الطويل تسامح مع أعدائه وعاملهم بالعدل مثل الدين الإسلامي . إن هؤلاء الذين يظنون وهم واهمون إنه يمكن أن يقوم بيننا وبين الكفرة ولاء تناصر ندفع به المادية إلا لحادية عن الدين : لا يقرأون القرآن الكريم وإذا قرؤوه اختلط عليهم دعوة « السماحة » التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة « الولاء » الذي يحذر منه القرآن . وإن هؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة بحقيقة العقيدة ، وينقصهم الوعي لطبيعة المعركة وطبيعة أهل الكتاب فيها ، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها . فإنهم يخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم ، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة .

يقول سيد قطب « رحمه الله » إن سماحة الإسلام مع أهل الكتب شيء واتخاذهم أولياء شيء آخر . ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين الذين لم

تتضـــح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته الذي يهدف إلى إنشـــاء واقع في الأرض وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية .

إن الديـــن الذي نزل على رسول الله ﷺ هو الدين عند الله . والتسامح يكـــون فـــي المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعـــي . أمـــا هؤلاء فيحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلاً ، ولا يقبل فيه تعديلاً ، قال الله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[1] . وقال الله تعالى : ﴿ **ومن يبـــتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه** ﴾[2] . الإسلام وقد جاء ليصحح اعتقاد أهـــل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنين سواء ، ودعاهم علـــى الإسلام جميعًا لأن هذا هو « الدين » الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعًا . والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام ، كما يدعو الملحدين والوثنين سواء ، وهو غير مأذون في أن يكره أحدًا من هؤلاء على الإسلام . لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه[3] .

لا يوجد مبدأ من المبادئ تسامح مع أعدائه وعاملهم بالعدل مثل الدين الإسلامي . وهذا القول ليس مجرد ادعاء واقع يشهد له التاريخ وتبرهن عليه الأحـــداث ، فالرسول ﷺ عندما أقام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة عقد معـــاهدة بين المسلمين من جهة واليهود والمشركين من أهل المدينة من جهة

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٩ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٨٥ .

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، جـــ٢ ص٩٠٩ – ٩١٥ .

أخـــرى وادعهم فيها وأمنهم على دينهم وأموالهم . فلو كان الرسول ﷺ بغير هـــذه الصفة لما احتاج أن يوقع معهم معاهدة تعاون وحسن جوار ، ويضعهم أمام خيارين لا ثالث لهما : « إما التبعية المطلقة ، أو الموت » .

وفي فتح مكة المكرمة دليل واضح وبرهان ساطع على تسامح الإسلام ورحمـــته حـــتى بأعدائـــه . فهل عرف التاريخ أن جماعة غلبت على أمرها وطـــردت مـــن بلدها ، وأوذيت في نفسها ومالها . فلما استطاعت العودة إلى ديارهـــا ، وتمكنـــت من رؤوس أعدائها لم تمتد يدها إلى عدوها بسوء ، ولم تأخذ فيه بثأر . وهل عرف التاريخ أن عدوين يلتقيان بعد طول صراع مرير مخضب بالدماء ، فلا يكون في لقائهما شحناء ولا بغضاء . إنها روح الإسلام الخـــالدة ، التي لا تنتصر للنفس والذات بقدر ما تنتصر للإسلام . إنها القيادة الرحيمة حتى بمن كانوا بالأمس أعداءها . إنه رسول الله ﷺ ، الداعية الذي لا يجـــد الحقد على مقاوميه إلى نفسه سبيلاً . فلم يرد بدعوته ملكًا ولا سيطرة ، وإنما أراد الله له أن يكون هاديًا وفاتحًا للعقول والقلوب[1] .

وفـــي كـــتاب كتبه النبي ﷺ لأساقفة نجران قال : (**بسم الله الرحمن الرحـــيم مـــن محمـــد النبي لأسقف أبي الحارث ، وأساقفة نجران وكهنتهم ورهـــبانهم وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير . جوار الله ورسوله لا يغير أسقف من أسقفته ، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ، ولا يغير حق من حقوقهم ، ولا سلطانهم ولا كانوا عليه من ذلك . جوار الله ورسوله**

---

(١) تهذيـــب ســـيرة ابـــن هشام ، عبد السلام هارون ، ص٤٠ . الرسول القائد ، محمود شيت خطاب ، ص٥٧ .

أبـــدًا مـــا أصلحوا ونصحوا عليهم غير مبتلين بظلم ولا ظالمين)[1] . وهذا الكتاب يبين مدى التسامح مع النصارى واحترام حقوقهم وأنهم لا يظلمون ولا يظلمـــون . وقد سار على ذلك خلفاء رسول الله ﷺ وصحابته ومن تبعهم من القادة الفاتحين .

فهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما فتح المسلمون مصر كتب بيده أمانًا للبطريق « بنيامين » ورده إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشر سنة . وأمر عمرو باستقباله عندما قدم من الإسكندرية أحسن استقبال .

وعندما تمكن القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي من دحر الصليبين بعد تسعين سنة من مجازر الغدر والخيانة والفساد في الأرض لم يعاملهم بالمثل . إذ أنه لما أسلمت له الحامية النصرانية ، أمنهم على حياتهم ، وكانوا أكثر من مـــئة ألف نسمة وسمح لهم بالخروج في أمان وسلام . وأعطاهم مهلة أربعين يومًـــا للخـــروج ، وقام بمداواة جرحاهم ، وتمريض مرضاهم ، وسمح لهم بحمل ما يحملون من أموال منقولة .

وعـــندما هجـــم قائد التتر « قطلوه شاه » على دمشق وأسر عددًا من المسلمين والذميين من اليهود والنصارى . ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معـــه جمع من العلماء ، وطلبوا فك الأسرى فسمح لهم قائد التتر بأسرى المســـلمين دون غـــيرهم . فرفض الشيخ ومن معه وقالوا : لا بد من افتكاك جمـــيع الأسرى هم أهل ذمتنا ، ولا نرضى ببقاء أسير من أهل الملة ولا من

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، جـــ٥ ص٥٥ .

أهـل الذمـة ، فـإن لهم مالنا وعليهم ما علينا ، فأطلق القائد التتري جميع الأسرى .

وإن هـذا غـيض مـن فيض موجز يبين أن الإسلام يقف مع الكفار موقـف رزن رشـيد ، في السماحة من غير ذل وهوان . فأصحاب الإسلام لا تـنطوي ضـمائرهم على الغل والحقد والدس والمكر بالآخرين . فسماحة الإسـلام يتعامل المسلم مع الناس جميعًا على أساس العدل والاحترام المتبادل دون أن يكون ذلك على حساب الاستهانة بالعقيدة الإسلامية وشعائر الإسلام . فالمعاملـة شـيء ومحبة القلب ومودته للكفار شيء آخر ، حيث أن الإنسان يـتعامل في أغلب الأحوال مع من يحب ومن لا يحب في بيعه وشرائه ونحو ذلك[1] .

إن عداوة الكفار للمسلمين عداوة متأصلة ، لا تغسلها سماحة أو مودة مـن المسـلمين للكفار أو حسن صحبة لهم . قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمـنوا لا تـتخذوا بطانـة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضـاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾[2] . فالتحذير في هذه الآية ليس مقصورًا على فترة تاريخية معينة . وإنمـا هـو حقـيقة دائمة تواجه واقعًا دائمًا . وقد نلاحظ ذلك في ماضينا المعهـود وحاضـرنا المشـهود ، وقد بين الله ذلك في آيات متعددة قال الله تعـالى : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا**

---

(١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي ، علي منصور ، ص ٣٥٨ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١١٨ .

مـــن عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾[1] . وقد عبرت الآية عن قوة الإصرار والاستمرار في العداوة من قبل الكفار .

وهـــناك بعـــض النماذج الواقعية عبر فترات تاريخية متباعدة لنبرهن على تسامح الإسلام وتعصب أعدائه ضده ، عندما تكون الغلبة على المسلمين ونســـتدل علـــى تعصـــبهم من أقوالهم وشهادة بعض المنصفين منهم يقول : « جـــيون » إن الصـــليبين خـــدام الرب ، يوم استولوا على بيت المقدس في « ١٠٩٩/٧/١٥م » ، رأوا أن يكـــرموا الرب بذبح « سبعين ألف » مسلم . ولم يـــرحموا الشـــيوخ ولا الأطفـــال ولا النساء ، في مذبحة استمرت ثلاثة أيام بلياليـــها ، ولـــم تنـــته إلا لما أعياهم الأجهاد من القتل . فقد حطموا رؤوس الصبيان على الجدران ، وألقوا بالأطفال الرضع من ظهور المنازل ، وشووا الـــرجال والنســـاء بالـــنار ، وبقـــروا البطون ليروا هل ابتلع أهلها الذهب . ثم يقول : كيف ساغ لهؤلاء بعد هذا كله أن يضرعوا إلى الله طالبين البركة والغفران[2] .

وما فعله « الصليبيون » في الأندلس عندما تغلبوا على المسلمين ، فقد قـــال أحد كتابهم « جوستاف لبون » : لما أجلى العرب سنة « ١٦١٠م » اتخذ جميع الذرائع للفتك بهم فقتل أكثرهم ، وكان مجموع من قتل إلى ميعاد الجلاء « ثلاثـــة ملاييـــن »مـــن الناس . في حين أن العرب لما فتحوا أسبانيا تركوا السكان يتمتعون بحريتهم الدينية ، محتفظين بمعاهدهم ورئاستهم غير مكلفين إلا بدفـــع الجزية ، وهي بمقدار ما كانوا يبذلونه لملوك القوط . وقد بلغ من

---

(١) سورة البقرة آية : ١٠٩ .

(٢) العلاقات الدولية في الإسلام ، كامل سلامة الدقسي ، ص٣١٣ .

تسامح العرب طول حكمهم في أسبانيا مبلغًا قلما يصادف الناس مثله هذه الأيام[1] .

ولو نظرنا على ما فعله ويفعله « اليهود » قاتلهم الله تعالى في فلسطين الجريحة من قتل وتشريد وظلم وبطش وعدوان . فنظرة اليهود الدينية إلى غير اليهود تشبه نظرة الإنسان إلى الحيوان . فقد جاء في الوثيقة الرابعة من وثائق اليهود التاريخية حيث ورد من ضمن ما تضمنته هذه الوثيقة قولهم ما يلي : « يا أبناء إسرائيل ، اسعدوا واستبشروا خيرًا ، لقد اقتربت الساعة التي سنحشر فيها هذه الكتل الحيوانية في اصطبلاتها ، وسنخضعها لإرادتنا ونسخرها لخدمتنا »[2] .

ولو تجاوزنا اليهود والنصارى إلى الملحدين من أهل الأوثان لرأينا ما تقشعر لهوله الأبدان . فقد روى ابن كثير فيما رواه من أحداث عام «٦٥٦هـ» عندما تغلب مشركوا التتار على المسلمين في بغداد . فقد شنوا حملة حقد وتعصب وظلم وطغيان ، فأبادوا الرجال والنساء صغارًا وكهولاً ، وفر من فر من الناس إلى المقابر ، وأغلق البعض منهم على نفسه في الحانات ودخل البعض منهم في قنا الأوساخ . ولكن القلوب المسعورة في حب الإجرام وإراقة الدماء ، والمملوءة بالحقد والكراهية على أهل الإسلام . طاردت كل هؤلاء ، وبواسطة بعض أهل الذمة من اليهود والنصارى ، والذين تنكروا للمسلمين لما قدموها لهم من حسن المعاملة واحترام الحقوق . ولم يمض على مذبحة بغداد أربعون يومًا حتى أصبحت خاوية على عروشها .

---

(١) حضارة العرب ، جوستاف لبون ترجمة عادل زعيتر ، ص٢٧٩ .

(٢) مكايد يهودية عبر التاريخ ، عبد الرحمن الميداني ، ص٤٤٦ .

وتراكمت الجثث كالأطواد في الطرقات ، ثم سقط المطر عليها فانفتحت وتغير الهواء وحصل الوباء[1] .

وبروسيا وما فعلته الثورة الشيوعية بالمسلمين في بخارى وسمرقند وغيرها من الولايات الإسلامية ، حيث أقدم الشيوعيون على قتل كل من يتفوه بكلمة : (لا إله إلا الله) . فقد نشروا في عام « ١٩٢٣م » : أنه يوجد داخل الاتحاد السوفيتي ثلاثون مليوناً من المسلمين يحافظون على عقائد باطلة وخرافات من العصور الوسطى ، وإننا قد اتخذنا الخطط والتدابير اللازمة لإزالتها . وقد سارت يوغوسلافيا على طريقة روسيا بعد تحويلها إلى الشيوعية ، فقد أبادوا « تيتو » ما يقرب المليون من المسلمين ، وما قضية البوسنة والهرسك « وإقليم كسوفا » في وقتنا الحاضر إلا أنها حرب شرسة وإبادة ضد المسلمين دون هوادة من الصربيين أعداء الأمة الإسلامية .

إن ما ذكر عن مواقف أعداء الإسلام والمسلمين ، عند تمكنهم من أهل الإسلام ، غيض من فيض ، قطرة من بحر ، وهذا كله مصداق لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعلقون** ﴾[2] .

إن من تسامح المسلمين مع أهل الذمة والمستأمنين أن يطبق عليهم في المحاكم قانون الأحوال الشخصية المنبثق عن عقيدتهم في قضايا الزواج

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، جـ٣ ص٢٠٢ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١١٨ .

والمهـــر والأولاد والنفقة وما إلى ذلك . بينما نجد أن المسلمين الذين يقيمون فـــي بـــلاد الغـــرب والشرق الكافر لا يطبق بحقهم قانون الأحوال الشخصية للمســـلمين ، وإنما يطبق بحقهم القانون المحلي لتلك الدولة وتلك البلاد . فلو تـــزوج المســـلم بأكـــثر من زوجة واحدة ، فزواجه باطل بمقتضى قوانينهم الوضعية ، وقد يحاكم كمجرم . أما لو زنيا برضاهما فلا شيء عليهما[1] .

ومـــع ذلـــك وللأسف الشديد يصف « الببغاوات » الإسلام والمسلمين بالتعصب ، والتشدد ، والجمود ، والتطرف ، وكبت الحريات . بينما يصفون أجـــنحة المكـــر الـــثلاثة « النصـــارى ، واليهود ، وأهل الأوثان » بالتسامح والاعتدال والمحافظة على حريات الأفراد وحقوقهم . فيا ترى من الذي يشهد له الواقع ويصدقه التاريخ نحن المسلمين أم هؤلاء الحاقدون[2] ...

---

(١) نظرية الإسلام وهديه ، أبو الأعلى المودودي ، ص١٨٨ .

(٢) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ، محماس الجلعود ، ص٥٦٢ – ٥٧٢ .

الفصل الثاني

- الانتماء .
- القومية .
- نشأة الدولة ..... قوتها .....

الإسلام ثم الوطن والوطنية

مـــن المعلوم أن الوطنية هي افتخار واعتزاز المسلم بالدين الإسلامي الحنـــيف ثـــم حب الوطن ، والشعور بارتباط نحوه . فالوطن هو قطعة من الأرض ، وإن الوطنية هو ارتباط الفرد بهذه القطعة من الأرض التي تعرف باسم الوطن . والإنسان يحب وطنه ، فيشعر نحوه بتعلق قلبي عميق ، فيفرح لســـعادته ، ويـــتفجع عـــند نكبته ، ويسعى لخدمته . حتى أنه لا يتأخر عن التضـــحية فـــي سبيل رفع راية الإسلام ثم وطنه ، إذا اقتضى الحال بأعز ما يملـــك حـــتى لو كانت حياته لأن منبع الوطنية وبذرتها الأولى لدى المسلمين كلمة : **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)** ثم حب الوطن .

إن منـــبع الوطنية اعتزاز المسلم بدينه الذي يضمن له سعادة الدارين « الدنيا والآخرة » والتمسك بتعاليمه ، والاقتداء بالسلف الصالح من أمته . ثم حـــب الوطن ذلك لأن الإنسان يشعر بتعلق عاطفي وارتباط بالمحل الذي ولد ونشأ وترعرع فيه . كما يشعر بتعلق نحو أهل ذلك المحل ونحو جميع الناس الذيـــن عايشـــهم وعاشرهم وألفهم في صغره وصباه . إن هذه الصلة تظهر نفســـها حينما يغترب المرء عن مسقط رأسه ومسرح صباه . فالإنسان يرتبط بموطـــنه وأهلـــه بـــروابط معنوية كثيرة ومتنوعة . فإن كل جزء من أجزاء حـــياته ، يتعلق بزاوية من زوايا بيته وبلدته . ولهذا نجد أن البلد التي تكون مسقط رأس الإنسان ومرباه تشغل مكانة خاصة في نفسه ، بمناظرها وعاداتها ولهجاتها .

إن حب الوطن المسلم يشبه حب الموطن ، وحب الأمة المسلمة يماثل حب الأهل ، وحب الوطن إنما يتولد مع توسع دائرة حب الموطن ، كما أن حب الأمة المسلمة إنما يتولد من توسع نطاق حب الأهل . فإن الإنسان ينظر إلى موطنه كجزء من الوطن ، كما ينظر إلى أهله وأهل بلدته كفرع من المواطنين . ويحب وطنه ومواطنيه ، كما يحب بلدته وأهل بيته ، ويفتخر بأمته المسلمة ووطنه ، كما يفتخر ببلدته وبأهله وبذويه .

الوطن هو عش الإنسان الذي فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ، وملتقى إخوانه وأحبائه في الله . وهو البلد الذي نشأته تربته وغذاؤه وهواؤه ، ورباه نسيمه ، قال أبو عمر بن العلاء[1] : (مما يدل على حرية الرجل وكرم غريزته حنيفه أي وطنه ، وتشوقه إلى مقدم إخوانه ، وبكاؤه على ما مضى من زمانه . والكريم يحن إلى أحبابه كما يحن الأسد إلى غابه ، ويشتاق اللبيب إلى وطنه كما يشتاق النجيب إلى عطنه ، فلا يؤثر الحر على بلده بلدًا[2] ، ولا يصير عنه أبدًا) .

قال الشاعر :

وأول أرض مس جلدي ترابها بلاد بها نيطت على تمائمي

وقال آخر :

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد

---

(١) أستاذ الأصمعي ، عد إمامًا للغة والنحو وقراءة القرآن وإليه تنسب إحدى القراءات السبع ، كما كان راوية للغة والشعر عن الأعراب .

(٢) تعليق : إلا إن فسدت فإن المسلم قد يهاجر من بلده إذا فسدت إلى البلاد الصالحة كما فعل النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم أجمعين عملاً بقوله تعالى : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ .

فـــإذا تمـــثل فـــي الضمير رأيته وعلـــيه أثـــواب الشـــباب تمـــيد

وكـــانوا يتشـــوقون إلـــى أوطانهم ، ولا يفهمون العلة في ذلك ،حتى أوضحها ابن الرومي[1] في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار ، أجبره على بيع داره فقال :

ولـــي وطـــن آليـــت أن لا أبيعه وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عمـــرت يـــه شرخ الشباب ونعمة بصـــحبة قوم أصبحوا في ظلالكما
وحبـــب أوطـــان الـــرجال إلـــيهم مـــآرب قضـــاها الشـــباب هنالكا
إذا ذكـــروا أوطـــانهم ذكـــرتهم عهـــود الصـــبا فحـــنوا لذلـــك
فقـــد الفتـــته الـــنفس حـــتى كأنه لهـــا جســـد أن بـــأن عودر هالكا

وقال من تحَير في الحل والارتحال :

وبقيـــت بيـــن عزيمتيـــن كلاهما أمضـــي وأنفـــذ مـــن شباة سنان
هـــمُ يشـــوقني إلـــى طلب العلى وهـــوى يشـــوقني إلـــى الأوطان

وقـــد جـــرت العادة أن البعيد عن الوطن . الذي قضى فيه جزءًا من شـــبابه ، يتشوق إليه ، سواء كان من أهل البدو أو من أهل الحضر . من كل من بعد منهم عن بلده ، وطال مقامهم بغيره .

وقـــد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن أبناء الوطن دائمًا متحدون في اللسان . والإسلام وضع الشريعة التي تنظم علاقتهم بين بعضهم البعض ، ولتنظيم علاقة الفرد مع ربه . فإذا بهذه الشريعة قوية أمتهم ونصرهم الله على أعدائهم ، وأدوا الرسالة المكلفون بها .

---

(١) ابن الرومي ، شاعر مشهور تميز بالتشائم والتطير ، وشعره جيد في رقته وعذوبته .

ثـــم إن ابـــن الوطـــن المتأصل به ، أو المنتجع إليه ، الذي توطن به واتخذه وطنًا ينسب إليه ، تارة إلى اسمه : « سعودي » أو إلى الوطن فيقال : « وطنـــي » ، ومعنى ذلك أنه يتمتع بحق بلده . فانقياده لتعاليم الدين الإسلامي ولأصول بلده يستلزم ضمنًا ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية ، والتميز بمزاياها ، فهو لدينه ووطنه بمنزلة أحد أعضاء البدن ، وهذه أعظم المزايا .

فالوطني المسلم المخلص في حب الوطن يفدي دينه وطنه بجميع منافع نفســـه ، ويخدمـــه ببذل جميع ما يملك ، ويفديه بروحه ، ويدفع عنه كل من تعـــرض له بضرر . فينبغي أن تكون نية أبناء الوطن دائمًا متوجهة في حق ديـــنهم ووطـــنهم إلـــى الفضـــيلة والشرف والتمسك بتعاليم الدين الإسلامي الحنـــيف ، ولا يرتكـــبون شيئًا مما يخل بحقوق أوطانهم وإخوانهم ودينهم ، فـــيكون مـــيلهم إلى ما فيه النفع والصلاح . كما أن الوطن نفسه الذي يطبق تعالـــيم الإســـلام يحمي عن ابنه جميع ما يضره ، لما فيه من هذه الصفات . فحـــب الأوطـــان وجلـــب المصالح العامة للإخوان من الصفات الجميلة التي تتمكن من كل واحد منهم في جميع أوقاته مدة حياته . مما أسعد الإنسان الذي يميل بطبعه لإبعاد الشر عن الإسلام ووطنه ولو بأضرار نفسه .

فصـــفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن ، بل يجب أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه . فإذا لم يوف أحد مـــن أبـــناء الوطن بحقوق دينه ووطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها عليهما .

أعداء الدين والوطن والوطنية

الإســـلام والوطنـــية هي من أهم وأقوى للعقيدة وللنزعات الاجتماعية المتأصـــلة فـــي النفوس المؤمنة . ومع هذا فإنها لا تسلم من أعداء وخصوم تســـعى إلـــى كســـر قوتها وتأثيرها . وأنه لا يقصد بقول « أعداء وخصوم » لأشخاص بل المقصود « الميول والنزعات » .

إن أهـــم وأعـــم الميول النفسية التي تعارض الدين والانتماء للوطن « الوطنـــية » وتعاديهـــا هـــي : « الأنانية » لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية ، وتحملها على تقديم هذه المصالح والملذات على كل شيء . على حين أن التمسك بتعاليم الإسلام والانتماء للوطن « الوطنية » على عكس ذلك تدعو إلى « الإيثار » و « التضحية » في سبيل رفع راية الإسلام والتمسك بتعاليمه والانتماء للوطن . إنها تطلب من كل شخص أن يحب دينه ووطنه ، ويخـــدم أمـــته بكل ما أوتي من قوة ، وأن يضحى بالشيء الكثير من راحته وهناءته في هذا السبيل حتى لو تطلب منه أن يوصل هذه التضحية إلى درجة « بذل النفس والحياة » عند اللزوم في سبيل دينه ووطنه .

إن الأنانـــية تعمـــل على الدوام عملاً معاكسًا لدواعي الدين والوطن والانـــتماء إلـــيهما ، والتـــي لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن نتغلب على الأنانـــية المعادية لها . والتي تعادي جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية على اختلاف أنواعها .

غـير أن هـناك بعض النزعات التي تعادي الانتماء للدين وللوطن ، ومنشـأ هـذه الـنزعات المعادية تتلخص في : « الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعـية » . والتـي تعتـبر أن الانتماء للدين وللوطن « الوطنية » من النزعات البالية التي يجب نبذها والتخلص منها .

يشـير د/محمـد الحسان في كتابه « المواطنة وتطبيقاتها في المملكة العربـية السعودية » من أن فكرة المواطنة في المذهب الاشتراكي تقوم على إثارة مجموعة من الانتقادات للمذهب الفردي . وذلك أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي أعقبت الثورة الصناعية في النظم الرأسمالية أدت إلى حفز مجموعـة مـن المفكرين إلى مناقشة فكرة المواطنة من خلال صراع القوى داخـل المجـتمع . ففي ظل الرأسمالية التي تتضارب فيها المصالح الخاصة لرجال الأعمال مع المصالح الخاصة للعمال ، جاء التساؤل : هل يمكن القول أن تلك المصالح المتضاربة يمكن أن توصل لتحقيق الصالح العام للمجتمع ، وهـل تركـيز الـثروات في يد فئة قليلة من المواطنين يوجهونها توجيهًا لا اكتراث فيه بمصالح الأغلبية من المجتمع تطبيقًا لشعار الحرية يمكن أن يحقق للمجتمع العدالة الاجتماعية .

وعلى أساس هذه الانتقادات للمذهب الفردي ، بدأ المذهب الاشتراكي من الأفكار التي طرحها كل من « شارل فرانسوا فورييه ، وروبرت أوين » والتي عنيا فيها بالبحث عن تصور لمجتمع جديد يحقق منفعة الغالبية العظمى من الناس .

وقد ظلت هذه الأفكار تتطور حتى جاء «كارل ماركس » الذي يعتبر المنظر الحقيقي للمذهب الاشتراكي ، الذي عرف فيما بعد بالاشتراكية العالمية أو مذهب الشيوعية الماركسية . وبني أراءه على فكرة مؤداها أن مجرى التطور التاريخي يتكيف بصورة حتمية بفعل القوى الاقتصادية ، أكثر مما يتكيف بآراء الناس فيما يجب أن يحدث . وكما جاء في نظريته ، يعتمد النظام الاشتراكي على : القضاء على كافة مظاهرة الملكية الفردية ، ووضع كافة مصادر الإنتاجية تحت يد الدولة وأشرافها على الإنتاج ، وتحديد دخول الأفراد ، وإلحاق كل أفراد المجتمع بخدمة الدولة .

والواقع أن النظام الاشتراكي كما رسمه « ماركس »يتضمن العديد من المغالطات . كما أن التجربة العلمية أثبتت أنه أكثر فسادًا واستبدادًا من النظام الرأسمالي ويمكن التدليل على ذلك بالآتي :

١- **كان «ماركس »يعتقد أن الثورة الاشتراكية ستتحول يومًا إلى ثورة عالمية ، تنمحي فيها الخصائص القومية** . وقد أثبتت الأحداث مدى خيبة هذا الظن .

٢- **كان يعتقد أن القضاء على الملكية الفردية ، وسيطرة الدولة على وسائل الإنتاج كفيل بمحو الطبقية** . وقد دلت التجارب على أن هذا الاعتقاد لا يعد أن يكون نظريًا ، فقد اختفت الطبقات الرأسمالية وحلت محلها طبقة أخطر من سابقتها ، وهم الحكام أعضاء الحزب الشيوعي .

٣- كـــان يعتقد أن النظام الاشتراكي سوف يكفل للشعب حرية الفكر والـــرأي والتعبير ، وهذه الحريات الأساسية التي تدخل فيها حرية العقيدة ، لم يكن لها أي وجود .

٤- الادعـــاء بـــأن الديـــن أفيون الشعوب ، ومحاولته إحلال عقيدة الكفاح في نفوس العمال بدلاً من الإيمان بالله . ولسنا في حاجة للتدليل على افتراء هذه المغالطة وتجنيها على المقدسات الإنسانية .

وبـــرغم الازدهار الوقتي الذي لقيه هذا المذهب ، فقد لقي في النهاية الطبيعية التي يمكن أن يلقاها أي مذهب بهذا القدر من الفساد الفكري ، ويكاد يكون قد أجتث تمامًا من العالم فكرًا وتطبيقًا[١] .

منذ قيام المجتمعات الإنسانية على وجه الأرض والعالم مبتلى بدعوات هدامـــة ومـــنها الدعـــوة الاشتراكية والإلحاد والعلمنة وهي دعوات باطنية . والباطنـــية هي أم الخبائث التي بسبب مكرها تصدعت الأمم والشعوب ، فقد ولـــدت الباطنية في نفس مخلوق امتلأ قلبه بالحقد على الإنسانية والنقمة على الفضائل والأخلاق . وبنى مذهبه على نكران الغيب والإيمان بالمادة ، وهدم الفضائل الإنسانية كلها ، وإباحة الحرمات جمعيها . وزعمت أن الرسل ادعوا النـــبوة طمعًـــا في حكم العامة ورغبة في السلطان . وأن الأديان ما هي إلا صـــدى الحاجـــة ووليد الضرورة وأنكرت كل قيد من قيود العقيدة والخلق . وسمت الفوضى حرية ، وجعلت الخلاعة والمجون والفسق والفجور والإباحية

---

(١) المواطـــنة وتطبـــيقاتها فـــي المملكة العربية السعودية ، د/محمد بن إبراهيم الحسان ، جـــ١ ص٥٦ - ٦٠ .

شـــريعة متـــبعة . وجعلت كل ممنوع مباحًا وكل حرام حلالاً ، وكل حريز مشاعًا ، وفصمت عرى الزوجية ، وقضت على عاطفة الأمومة والأبوة .

إن الاشـــتراكية المـــتفرقة عن العلمانية غريبة من الأديان السماوية ، غريبة عن شريعة الإسلام ومبادئها السمحة وعن أحكامه وتعاليمه ، والتاريخ الإســـلامي على مر العصور والأزمان لم يعرف العقيدة الاشتراكية . ويعتقد المؤرخـــون أن النزعة الشيوعية التي سماها « ماركس » الاشتراكية العالمية تعـــود أصولها إلى أغوار الماضي البعيد . وحين ظهرت الفرق الباطنية في القرن الهجري الثالث ظهرت هذه النزعة الاشتراكية عند معظم هذه الفرق ، واشـــتملت علـــى النواحـــي الاقتصادية والاجتماعية والأمور الإلحادية . إن الإلحـــاد مـــن المبادئ التي تقوم عليها الاشتراكية ، فالاشتراكيون يرفضون وجود الدين كما يحاربون العاطفة الدينية[1] .

إن العلمانية تعني الفصل بين السياسة والدين ، وإنها نظام من المبادئ والتطبـــيقات يـــرفض كـــل صـــور من صور الإيمان الديني والعبادة الدينية وبـــالأخص في التنظيم العام . وهي التي تدفع المفكرين للتفتيش عن الحلول العلمـــية للخـــلاص منها لعزل قضايا الدين عن السياسة ومشكلاتها . وأن لا يكون الإسلام دين الدولة ، أو الشريعة الإسلامية مصدرًا أساسيًا من مصادر التشـــريع ، وأن يضـــمن حياد الدولة تجاه الأديان . وهناك فيلسوف علماني للأسف أنه مسلم يقول : (إن الدين كما يدخل في صميم حياتنا وكما يؤثر في تكوينـــنا الفكري والنفسي يتعارض مع العلم ومع المعرفة العلمية قلبًا وقالبًا ،

---

(١) الإسلام والحضارة ، مطبع النونو ، ص١٤٣ – ١٤٥ .

روحًـــا ونصًا ، العلم والعصرية يعنيان العلمانية وفصل الدين عن الدولة) . وفيلســـوف آخـــر علماني للأسف أنه مسلم يقول : (إننا نفضل الحرب ضد الـــدول العربـــية الرجعـــية علـــى الحرب ضد إسرائيل لأن العدو هو الدين الإسلامي وليست إسرائيل) .

إن جمـــيع الفـــئات المضللة معادية سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة لأنها في عملها ومبادئها المشبوهة تعمل على تمزيق الشعوب الإسلامية وبث الفتـــنة صـــراحة بين الأمة الإسلامية بهدف سياسي خسيس للنيل من العقيدة الســـماوية التـــي أنزلـــت على سيد المرسلين وخاتم الأنبياء ﷺ . إن الحقيقة التاريخـــية التـــي لا تقبل الإنكار أو الشك أن محمدًا ﷺ بعد تشريفه بالنبوة لم يقصـــر عمله على تبليغ القرآن من عند الله وكفى ، بل كان يود حركة عامة شاملة نتج عنها قيام مجتمع مسلم .

لذلـــك أن العلمانية والاشتراكية في الحقيقة هي أسوأ شكل من أشكال الظلـــم الاجتماعـــي . فـــأي عاقل هذا الذي يرى العدالة الاجتماعية في قيام شخص أو بضعة أشخاص تأليف فلسفة اجتماعية وفرضها بالقوة على سكان دولـــة بأكملهـــا . إن ما جاء في القرآن الكريم لو طبق فسوف تتحقق عدالة اجتماعـــية كاملـــة لـــيس بعدها عدالة ، ولو تم تنفيذها فلن يستطيع أحد إيقاع المسلمين في خدعة استيراد « الاشتراكية والعلمانية » من الخارج والزعم بأنها عين الإسلام[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص١٤٩ – ١٥٢ وص١٥٧ .

لقــد ذكر الأستاذ فهد العريفي من أن الوطنية الإسلامية عمل وليست قولاً يتردد في المجالس وعلى أصوات الطبول . الوطنية الإسلامية تفان في حــب الوطــن الإسلامي ، وبذل النفوس رخيصة في سبيل صيانته وحمايته والدفــاع عنه . الوطنية عدالة بين أهله ، لا تطفيف كيل ولا وزن . الوطنية أمانة في عنق وقلب وضمير كل مواطن والتزام صادق .

لمصــلحة الجميع الوطنية شرف يحافظ به كل مواطن على ما أؤتمن عليه من مال عام ومال خاص ، دون أن يوهم النفس الأمارة بالسوء بأن مال الدولة مال مشاع يحق له أن يستغله إذا كان أداةً من أدوات الاستخدام أو مالاً منقولاً وغير منقول فيأكله بكل شدقيه .

هــذه الدعوات ليست جديدة فقد أطلقها ذوو النبل والشرف من كتابنا وأدبائنا وليست وليدة على أسماعنا. لكن القلة منا يصاب بالصمم عند سماعها، والــبعض الآخــر السيئ منا يصفها بالمثالية التي يتبعها الهائمون والحالمون الذيــن يوهمــون الناس إنهم نزهاء ، وبعيدون عن دروب « الدنيا » ومصادر الضــرر ، والله أعلم بما تخفي النفوس . الوطنية وتشمل ترشيد صرف الماء والكهــرباء وصيانة الأرض والنبات والهواء من العبث والضرر . والوطنية هــي الــتعاون لخير الجميع ودفع الضرر عن الجميع ، وهي تكاتف وتماسك وتعــاون علــى البر والتقوى والخير والمحبة والاستقرار . الوطنية هي نبذ الفــرقة والشــائعات الضارة ، وتوفير أجواء الوئام بين الأخ وأخيه ، والجار وجاره ، والمواطن مع مواطنيه .

السـارق عدو نفسه وعدو الوطن ، والظالم عدو نفسه وعدو الوطن ، والمحـتال في زمرة الأعداء والمحتالين ، والمنافق عدو نفسه وعدو الوطن ، والدجال عدو نفسه وعدو الوطن ، والذين يقلبون الحق إلى باطل والباطل حقًا هم أعداء للوطن والأمة .

الوطنـية ليسـت أحاديث تروى ولا قصصًا تدَّون ، وإنما هي أفعال ومواقف . في العهود الحديثة بات الحديث عنها ضربًا من الخيال ، ونوعًا من الكلام الممجوج عند بعض من اختطوا طريقهم ، ونهجوا منهجًا آخر لا يتفق مع متطلبات الوطن ومستلزمات الوطنية . وبات هذا البعض يرى أن الحكمة والوعي والفهم القدرة على الامتلاك ، وأن « العاجز من لا يستبد » ، والقاصر من يعجز عن الحصول على ما يريد بالطرق الملتوية ، والواعي من « يلعب بالبيضة والحجر » دون أن تتكسر .

أمَّا من يتعفف عن مال غيره ، ويبتعد عن أعراض الناس ، ويتحاشى الغـش ، ويبتعد عن الكذب والنفاق والحيلة ومواطيء الزلل ومواقع الخطل فهـذا في نظرهم ضعيف مسكين يستحق العطف ويستحق الصدقة . فسبحان مقلب القلوب والأبصار ومنه الهداية نستمدها وننشدها[1] .

---

(١) حـدود المحبة ، فهد العريفي ، ص١٥ مجلة اليمامة العدد ١٥٦٦ ، السبت ١٨ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ .

تمدن الوطن

لا شك أن رسالة الرسل بالشرائع هي أصل التمدن الحقيقي الذي يعتد بـــه ويلتفـــت إليه . وإن الذي جاء به الإسلام من الأصول والأحكام هو الذي مدن بلاد الدنيا على الإطلاق ، وانبعثت أنوار الهدى في سائر الآفاق .

إن أصـــول الفقـــه هو استخراج الأحكام الفقهية ودلالاتها التفصيلية . ونســـتطيع أن نقـــول أن القوانيـــن الوضعية الحديثة استفادت في الكثير من قواعدهـــا مـــن كلام الأصول . وأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول باقي الأمم المتمدنة وجعلوها أساسًا لوضع قوانين تمدنهم .

فما يسمى عندنا بأصول الفقه يسمى ما يشبه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النوامـــيس الفطـــرية ، وهـــي عبارة عن قواعد عقلية ، تحسينًا وتقبيحًا ، يؤسســـون علـــيها أحكـــامهم المدنية . وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق والأحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية . وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والزود عنه وحمايته ، ممـــا يفضـــلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة ، يسمونه محبة الوطن . على أنه عندنا معشر الإسلام حماية الدين مجمع الأركان . فالوطن هو جامعة الدين والوطنية فحمايته واجبة على بنيه ، وحب الوطن : ((**شعبة من شعب الإيمان**))[1] .

---

(١) حديث ضعيف ، إلا أن ما اشتمل عليه كلام جميل .

وفوائد التمدن كثيرة ، وعليها مدار جميع العلوم المعاشية والمعادية . ثـم إن من أسباب التمدن في الدنيا : التمسك بتعاليم الدين الحنيف ثم ممارسة العلـوم والمعارف . ومما أعان على سعة دائرة التمدن حرية الرأي والتعبير للعلمـاء وأصـحاب المعـارف في تدوين الكتب الشرعية والحكمية والأدبية والسياسية . بشرط عدم ما يوجب الاختلال في الحكومة بسلوك سبيل الوسط بغـير تفـريط ولا شـطط . ومـن أعظـم معين على التمدن توفر وسائل المواصلات على اختلاف أنواعها وكذا السياحة فإنها عادت على جميع ممالك الدنـيا بالـثروة والغنى . وكانت السياحة في الأحقاب السالفة لعرب الإسلام لاستكشـاف البلدان وإدخال أهلها في دين خير الأنام ، فاستكشفوا من البرور والبحور مالا يحصى ، ومدنوا من أهلها مالا يستقصى .

وفي الحرية العمومية التسوية بين المواطنين ، فالحرية من حيث هي رخصـة العمـل المباح ، من دون مانع غير مباح ، ولا معارض محظور . ويتصف كل فرد من أفراد الوطن بأنه حر ، يباح له أن ينتقل من دار إلى دار ومن جهة إلى جهة ، بدون مضايقة مضايق ولا إكراه مكره . وأن يتصرف كمـا يشـاء فـي نفسه ووقته وشغله ، فلا يمنعه من ذلك إلا المانع المحدود بالشرع أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة . وأن لا يضيق عليه فـي التصـرف في ماله كما يشاء إلا بأحكام الشرع الإسلامي ، وإن لا يكتم رأيـه فـي شيء ، بشرط أن لا تخل ما يقوله أو يكتبه بنظام دولته . وتنقسم الحرية إلى خمسة أقسام :

١- الحرية الطبيعية :

هي التي خلقت مع الإنسان ، وانطبع عليها ، فلا طاقة لقوته البشرية علـــى دفعها بدون أن يعد دافعها ظالمًا . فالأكل والشرب والمشي مما يشترك فـــيه جميع الإخوان ولا يستغنون عنه ، مما لا ضرر فيه على الإنسان نفسه ولا على إخوانه . فلا يجوز مثلاً : التخمة ، ولا أكل السموم ، ولا أكل طعام الغير بدون إذنه .

٢- الحرية السلوكية :

التـــي هـــي حســـن الســـلوك ومكارم الأخلاق التي يدعو إليها ديننا الحنـــيف ، هي الوصف اللازم لكل فرد من أفراد الوطن . المستنتج من حكم العقل ، بما تقتضيه ذمة الإنسان وتطمئن إليه نفسه في سلوكه في نفسه وحسن أخلاقه في معاملة غيره .

٣- الحرية الدينية :

بشرط أن لا تخرج عن أصل الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة .

٤- الحرية المدنية :

هي حقوق المواطنين الموجودين في وطنهم بعضهم على بعض ، وأن كـــل فـــرد من أفراد الوطن ضمن للباقين أن يساعدهم قدر المستطاع بما لا يخـــالف شـــريعة الإســـلام وتعالـــيمه ، وبشرط أن لا يتعدى حدود الأحكام والتعليمات المتبعة .

٥- الحرية السياسية :

هـــي تأميـــن الدولـــة لكـــل واحد من مواطنيها على أملاكه الشرعية المرعـــية ، وإجـــراء حريته الطبيعية . فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكـــه جمـــيع التصرفات الشرعية . فكان الحكومة بهذا ضمنت للإنسان أن يسعد فيها مادام مجتنبًا لأضرار إخوانه متبعًا لشرعه الإسلامي .

فالحرية بهذه المعنى : هي الوسيلة العظمى في إسعاد المواطنين ، في حبهم لأوطانهم . وبالجملة حرية المواطنين منحصرة في كونهم لهم الحق في أن يفعلوا المأذون شرعًا ، وأن لا يكرهوا على فعل المحظور . ومتى كانت حـــرية المواطنيـــن مصحوبة بعدل الملوك ، المتبعين للحق ، الذين يمزجون اللين بالخشونة للإهابة . حتى تستقيم أمور الدولة .

وحيـــث أن الحـــرية منطـــبعة فـــي قلب الإنسان من أصل الفطرة ، واقتضـــت الحكمة الإلهية عدم تحقيره وذله ، وكرامته على جميع من عداه ، فيجـــب أن يصرف حريته لما ينفع وطنه وإخوانه ودولته . فإذا كان الإنسان يكلف بنفع وطنه فلا يعد تكليف الحكومة له بجهاد الأعداء ، من التعدي على حقوقـــه ، فـــإن هذا من واجباته لدينه ثم وطنه . حيث إن العدو الذي يعتدي بالإغارة على حدود الوطن يجب على أهلها قتاله وصده عنها ، وما ذاك في الحقيقة إلا لحماية دينه وعرضه .

وأعظم حرية في المملكة المتمدنة حرية الزراعة والصناعة والتجارة خصوصـــا بعـــد اســـتكمال الأهلية فيها . وذلك بعد تقديم التربية لأن تهذيب

المواطنيــن وتحســين أحوالهم يكسب عقولهم الرشد والتصرف في العلميات المتسعة . قال بعض الحكماء : (إن سمحتم لي بتحسين التربية ألزمت نفسي لكــم بإصلاح أحوال العالم بأسره) . فإن العقول البشرية المسلمة متى بلغت مبلغًا في فهم أمور دينها وأمورها المعاشية اتسعت في المعاملات ، وتشبثت باختراع ما يعين على المنافع لوطنها .

المساواة :

وأمــا التسوية بين المواطنين ، فهي صفة طبيعية في الإنسان ، تجعله فــي جمــيع الحقــوق البلدية كإخوانه ، وهي جامعة للحرية المدنية والحرية الملكــية . وذلك لأن جميع الناس مشتركون في ذواتهم وصفاتهم ، فكل منهم ذو عينين وأذنين ويدين وشم وذوق ولمس ، وكل منهم محتاج إلى المعاش . فــبهذا كانوا جمعيًا في مادة الحياة الدنيا على حد سواء ، ولهم حق واحد في اســتعمال المــواد التــي تصون حياتهم ، فهم مستوون في ذلك ، لا رجحان لبعضهم على بعض في ميزان المعيشة . ولكن هذا التساوي بينهم أمرًا نسبيًا لا حقيقيًا ، لأن الحكمة الإلهية ميزت بعضهم على بعض أزلاً ، حيث منحت البعض أوصافًا جليلة لم تمنحها للبعض الآخر .

فبهذا تباينوا في الصفات المعنوية ، بل وفي الصفات الطبيعية ، كقوة الــبدن وضعفه . ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الرزق فقد جعلهــم في الأحكام مستوين . كما أمرت به ودلت عليه سائر الكتب المنزلة على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام . فليس للتسوية معنى آخر إلا اشتراكهم في الأحكام بأن يكونوا فيها على حد سواء . فحيث اشتركوا واستووا في الصفات

الطبيعية فلا يمكن أن ترفع هذه التسوية في الأحكام الوضعية . فمن حيث ثبت أنهم مستوون في الحقوق أنتج ذلك أنهم إذا وقعوا جميعًا في خطر عام وجب علـــى سائرهم أن يتعاونوا في إزالة هذا الخطر ، لما في إزالته من منفعتهم الدينية . فإذا وقع لوطنهم حادث وجب عليهم أن يصرفوا النظر عن امتيازاتهم المعـــنوية ، ويـــرجعوا إلـــى صفة التسوية ، وينسوا كل مزية . فبهذا تكون التســـوية ملازمـــة للحرية عند إنطواء راية الحرب . وينضم إلى ذلك صفة ثالـــثة : هـــي المحافظة على بقاء الهدوء والراحة العامة في وطنهم ، وحسم عرق الفتن .

فالتسوية في الحقوق ليست إلا عبارة عن تمكن الإنسان شرعًا من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من إخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شـــرعًا . فكل إنسان يتصرف في أملاكه وحقوقه تصرفًا كتصرف الآخرين أيامًـــا كانـــت فـــي المملكة صفته ، شرفًا أو ضعة ، فهو مساوي للجميع في تصـــرفاتهم . ومـــن البديهي أن استواء الإنسان في حقوقه مع غيره يستلزم اســـتواءه مـــع ذلـــك الغير في الواجبات التي تجب على الناس بعضهم على بعـــض ، لأن التســـوية في الحقوق ملازمة للتسوية في الواجبات . فكما أن الإنسان يطلب أن يستوفي ما هو له فعليه أن يؤدي ما عليه .

العدل :

فمـــن أدى واجـــباته واستوفى حقه من غيره ، وكان دأبه ذلك اتصف بصفة العدل . والعدل صفة تبعث الإنسان على الاستقامة في أقواله وأفعاله ، وأن ينتصـــف لنفســـه ولغيره ، فأكثر الفضائل متفرع منه ، مثل : الشفقة ،

والمـــروءة ، والـــتقوى ، ومحبة الوطن ، وخلوص القلب ، وصفاء الباطن ، والكـــرم ، وتهذيـــب الأخلاق ، والتواضع ، وما ماثل ذلك ، فهذه كلها نتائج العـــدل . ثم إن الحديث الشريف عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))**[1] . يتضمن الدرجة العليا في العدل[2] .

---

(١) التاج الجامع للأصول ، منصور علي ناصف ، جـــ١ ص٢٦ ، رواه الخمسة إلا أبا داود .

(٢) الأعمال الكاملة ، للطهطاوي ، ص٤٦٩ – ٤٧٧ ، مع حذف وإضافة لبعض الآراء .

القومية

القومية مصطلح شائع الاستعمال ، ولكنه معقد في تركيبه ونشأته لأنه يستخدم بمفاهيم كثيرة ومتعددة . وقد حاول الكثير بصياغته تعريف القومية ، والإلمام بأكبر قدر من دلالاتها ، فالبعض أشار إلى أن القومية هي حالة عقلية يشعر فيها الفرد بأن ولاءه الأسمى واجب للدولة . وهناك من قال إن القومية هـــي الإحســـاس بالانـــتماء إلى جماعة تملك دولة موحدة في ظل ظروف تاريخـــية تمـــت إلى مرحلة اجتماعية معينة . أو لجماعة تحاول التعبير عن ذاتها عن طريق إنشاء مثل هذه الدولة ، وهناك من يحاول أن يعرف القومية بأنهـــا « الانـــتماء إلى أمة » . وقد ظهرت خلافات كثيرة حول مدلول القومية مثل : « التطلعات القومية ، والشخصية القومية ، والوعي القومي ، والطابع القومي ».

وهناك تقسيمات أخرى يفرق بعضها بين « العوامل المادية » وهي إما وحـــدة الأرض أو الوحـــدة الاقتصادية ، « العوامل المعنوية » ومنها العقائد والعـــادات والمشاعر ووحدة التاريخ والثقافة ، « العوامل الموضوعية » التي يجب أن تتوفر لتكوين القومية وهي : « اللغة » التي يعتبرها الكثيرون أساس القومـــية ، « الأصـــل المشترك » وهي نظرية وحدة الجنس وتحتل مكانًا بين نظـــريات القومـــيات ، « الإقليم » وهي وجود إقليم معين له حدوده المعروفة لـــتمارس الدولـــة سلطاتها بداخله ، « الدين »له دور كبير على نمو المشاعر القومية ، « التاريخ المشترك » من أهم العوامل التي تؤسس الأمم .

وعـــندما اعتنقـــت الشعوب العربية الإسلام أصبح لديها كل مقومات القومـــية العربية . بحيث كان من السهل أن تتجمع كل هذه الدول تحت لواء قومـــي بكـــل مـــا يـــتوفر لديـــه من حضارة واحدة ولغة ودين واحد وثقافة مشتركة[1] .

القومـــية العربية : حركة سياسية فكرية متعصبة ، تدعو إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولة موحدة لهم ، على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ ، وإحلالها محل رابطة الدين . وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا .

لقد ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متمثلة في حركة سرية تؤلف من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية ، ثم في حركة سرية في عاصمة الخلافة العثمانية ، ثـــم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرًا لها . ثم فـــي حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الذي عقد في باريس ســـنة « ١٩١٢م » . وأن أهـــم الجمعيات ذات التوجه القومي حسب التسلسل التاريخي وتتلخص في :

١- **الجمعـــية الســـورية :** أسســـها نصـــارى منهم بطرس البستاني وناصف اليازجي سنة « ١٨٤٧م » في دمشق .

٢- **الجمعية السورية في بيروت :** أسسها نصارى منهم سليم البستاني ومنيف خوري سنة « ١٨٦٨م » .

---

(١) الموسوعة السياسية المعاصرة ، نبيله داود ، ص٣٦ – ٣٨ .

٣- **الجمعـية العربية السرية :** ظهرت سنة « ١٨٧٥م » ولها فروع في دمشق وطرابلس وصيدا .

٤- **جمعـية حقـوق الملة العربية :** ظهرت سنة « ١٨٨١م » وهي تهدف إلى وحدة المسلمين والمسيحيين .

٥- **جمعـية رابطـة الوطـن العربـي :** أسسها نجيب عزوري سنة « ٩٠٤م » بباريس وألف كتاب « يقظة العرب » .

٦- **جمعـية الوطـن العربـي :** « أسسـها خير الله خير الله » سنة « ٩٠٥م » بـباريس ونشـر أول كـتاب قومـي بعـنوان « الحركة الوطنية العربية » .

٧- **الجمعـية القحطانية :** ظهرت سنة « ١٩٠٩م » وهي جمعية من مؤسسها خليل حماد المصري .

٨- **الجمعـية العربـية الفتاة :** أسسها في باريس طلاب عرب منهم البعلبكي سنة « ١٩١١م » .

٩- **حـزب العهـد :** أسـس سنة « ١٩١٢م » أنشأه ضباط عرب في الجيش العثماني .

هذا وقد ظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينـية غـير المسـلمة ، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكـرتها . ولـم تصـبح تيارًا شعبيًا عامًا إلا حين تبنى الدعوة إليها الرئيس المصـري الراحل جمال عبد الناصر حين سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانات

دولـــته . ويعد « ساطع الحصري »رائد القومية العربية وأهم مفكريها وأشهر دعاتها ، وله مؤلفات تعد الأساس الذي تقوم عليه فكرة القومية العربية ،ويأتي بعده في الأهمية « ميشيل عفلق » .

ويعني الفكر القومي من شأن رابطة القربى والدم على حساب رابطة الديـــن . وإذا كان بعض كتاب القومية العربية يسكتون عن الدين فإن بعضهم الآخر يصر على إبعاده إبعادًا تاماً عن الروابط التي تقوم عليها الأمة . بحجة أن ذلك يمزق الأمة بسبب وجود غير المسلمين فيها .

ويـــرى دعاة الفكر القومي على اختلاف بينهم في ترتيب مقومات هذا الفكـــر أن أهم المقومات التي تقوم عليها القومية العربية هي : « اللغة والدم والـــتاريخ والآلام والآمـــال المشـــتركة » . ويرون أن العرب أمة واحدة لها مقومات الأمة وأنها تعيش على أرض واحدة هي الوطن العربي الواحد الذي يمتد من الخليج إلى المحيط . كما يرون الحدود بين أجزاء الوطن هي حدود طارئـــة ، ينبغـــي أن تزول وينبغي أن يكون للعرب دولة واحدة ، تقوم على أساس من الفكر العلماني .

يدعو الفكر القومي إلى تحرير الإنسان العربي من الخرافات والغيبيات والأديـــان كمـــا يـــزعمون ، وهو يتبنى شعار « الدين لله والوطن للجميع » . والهـــدف مـــن هذا الشعار ، إقصاء الإسلام من أن يكون له وجود فعلي من ناحية ، وجعل أخوة الوطن مقدمة على أخوة الدين من ناحية أخرى . والفكر القومي يرى بأن الأديان والإقليميات والتقاليد المتوارثة عقبات ينبغي التخلص

مـــنها مـــن أجل بناء مستقبل الأمة . ويقرر الفكر القومي أن الوحدة العربية حقيقية أما الوحدة الإسلامية فهي حلم .

كثيرًا ما يتمثل الفكر القومي بقول الشاعر القروي :

هبونـــي عـــبدًا يجعل العرب أمةً وســـيروا بجثماني على دين بَرهَمِ
ســـلام علـــى كفـــرٍ يوحـــد بيننا وأهـــلاً وســـهلاً بعـــده بجهـــنمِ

يقول بعض مفكري القومية العربية : إن العربة هي بيننا نحن العرب المؤمنيـــن العريقيـــن من مسلمين ومسيحيين ، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المســـيحيين . ويجـــب أن نغـــار عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي والمسيحيون على إنجيل المسيح . وأما عن انتشار وموقع النفوذ فإن كثير من الحكـــام يتـــبارون فـــي ادعـــاء القومـــية وكل منهم يفتخر بأنه رائد القومية العربية[1] .

القومـــية هـــي الشعور الذي يربط بين أفراد الأمة العربية ، فهي أمة واحدة تعيش في وطن واحد هو الوطن العربي ، ويشعر أفرادها بالولاء لهذا الوطن ، والاعتزاز بعروبتهم ، والحرص على سلامة وطنهم الكبير والدفاع عنه . وعلى هذا فالقومية العربية رباط دائم مستمر ، وهي الذي جمع العرب جميعًا في وطنهم منذ مئات السنين . وللقومية العربية جذور عميقة يشعر بها كل عربي ، وهذه الجذور أو الأسس تعتبر من مقومات القومية العربية التي تتلخص في التالي :

---

(١) الموســـوعة الميســـرة فـــي الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ، ص٤٠١ – ٤٠٥.

أولاً : التكامل الجغرافي :

يمتد الوطن العربي بلا انقطاع من المحيط الأطلسي غربًا إلى الخليج العربي شرقًا ، ومن البحر الأبيض المتوسط وجبال طوروس شمالاً إلى المحيط الهندي ووسط إفريقيا جنوبًا . وتبلغ مساحته حوالي (١١,٥) مليون كم^{٢} أي أكبر من مساحة قارة أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية .

يقع الوطن العربي عند ملتقى ثلاث قارات « آسيا ، إفريقيا ، أوروبا » ويربط هذه القارات كما يربط البحار المتصلة بها ، ويتمتع بموقع ممتاز من العالم ، فهو ممر بحري وجوي وبري عالمي بين القارات الثلاث ، وهو حلقة الوصل بين الشرق والغرب .

فالوطن العربي الكبير تكاد تتشابه الأرض في كل أقطاره ، كما تتصل سواحله المطلة على البحر الأبيض المتوسط من أقصى شمال سوريا إلى أقصى المغرب العربي . وأن أنهاره وصحاريه لا تعتبر عوائق تفصل بين أجزائه وإنما تربط بينهما .

كما تعتبر باديه الشام امتدادًا لصحراء الجزيرة العربية ، وتمتد الصحراء الغربية في مصر إلى ليبيا وتونس والجزائر ، ويعتبر البحر الأحمر بحيرة عربية . كل هذا جعل الأرض العربية موطنًا للعرب ، لا يستطيع أي جزء منها أن يعيش منفصلاً عن غيره من الأجزاء . ولقد عاش الشعب العربي في هذه المنطقة منذ آلاف السنين ، ولم يعرف حدودًا تقسمها إلا في القرون الأخيرة .

ثانيًا : وحدة اللغة :

اشتراك العرب في لغة واحدة « اللغة العربية » تجعلهم أبناء أمة واحدة تتميز عن الأمم الأخرى . ويكفيهم عز وفخر أنها لغة كتاب الله العزيز « القرآن الكريم » قال الله عز من قائل : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين** ﴾[1] .

لقد انتشر في أنحاء الوطن العربي الطراز العربي الإسلامي في المساجد والمباني ، وترجم الكثير من كتب الثقافة العربي إلى اللغة اللاتينية ، وكان لها أثر كبير في قيام الحضارة الأوربية الحديثة . ولم تسمى هذه العلوم والفنون بأسماء إقليمية ، وإنما سميت بالآداب العربية ، والفنون العربية ، والعلوم العربية . وسميت هذه الحضارة باسم « الحضارة العربية » ، أي أن العرب لم يعرفوا الإقليمية في إنتاجها ، فحاضرتهم تعبر عن أمة واحدة هي الأمة العربية .

ثالثًا : وحدة المصالح :

العرب كأمة واحدة لهم مصالحهم المشتركة تتلخص في : « المصالح السياسية حيث أثبت التاريخ أن مصالح العرب السياسية واحدة ، وأن تضامن العرب يزيد من قوة الأمة العربية في المجال الدولي . كما أن المصالح الدفاعية والعسكرية في اتحاد الأمة العربية ليزيد من قدرتهم على مواجهة احتمالات العدوان مهما كان مصدره ، وفي ذلك تأمين لاستقلال الدول العربية . وأن المصالح الاقتصادية للأرض العربية متنوعة متكاملة يستطيع

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٩٢ – ١٩٥ .

بعضها أن يسد حاجة البعض الآخر . وعن طريق التعاون الاقتصادي يمكن للوطـــن العربـــي أن يكتفـــي ذاتـــيًا إلى حد كبير ، ويعود بالخير على جميع أبنائه »[1] .

(١) الوحيد في التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية ، محمد أمين ، ص١ – ٩ .

القومية والإسلام

كانـــت الدنـــيا بشـــر ، وكان البشر قد قست قلوبهم ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة . وانقسم المجتمع إلى طبقات تتصارع ، ودماء تتفاضل وأجناس تختلف وشعوب تتناكر . ونسي الناس تعاليم السماء وهدى الأنبياء وما جاءت بـــه الرسل . ومزقت البشرية مزقًا ، وتفرقت عصبيات ، وأصبحت الأرض وقد ضاق بها البشر ، بعد أن ضاقت بهم .

لقد أرسل الله لهم الأنبياء وبعث الرسل ، وكانت دعوتهم واحدة الناس كلهـــم لآدم وأن ربهم واحد ، وأن لا تفاضل بلون أو عرق أو جنس . ولكن الـــناس ســـرعان ما ينحرفون ، وسرعان ما يلحق الفساد عقولهم ، ويستولي الشر على النفوس . ولكن الفساد لم يتركه الله تعالى يطغى على الناس بل كان يرســـل إليهم الرسل مبشرين بالخير ومنذرين من الشر ، فكان بعض البشرية يستجيب وأكثرها يعرض .

وكان لكل أمة رسول ، ولكل قوم نبي ، وكانت الإنسانية قد شبت عن الطرق فلا بد إذا من أن تبلغ رشدها ، فتوحد في دين وترتبط بمبدأ ، وتلتقي على فكر واحد . فكان لابد من نبي واحد لكل الناس ولكل الأجناس والألسن . فكان النبي الأمي سيد الخلق رسول الله محمد بن عبد الله ، أرسل في جزيرة العرب وغير العرب . ولكنه جاء لشبه الجزيرة العربية ولكل القارات . وبدأ القـــرآن ينزل يقرع الأسماع ويهز الأعماق ، وينادي بعبدة الطاغوت وبعبدة الأوثـــان وعـــبدة الإنســـان أن أفيقوا من غفوتكم وتفكروا في خلق السماوات والأرض .

ويبدأ صوت الحق يعلو ، ويحصل صدى لهذه الدعوة في الأقطار المجاورة لشبه الجزيرة ، وبدأت شبه الجزيرة تستسلم للنبي ﷺ وللدعوة . ولكن النبي لم يرسل للعرب وحدهم ، إنه كان نبي الإنسانية ، إذا فليراسل الملوك والرؤساء في العالم القديم كله : فبعث سليط بن عمرو إلى صاحب اليمامة ، وعلاء الحضرمي إلى صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص إلى صاحب عمان ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ، ودحية الكلبي إلى قيصر ملك الروم . واضطرب الملوك والحكام ماذا يريد هذا الرجل الذي جاء من العرب . هؤلاء الذين لم يكن لهم وزن في السياسة الدولية ، ولا يكترث بهم أحد ، ولا يرهبوا عدو ، ولا يسعى إلى صداقتهم صديق . فما هذا الرجل لا يكتفي بقومه بل يريد الناس كل الناس .

وهكذا أصبحت الدعوة تسير في الأرض وتتناقلها الدنيا ، ويبدأ الصراع بين المسلمين والعرب ، وليعلن رسول الله ﷺ تطهير أرض الجزيرة من عبادة الأوثان . ثم يتسع الصدام بين المسلمين وبين الروم ومن تبعهم من قبائل العرب التي كانت في أطراف الجزيرة العربية من جهة الشام . ثم يمتد الإصطدام حتى يشمل فارس ومن معها من قبائل العرب التي كانت تسكن أطراف الجزيرة من جهة العراق وفارس .

إنه صدام لم تكن القوميات فيه المتحاربة . ولم يكن العرب في وضعهم الجديد دعاة عنصر وأهل تعصب ، وإنما حملة هداية ورسالة خير . يريدون أن تهتدي البشرية على أيديهم برسالة السماء وتنقذ من ظلامها بنور القرآن . كما يريدون من البشرية أن تتآخى ، وأن يجمعها دين الله فتتلاقى .

قـــال الله تعالى ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[1] .

وإذا المحـــبة تســـود والإخاء يلتقي ، وإذا الناس أبناء رجل واحد وأم واحـــدة كمـــا خلقهـــم الله . وإذا الإنسانية تلتقي لأول مرة في تاريخها ينسى الفارســـي نـــاره وعنجهيته ، وينسى الرومي تقديس البشر ، وينسى العربي قبليته وعنصريته ، ويلتقي الإسلام بهم جميعًا فإذا هم في الله متحابون وعلى رسالته مجتمعون .

وإذا الجـــيش جـــيش الإســـلام يلتقي فيه موسى بن نصير العربي مع طـــارق بـــن زيـــاد الـــبربري ، وإذا مالك بن أنس العربي لا يبزه في علمه واجتهاده إلا أبو حنيفة الفارسي . وإذا العقل البشري يتخلى عن كثير مما ألف مـــن الخرافة التي تجعله يتعلق بالدم والعنصر للتفاضل بالتقوى . وامتزجت الألـــوان ، وامتزجـــت الأجناس ، فلا عربي ولا فارسي ، ولا رومي ، ولا كردي . ولا يستطيع واحد أن ينتسب إلى أرومة معينة مدعيًا خلاصة السلالة ونقاء الدم . والتقى الناس على فكر واحد يتفاعلون معها ، فكانت هذه الثروة الفكـــرية التي تغذي قسمًا كبيرًا من الإنسانية ، وتجعل حياتها اليوم تتجه إلى منحى واحد ليس فيه تعجرف العنصريين ، ولا تعصب القبليين ، ولا سخافة المميزين بالألوان ولا المتفاضلين بالأجناس[2] .

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٢) أضواء كاشفة ، أسعد بيوض التميمي ، ص٨٠ – ٨٨ .

إن العـــروبة بمعـــناها الثقافـــي هي اللغة بعلومها المختلفة جزء من الإسلام لا يتجزأ .

قـــوة دافعة للبشر في طريق صاعد ، حتى وقف المسلمون على قمة الزمـــن يشيرون الناس إلى درب الخلاص وطريق النجاة ، واستمر ذلك عدة قرون .

فلمـــا اســـتولى علـــى الأمر في بلاد المسلمين ، مسلمون تركوا لغة الإســـلام جهـــلاً مـــنهم بالأمـــر الذي سبب الكارثة .فثارت في أعماقهم بقايا التعصـــب للغتهم وقومهم ، فتركوا لغة الإسلام اللغة العربية . عندها بدأ أول الانحـــراف ، وسارت الأمة في طريق الهبوط . وقد وصلت إلى ما هي عليه الآن مـــن جمـــود عقلـــي ، وانحدار سياسي وتأخر اقتصادي ، وتفكيك إلى دويلات لا يكاد يتفق على عددها علماء الجغرافيا . وصادف في أثناء ذلك أن جاءت طبقة من العلماء أغلقت باب الاجتهاد ، وأرغمت العقول على الجمود والتقليد . مما سبب في الفكر جمودًا ، وفي التشريع من كل مجلوب لا يسعد .

وقـــد جـــاء عصر المماليك الذين قدموا للإسلام خدمات جلى ، دفعوا عـــنها أخطـــارًا عظـــيمة ، ولكنهم كانوا غير منتبهين إلى خطر فصل اللغة العربـــية عن الإسلام . هذا الإسلام الذي جعل المسلمين يتوحدون في الحرب الصـــليبية مـــن جديـــد : « العربي ، والكردي ، والتركي ، وغيرهم » وكل المســـلمين وكـــل الأجـــناس ، وكل الألوان ، وكل اللغات التي دخلت بوتقة الإســـلام . ليصـــهرها ويكون منها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر فتدحر العدو وتطهر البلاد .

فلمـــا ولت الصليبية الأدبار منهزمة رجعت إلى وكرها في أوروبا . وصادف بعدها أن جاءت النهضة الصناعية ، فلم تنم أوروبا على الهزيمة بل فكرت كيف تمزق المسلمين وتشتت العالم الإسلامي . ولقد عرفت بعدها كيف تعمـــل ، بعـــد أن وجدت أن الإسلام يوحد الفكر ، ويوحد المشاعر ، ويجعل المؤمن ينسى نفسه في ما يعتقد ، فيقدم نفسه في سبيل الله .

فكـــان لابـــد أن يـــنزع الفكـــر الإسلامي من الرؤوس ، وأن يعري المســـلمين مـــن إيمانهم ومن أفكار مبدئهم حتى يعود إلى ما قبل الإسلام إلى العصبية والتفاخر بالأنساب والأجناس . وبالفعل كان الغزو الثقافي بعيد الأثر في تمزيق العالم الإسلامي ، وإيجاد العصبية للجنس وللقوم .

وجاء عصر الانحطاط العقلي ، وخيم الظلام وانتشرت الخرافات التي تســـربت إلى الدين ، وظهرت قاعدة خاطئة ليس لها من الدين أساس . كان موقف المنتسبين للعلم أثر واضح في أن يتجه بعض الشباب المتعلم عن البعد عن الإسلام رويدًا رويدًا خصوصًا أن أكثرهم تعلم على أيدي الغربيين الذين قامـــت نهضـــتهم على أساس فصل الدين عن الحياة . لقد قاس هؤلاء الدين الإسلامي بغيره من الأديان وأرادوا نهضة أمتهم على أساس فصل الدين عن الحـــياة . وأخذ الاستعمار يشجع هذه الفكرة حتى يصل إلى مبتغاه في تفريق المسلمين وتمزيقهم .

لقـــد ركز الاستعمار في الأذهان أن الوحدة لا يمكن أن تتم للاختلاف الحضـــاري بيـــن أجزاء الأمة ، مع أن حضارة الأمة واحدة . ولكن الشعور بـــرغم كـــل العوائق التي وضعها الاستعمار بدأ ينمو رويدًا رويدًا . وخشي

الاســتعمار أن بقي هذا الشعور يعمل وحده أن يؤدي إلى وحدة حقيقية تستند إلــى حضــارتنا ومبدئــنا . فنعود للدنيا مرة أخرى كما أرادنا الله خير أمة أخرجــت للــناس ، تأمــر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فأخذ يعمل على التجزئة باسم الوحدة ، فشجع على إنشاء الجامعة العربية التي تنص على بقاء الــتجزئة إلــى الأبد . إذ أن كل دولة من الدول الأعضاء في الجامعة ملزمة بالمحافظــة على حدود الدولة الأخرى وخشي المستعمر أن يقوم شعور يؤدي إلى العودة للإسلام نظام حياة ومبدأ تحضير وقيادة فكر وفلسفة وجود .

لقــد أراد المستعمر أن يصرف شباب الأمة عن سير عظمتهم ومكمن قوتهــم ، فأوعــز إلى بعض الشبان العرب من غير المسلمين في أن يؤلفوا أحــزابًا تقــوم علــى أساس الفكرة القومية التي لا تعترف بالإسلام ، ولكنها تعــترف بالعنصر . وركز في الأذهان أن الإسلام يجب أن يفصل عن الحياة ويبتعد عن الدنيا . وأن الدين عهده قد ولى ، وأن الدعوة إليه رجعية لا تتفق مــع الإنســان المتحضــر . وقد شجع هذا الأمر وهو تشويه الإسلام بعض الحــركات الإســلامية التــي لم تكن تعرف ما تريد وإنما تدعو إلى الإسلام المفتوح بشكل غامض لا يستنير به عقل . ولكن الإنصاف يدعونا إلى أن من بين هؤلاء علماء رجال عمر الإيمان قلوبهم ، وصدقوا أمرهم مع ربهم .

وأن هناك مقارنة لدعاة القومية العنصرية ، بينما عملته الأمة المسلمة يــوم استنارت بنور الله فكان الإسلام مبدأها ، وكان القرآن ميثاقها ، وكانت الســنة طريقها . فاستولت على الدنيا لا مستعمرة ولا غازية ولكن محضرة ومعلمة . وأما اليوم وفي ظل الدعوة إلى القومية ، فحين نقدم حسابنا فلا نجد أنــنا ربحــنا شيئًا ، ألم تستمر التجزئة ؟ ألم تثبت الفرقة ، أين فلسطين . لقد

قدمهـــا أبـــو عبـــيدة بن الجرح وعمر بن الخطاب لهذه الأمة باسم الله واسم الإسلام ، وضاعت في التاريخ مرة وعادت باسم الله وباسم الإسلام .

والأمـــة الـــيوم تتكون من أقوام مختلفين وعناصر متباينة ، فإذا دعا العربـــي إلـــى قوميته نادى الكردي بكرديته ، وإذا فضل الجزائري العربي والمغربـــي عروبته ثارت في البربري الجزائري أو المغربي عنصريته وهو محق في ذلك . فليس لجنس أن يدعي التفوق على جنس آخر وليس قوم خير من قوم . فإذا أردنا من الكردي أن يضع سلاحه وأن لا يثور البربري علينا أن ندعوهم إلى عقيدتنا وعقيدتهم إلى الإسلام إلى الذي يحارب الفرقة ويدعو إلى المحبة والوحدة[1] .

إن من أخبث ما واجه المسلمين في عصرهم الحاضر انتشار المذاهب اللادينـــية لمحـــو شريعة الله من الأرض . وتشتت ولاء المسلمين الواحد إلى ولاءات جاهلية متعددة .

إن روح الجاهلـــية بـــالعودة بالمســـلمين إلى جاهلية العرق والنسب والـــتراب والتي تبدو فيها صورة منافاتها وتناقضها للعقيدة الإسلامية . ومن ذلـــك « القومية » التي تحصر الولاء في دائرة الجنس أو التراب ، فيلتقي فيها المسلم العربي مع المشرك العربي لأن رابطة القومية تجمعهم . فالرابطة في ديننا الحنيف رابطة العقيدة ، فضلاً أن الوطنية والقومية ضيقتا دائرة الولاء .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٢ – ١٠٠ .

إن العـــالم الإســـلامي كان أمة واحدة تظله راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ورغم خط الانحراف الذي يرتفع ويهبط في تاريخ المسلمين إلا أنهم إلى ما يقرب من ثلاثة قرون كانوا يشعرون أنهم أمة واحدة يدينون بدين واحـــد ويؤمنون بكتاب واحد . ولقد كان المسلم كلما حل أرضًا وجد فيها له إخـــوة فـــي الإيمان وإن كانت الألسن مختلفة والألوان متباينة . لأن الإسلام أذاب كل تلك الفوارق واعتبرها من شعارات الجاهلية . ولكنه نتيجة لضعف المسلمين وتمكين عدوهم من أنفسهم سهل استعمارهم من قبل أرذل خلق الله ، وهم اليهود والنصارى .

وبعد أن تمكن العدو من السيطرة على أرض الإسلام بث سمومه لنزع الـــولاء الإسلامي ليحل محله الولاء الجاهلي الكافر . وأخذت هذه بالمغالطة عـــند البعض بأن هذه الأفكار لا تتعارض مع الإسلام . ويقال ما الذي يمنع المسلم أن يكون مسلمًا وقوميًا أو مسلمًا علمانيًا ، وأدرك أعداء الإسلام مدى جـــدوى وفعالية ذلك . بدؤوا ببث فكرة القومية ، مبتدئين بتركيا مقر آخر خلافة إســـلامية . حيـــث نشأت هناك « القومية الطورانية »وتزعم هذه الدعوة حزب

« الاتحـــاد والترقـــي » فبدأ «بتتريك »تركيا وعودة القومية الطورانية متخذين لذلك شعار « الذئب الأغبر » الذي هو معبود الأتراك قبل أن يعرفوا الإسلام .

وبهـذا التـتريك أخـذت الدولة العثمانية تضغط على العرب ، حيث تعطي الأتـراك امتـيازات خاصـة بهـم لأنهم ترك . وهذا الفعل فضلاً عن كونه يعـارض مبدأ العدل الإسلامي هو أيضًا مؤشر للعرب أن يتحدوا في قومية جديدة[1] .

ونـادى دعاة القومية الناس فقالوا : ما المانع أن يكون المسلم العربي عربيًا مسلمًا ، ثم قالوا يكون عربيًا فقط . أليس الإسلام عربيًا إذًا ما هو عيب القومـية العربـية . إن العرب إذ ذلوا ذل الإسلام فلننادي بالقومية العربية . وهـذا كـلام غير صحيح لأنه يوم ذل العرب جاء «صلاح الدين الكردي » وجـاء «قطـز المملوكي »فأنقذا المسلمين من ذلك الهوان ، وانتصر القائدان بقولهمـا وإسـلاما . ولم يكن في حسهم ولا في عقيدتهم هذه التفرقة ولا هذه النعرة الجاهلية[2] .

إن الإسلام يكذب ذلك الزعم الذي يزعمه القوميون لأنه جاء لانتزاع

هـذه الـنعرات فجمـع في دعوته بل في أول دعوته : « أبا بكر العربي القرشـي ، وبلال الحبشي ، وصهيبًا الرومي ، وسلمان الفارسي » . وكما

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام ، محمد القحطاني ، ص٤١٧ – ٤٢٤ .

(٢) المذاهب الفكرية المعاصرة ، محمد قطب ، إملاءات عام ١٣٩٩هـ .

قـــال عمر رضي الله عنه : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا التمسنا العزة بغيره أذلنا الله .

إن تقلـــيد الغـــرب في استيراد مبدأ القومية أو العلمانية أو أي مذهب أو فكرة : يعيد للأذهان تلك القصة الرمزية القديمة التي تتحدث عن حمارين كـــان أحدهمـــا يحمل ملحًا وكان الآخر يحمل إسفنجًا . فرأى حامل الإسفنج صاحبه ينزل إلى الماء فيذيب بعض الملح ويخرج منه أخف حملاً ، فخطر له أن يحصـــل علـــى المزية نفسها بالأسلوب نفسه فكانت النتيجة على عكس ما توقعه وخرج من تجربته أثقل حملاً[1] .

القومية ظاهرة برزت في المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر ، يمجـــد جماعـــة محدودة من الناس ، يضمها إطار جغرافي ثابت ، ويجمعها تراث مشترك ، وتنتمي إلى أصول عرقيه واحدة . والقومية بهذا المعنى تدعو أصـــحابها إلى العمل على تعزيز ثقافتهم الموحدة ، وتدعيم تراثهم المشترك ، وتنمـــية مصـــالحهم الخاصـــة . مع حصر جهودهم في هذا النطاق وحده ، دون نظـــر إلى الاعتبارات التي كانت تجمعهم قبل ذلك مع غيرهم في رباط مشترك .

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، الحضارة الغربية ، سيد قطب ص٢٣٧ .

وقــد انتقلــت عدوى هذه النزعة القومية إلى العرب ، وإلى المسلمين على وجه العموم ، وأصبحت ظاهرة بارزة في البلاد العربية والإسلامية مع مطلع القرن العشرين الميلادي . ودخلت هذه المجتمعات في صراع بين هذه المفاهيم القومية المستحدثة ، وبين المفاهيم الإسلامية التي لا يقوم فيها اعتبار للأجــناس . والتــي تعتــبر المسلمين حيثما كانوا أمة واحدة الدين فيها مقام النسب .

انتشــرت هذه الدعوات القومية بين المسلمين في البلاد العربية ، وفي البلاد الإسلامية . وأخذت القومية العربية التي بدأت إلى جمع شمل العرب في دولــة واحدة ، فقد كانت منذ نشأتها ، ولا تزال موضع جدل كثير . نتج عما أحاطهــا فــي أذهــان العــرب والمسلمين من لبس يرجع إلى أن العرب هم جرثومة الإسلام وأصله الأول ، وإلى أن لغتهم هي لغة الإسلام التي نزل به كــتابه ، والتي تؤدي بها كل شعائره . وبرزت كلمات « العروبة ، والجامعة العربــية ، والقومــية العربية » على التعاقب . ثم اختلطت مفاهيمها ، وكان المقصــود بهــا في كل الأحوال هو الصفات الجامعة لذلك الجنس من الناس المسمى عند المعاصرين « بالعرب » . والمحافظون من دعاة القومية العربية يــرون أنهــا فرع من التصور الإسلامي خاص بالذين يتكلمون العربية من المســلمين أو الدول التي ضمتها الخلافة الإسلامية منذ ظهور الإسلام . أما المــتفرنجون مــن دعــاة القومية العربية ، فهم يستمدون تصورهم من غلاة

القومـــية عند مفكري العرب ، ولا يقيمون وزنًا لقديم العرب الإسلامي الذي حدد شخصيتهم ، ولا يرتبطون بالسمات التاريخية بهذه الشخصية .

كانـــت كلمـــة « العرب » تطلق قبل الإسلام على سكان جزيرة العرب وتتابعت هجرة القبائل العربية إلى الأمصار المفتوحة على اختلاف أسبابها ، مـــنهم من هاجر في سنوات القحط وفي أوقات الجفاف ، فاستقر في موطنه الجديـــد . ومنهم من ذهب مع الجيوش الفاتحة ، ثم لم يعد . ومنهم من هاجر اســـتجابة لدعوة أمراء العرب في هذه الأمصار الذين رأى بعضهم أن يستقدم بطونًـــا مـــن عشيرته يتقوى بهم ، وكان العرب في أول الأمر ، على امتداد الدولة الأموية يترفعون عن الاختلاط بأبناء البلاد المفتوحة ، وكانوا يعتزون بأنســـابهم فـــي قبائلهم . ولذلك حرصوا على حفظها من الاختلاط بغيرهم ، وظـــل اسم « العرب » طوال مدة الدولة الأموية يطلق على المنتسبين إلى هذا الجنس ممن قدموا على الأمصار المفتوحة . وذلك مقابل اسم « الموالي » الذي كـــان يطلقـــه العـــرب علـــى مـــن عداهم من الأجناس في هذه البلاد ترفعًا واســـتعلاء . ولـــم ينـــته القرن الأول الهجري حتى كانت اللغة العربية لغة التخاطـــب والـــتعامل والتدويـــن في هذه البلاد جمعيًا ، وأصبح الإسلام دين الســـواد الأعظـــم من سكانها . وكادت لغات البلاد القديمة تنسى بعد أن أقبل الناس على العربية : (قرآنًا وحديثًا وشعرًا ولغةً) ، يحاولون إتقانها ومنافسة العرب أنفسهم فيها[1] .

---

(١) تاريخ الإسلام والحضارة الغربية د/محمد حسين ، ص ٢٢٥ – ٢٣٠ .

وعلى توالي الأيام زاد امتزاج العرب في الأمصار بأبناء البلاد بالتصاهر ، واختلطت أنسابهم بتوالي الأجيال ، فضعفت العصبية العربية المبينة على النسب تبعًا لذلك[1] .

وزاد على مر الأيام عدد الفقهاء والشعراء والمشتغلين بالعلوم العربية . وبذلك انتهت النعرة العنصرية العربية ، وأصبحت الصبغة الظاهرة في البلاد الإسلامية على اختلافها هي الإسلام . وأصبحت اللغة العربية خطًا شائعًا بين العرب وغير العرب بلا تمييز ، بل أصبح عدد المشتغلين بها أكثر عددًا وأغلب شهرة . مثل : « أبو حنيفة الفقيه ١٥٠ هـ » فارسي ، ومحمد بن إسحاق أول من دون السيرة النبوية « ١٥١هـ »[2] ، وسيبويه أبو النحو « ١٨٣هـ » فارسي ، والبخاري شيخ المحدثين « ٢٥٦هـ » تركي ، والطبري شيخ المؤرخين والمفسرين « ٣١٠هـ » تركي ، وابن سينا أبو الطب العربي « ٤٢٨هـ » أفغاني ، وصلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية « ٥٦٤هـ » كردي . وبذلك صح أن توصف هذه البلاد جميعًا بأنها عربية ومسلمة في آن واحد ، دون أن تغلب فيها إحدى الصفتين على الأخرى .

ويتبين لنا بوضوح أن البلاد العربية كلها ليس لها تاريخ في العروبة يسبق الإسلام ، بل إن عروبتها في الحقيقة تتأخر عن إسلامها ، وهذه العروبة لم تجئها إلا من طريق الإسلام وبسببه . ذلك بأن الإسلام دعا

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ٦ : ٣ .

(٢) الأعلام ، للزركلي جـ٦ ص٢٥٢ ، وكان جده يسار من سبي عين التمر والمطلبي بالولاء .

المسلمين إلى أن يحبوا العرب ، ويلتفوا حول رايتهم ، ويتخذوا العربية لغة جامعة لشملهم .

من أجل ذلك كان التفريق بين العروبة والإسلام في أيامنا هذه لا يستند على أساس . فالإسلام هو الذي أعطى للعرب لغتهم ، ووحدهم عليها وعلى القيم التي تضمنها كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ . ولم يقتصر الأمر على قيام هذه الروابط الإسلامية الجامعة بين العرب ، فقد امتدت آثارها إلى سائر المسلمين ، الذين تأثروا بهذه القيم والنظم الخلقية والاجتماعية ذاتها . والذين إن فاتهم اتخاذ العربية لغة لهم ، فلم يفتهم اتخاذ حروفها لتدوين تراثهم ومعارفهم . نشأت حين الدعوة المعاصرة إلى القومية العربية في أواخر القرن التاسع العشر الميلادي ، أو ما كان يسمى وقت ذاك بالجامعة العربية ، ويعنون بها الرابطة لشمل العرب . كان العرب يشكلون الجزء الأكبر من الدولة العثمانية . واتخذت الدعوة في أول أمرها شكلاً ثقافيًا يعني ببعث التراث العربي ، والدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية ، وجعلها لغة التعليم والقضاء والدواوين في البلاد العربية بدلاً من اللغة التركية التي كانت هي اللغة المستعملة . وكانت كثرة كبيرة من رجال الرعيل الأول في هذه الحركة وفي هذا البعث من مسيحي لبنان . ومنذ ذلك الوقت نشأت التفرقة بين العروبة والإسلام على يد هذه الطائفة ، ولم يعد اسم الجامعة العربية مرادفًا لاسم الجامعة الإسلامية .

والواقع أن الذين دعوا إلى الجامعة العربية كانوا مختلفين في تصورهم لهذه الجامعة ، متباينين في أغراضهم التي يستهدفونها من وراء هذه

الدعوة . كانت الجامعة الإسلامية وقتذاك هي الرابطة التي تربط أجزاء الدولة العثمانـــية . وبدعوة الناس إلى الالتفاف حول رايتها والاعتصام بها في وجه الأطمـــاع الاســـتعمارية التي تنظر بفارغ الصبر الوقت الملائم لاقتسام البلاد الداخلـــة فـــي هذه الدولة إلا أن بعض دعاة الجامعة العربية من المسلمين لا يـــرون تعارضًا بينها وبين الجامعة الإسلامية ، ويسلمون بأنها الجامعة الأهم بيـــن المسلمين في سائر بلاد الأرض . ولكن فريقًا من هؤلاء المسلمين الذين يتمسكون بالجامعة الإسلامية ، كان يرى التفرقة بين الخلافة وبين السلطنة ، بجعـــل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك ، وحجتهم أن العرب هم أقدر الناس على فهم الإسلام وتبليغه .

وكان هناك فريق ثالث من المسلمين واقع تحت تأثير الدعوات القومية المـــتطرفة التـــي اشـــتدت حركـــتها فـــي أوروبـــا في القرن الثامن عشر والتاســـع عشـــر ، وهـــؤلاء كانوا يتصورون الجامعة العربية تصورًا قوميًا خالصًـــا ، ويجردونها من كل صلة بالدين . وكان الشغل الشاغل لهذا الفريق هو إنشاء دولة عربية مستقلة على النمط القومي الغربي . وهذا الفريق يلتقي فـــي تصوره القومي مع غلاة القوميين من الترك ، الذين يدعون إلى القومية « الطورانية » .

أمـــا المسيحيون ، فقد كان من الطبيعي أن يكونوا ضمن الفريق الذي يـــرى الجامعـــة العربـــية قومية خالصة ، لأنه غير داخل بحكم مسيحيته في الجامعـــة الإسلامية ، وليس له ولاء قلبي لها ، فكل الذي يربطه بالدولة هو الـــولاء الوطني . وكان من الطبيعي أن يجد الإستعمار والصهيونية في هذا

الفـــريق الأخير من المسلمين والمسيحيين على السواء صيدًا يمكن أن يلتقي معـــه فـــي فترة مرحلية تمهد لتحقيق أغراضه . فالإستعمار الإنجليزي كان طامعًا في العراق ، وفرنسا كانت تطمع في الشام والصهيونية العالمية كانت طامعـــة فـــي الاســـتيلاء على فلسطين واتخاذها وطنًا قوميًا لليهود ، فكانت الجامعـــة العربـــية أو القومـــية العربـــية تمثل في نظر الفريق فترة مرحلية للإســـتقلال عن الدولة العثمانية . وقد واكبت نشأة الجامعة العربية سوء ظن متبادل بين العربيين والإسلاميين . فالإسلاميون يرون أن هذه الدعوة العربية التـــي نشـــأت فـــي حضانة أمريكية صهيونية والتي تساندها إنجلترا وفرنسا وتمدانهـــا بالمـــال والســـلاح لا يمكـــن أن تخـــدم إلا مطـــامع الإســـتعمار والصهيونية[1] .

وإذا كانت دار الإسلام هي الوطن الأكبر بالنسبة للمسلم ، فإن هذا لا يعنـــي انـــتفاء حـــب المسلم لوطنه الأصغر الذي نشأ فيه . فالجهاد في سبيل الوطن الأصغر فرض عين ، بينما هو فيما وراء ذلك من أقاليم الوطن الأكبر مـــن فروض الكفايات . والأقربون أولى بالمعروف والزكوات والصدقات لا تخـــرج من المدينة أو الإقليم أو الوطن إلا بعد كفاية ساكنيه . وتلك الشواهد على اتساق الأحكام الشرعية والتكاليف الإسلامية مع توالي وتدرج ، وترابط دوائر الانتماء الإسلامي في إطار الإسلام .

إن رسول الله ﷺ هو القدوة والأسوة في هذا المقام ، التي حاصر أهلها دعوة الإسلام ، واستفزوه ﷺ من الأرض إخراجًا ، وهموا ليثبتوه ويسجنوه .

---

(١) الإسلام والحضارة الغربي ، د/محمد حسين ، ص٢٢٥ – ٢٣٠ .

بل ودبروا لقتله . مكة هذه ، وهي على هذا الحال ، ظل القلب النبوي جياشًا بحبها ، حتى لقد ناجاها لحظة الخروج منها يوم الهجرة حدثنا الليث عن عقيل عـــن الزهري عن أبي سلمه عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال : رأيـــت رسول الله ﷺ واقفًا على الحزورة « التل الصغير » فقال : ((**والله إنك لخـــير أرض الله وأحـــب أرض الله وأحـــب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**))[1] .

بـــل وظـــل قلبه ﷺ جياشًا بحب مكة وهو في المدينة ، حتى لقد كان يدعـــو ربه أن يحبب إليه المدينة كحبه لمكة . وكان حريصًا في المدينة على أن يســـمع من القادمين من مكة وصف معالمها والتذكير بمشاهدها . وعندما كانـــت الأوصـــاف تؤجج المشاعر ، كان يطلب من الواصفين التوقف « لتقر القلوب » .

كذلك الحال مع الدائرة التالية « الوطن ، الإقليم » أي « الوطن – الذي يعـــيش فيه قومي » وكلمة « قوم » التي اشتقت منها « القومية » ، هو مصطلح « عربي ، قرآني » . وفي القرآن الكريم حديث عن العرب ، قوم الرسول ﷺ ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾[2] .

فقوم الإنسان هم الدائموا الإقامة معه ، الذين تربطهم به الروابط التي اصـــطلح علـــى تســـميتها « سمات القومية » ، وهي التي تحدد اللغة دائرتها وخريطـــتها . فالقومـــية فـــي الرؤية الإسلامية هي الدائرة اللغوية في إطار

---

(١) سنن الترمذي ، جـ٥ ص٧٢٢ حـ رقم ٣٩٢٥ .

(٢) سورة الزخرف آية : ٤٤ .

الانـــتماء الإسلامي الأكبر ، وعالمية الإسلام لا بد أن تشمل أقوامًا تميزهم اللغـــات والألســـنة قـــال الله تعالى : ﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾[1] . فإذا كان اختلاف اللغـــات سنة وآية من سنن الله وآياته ، فلا بد أن تشمل عالمية الإسلام أقوامًا وقوميات تتمايز لغويًا ، أي قوميًا ، في إطار محيط الانتماء الإسلامي الأول .

وإذا كـــان الغلـــو في العصبية الوطنية هو الذي يجعل « الوطنية » في حالـــة تـــناقض مع ما يليها من دوائر الانتماء القومي والإسلامي ، ومن ثم يخرجها عن أن تكون انتماءًا فرعيًا في إطار الانتماء الأكبر ، ويجعلها نهاية المطـــاف وغايـــة الأفـــق بـــدلاً من أن تكون درجة في سلم الانتماء المتعدد الدرجات ، وهذا اللون من « الوطنية » هو المرفوض إسلاميًا . فإن « القومية » إذا خرجت مضامينها عن دائرة « اللغة » ، وأصبحت عرقًا وعنصرًا ، يعزل القـــوم عن الدائرة الإسلامية ، أو يضعهم في تناقض مع الملة ، فإنها تخرج المفهوم والمضمون عن أن تكون حلقة وصل بين « الوطنية » وبين « الجامعة الإســـلامية » ، وتتحول من درجة في سلم انتماء أكبر إلى « عازل » ونقيض «للوطنـــية » و «للإســـلامية » معًـــا . وهذا المعنى الضيق للقومية مرفوض إسلاميًا .

وفـــي دائـــرة الأمـــة الإسلامية ، ودار الإسلام ، والانتماء الإسلامي «دوائر لغوية » أي «قوميات » ، وإذا نحن نزعنا العنصرية التي تجعل عوامل تشرذم للانتماء الإسلامي ، فإن الانتماء الإسلامي سيحتضن محيطه « الجزر

---

(١) سورة الروم آية : ٢٢ .

القومـــية »فـــي عـــالم الإســـلام . وهـــذه الحقيقة أشد وضوحًا مع « القومية العربـــية » ، لأن اعـــتماد « العربية » – كلغة – معيارًا لتحديد « العربي » و « القوم العرب »سيدخل العروبة في النسيج الإسلامي إدخالاً عضويًا . لأن اللغة العربـــية هـــي فـــي الوقت ذاته لسان الإسلام ، وخاصية الإعجاز القرآني ، وسبيل الاجتهاد واستنباط الأحكام من المصادر الأصلية للإسلام .

وكذلك الحال مع « الدوائر الإسلامية »أو « الجامعة الإسلامية » ، وهي دائـــرة الانتماء الأكبر . فعلينا أن نراها محتضنة ومستوعبة دوائر الانتماء الفرعـــية وطنية وقومية ، بل وأحيانًا قبلية وعشائرية . وأن نرفض التناقض الذي يفتعله البعض بينها وبين الولاءات والانتماء ات الفرعية والصغرى .

إن التشـــديد على الدائرة « الوطنية ، القطرية ، الإقليمية » ،هو مفهوم عنصري ضيق الأفق لمصطلح « الوطنية » . وكذلك الحال التشدد في النظر إلـــى الدائرة « القومية ، عربية أو غير عربية » ، مع إسقاط الدائرة الإسلامية هو الآخر مفهوم عنصري ضيق الأفق لمصطلح « القومية » . طرأ على فكرنا من المفاهيم القومية الغربية . التي تشابه « العصبية الجاهلية الأولى » .

وإذا نحـــن اعـــتمدنا علاقـــة الأخـــص بالخاص والعام بالأعم لدوائر « الوطنية » و « القومية » و « الجامعة الإسلامية »و « الإنسانية » ، انتفت هذه التناقضـــات المفـــتعلة . ذلـــك بـــإحلال منهاج الفطرة السليمة محل المفاهيم العنصرية الطارئة على حياتنا الفكرية العربية الإسلامية .

ولقد كانت اليقظة الإسلامية المعاصرة على وعي بالمنهاج الإسلامي في هذا الموضوع ، فصاغت الموقف الفكري الإسلامي الخاص به ، ومارست عملها دونما اعتبار للعصبيات والتشرذم الإقليمي والعنصرية القومية ووفقًا للشريعة الإسلامية . فالإسلام هو الرابط فحسب والإسلام اعتبر الحق لدار الإسلام من منطلق المصلحة لا القومية ولا الوطنية .

صاغ الشيخ حسن البنا رحمه الله قضية الانتماء على النحو الذي لا زيادة بعده لمستزيد ، ومما قاله فيها : (إن المسلمين يحبون وطنهم ويحرصون على وحدته ، ولا يجدون غضاضة على أي إنسان أن يخلص لبلده المسلم ، وأن يعنى في سبيل قومه ، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وفخار . وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا .

فالوطنية لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام . أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة ، وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية . ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيًا ، ووصل إلى الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين . وقد جاء في الأثر : إذا ذل العرب ذل الإسلام . وقد تحقق هذا المعنى حين ذل سلطان العرب السياسي ، وانتقل الأمر من بين أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه)[1] .

---

(١) مجموعة رسائل الشيخ حسن البنا ، ص ١٧٦ – ١٧٨ .

أمـــا عـــن حديـــث العروبيـــن الذين يجردون العروبة من الإسلام ، والإســـلاميون اللذيـــن يسيئون الظن بالعروبة والقومية العربية ، بدعوى أنها تفتـــت الوحدة الإسلامية . نقول للفئتين إن الانحراف الذي صحب الدعوة إلى جامعـــة إســـلامية في ظل دولة إسلامية جامعة للشمل قد دفنت بالأمس . أما الـــيوم إذا صـــحت مســـيرتها ،فالخطوة الأولى ، إلى تحقيق هذه الجامعة الإســـلامية هي الجامعة العربية . فالعرب هم أقرب الناس بين المسلمين إلى تحقـــيق وحـــدة جامعـــة بحكم اللغة المشتركة التي تربط بعضهم ببعض من ناحـــية ، والتـــي تربطهم بأصول الدين الإسلامي من ناحية أخرى . وبحكم تجمـــع دولهـــم وتلاصـــقها فـــي حيز مكان واحد لا تقوم بين أجزائه عوائق أو فواصل طبيعية . وهم بحكم هذا التقارب والتآلف واتفاق العادات أو تقاربها مهيـــئون لأن يكونوا نواة إسلامية صلبة تشيع على العالم الإسلامي من ثقافة الإسلام . وتحمل من أعباء الإرشاد والتوعية والرعاية ما تعجز الدول العربية متفرقة عن النهوض به .

فالجامعـــة العربية هي نقطة البدء التي لا بديل منها في هذه المسيرة الطويلة نحو جامعة إسلامية لا سبيل إليها الآن ، مع انشغال كل بلد من بلاد المســـلمين بمشكلاته الخاصة ، وانعدام وسائل التواصل بينها باختلاف لغاتها وبـــبعد شـــعوبها . فـــالوحدة المهيأة أسبابها الآن هي وحدة البلاد العربية . أمـــا الـــبلاد الإسلامية الأخرى أن تسبق وحدتها خطوات أخرى ، أولها نشر اللغة العربية التي لا تتم جامعة بغيرها . إن مقاومة الأخطاء في إدراك حدود العـــروبة ومقوماتهـــا بالهرب عنها وبمهاجمة العروبة ذاتها . والحزم في أن

تواجه هذه الأخطاء بتصحيحها وبيان زيفها . وسوف تكون العروبة الإسلامية عند ذاك محط آمال المسلمين جميعًا ، ومهوى قلوبهم .

وانتهت الحرب العالمية الأولى ، ووزع المشرق العربي ، والمغرب العربي بين إنجلترا وفرنسا ، وكانت ليبيا محتلة بالجيوش الإيطالية . عند ذلك بدأ الإسلاميون يعيدون التفكير في الموقف الذي آل إليه أمر المسلمين والعرب ، ورأوا أن البديل الوحيد من الجامعة الإسلامية هو « الجامعة العربية » . أما دعاة الجامعة العربية ، فقد انقسموا شيعًا فالإسلاميون منهم ظلوا ثابتين على دعوتهم ، وغلاة القوميين من المتأثرين بالقوميين الغربيين ظلوا على ما كانوا عليه من الدعوة إلى جامعة عربية مجردة من الإسلام ، والبعض منهم ممن تولى المناصب في ظل التقسيم الجديد الخاضع للاستعمار ركنوا إلى الدعة وسكنوا إلى النظم التي يعيشون في ظلها .

العروبة بطبيعتها وبحكم نشأتها ونموها وازدهارها هي عروبة إسلامية . وقد ساهم في تطورها الحضاري على مدى القرون والأجيال عناصر عربية غير مسلمة . ولكن مساهمتها ظلت في داخل الإطار الإسلامي الذي لم يكن يسمح لأحد بالخروج عليه . ولم تجد هذه العناصر العربية من غير المسلمين غضاضة في أن تساهم في بناء هذه الحضارة في الحدود الإسلامية ، لأن هذه الحدود لم تكن تتعارض مع عقائدهم ، والحريات مكفولة لهم على السواء .

الشخصية العربية هي شخصية عريقة تضرب عروقها في أعماق التاريخ ، وقد ارتبطت بالإسلام ونمت ليس على إطلاقه فإن الشخصية العربية

موجودة قبل الإسلام وفي الجاهلية ونشأتها سابقة للإسلام وتطورت ونضجت في داخل إطاره . دون أن يكون في ذلك تعارض مع أصول الأديان السماوية الأخـــرى التـــي نبعت من المنطقة ذاتها . فالإسلام هو الذي أعطى العروبة شـــكلها الثابـــت المحدد التي يلتقي عندها كل العرب . أما غلاة القوميين من المســـلمين مـــع فـــريق من المسيحيين في الدعوة إلى القومية لا دينية ، فهم واقعـــون تحت تأثير ما توهموه من أن النهضة الأوروبية الحديثة كانت ثمرة لـــتجريد الحكم من الصفة الدينية . فإذا جردةً من هذه القيم الدينية المسلم بها عند العرب ، فما هي المقومات التي تحل محلها عند العرب . فالماديون منهم سينزعون إلى الماركسية ، وسيشتركون مع الليبراليين في السخرية من القيم الدينية ، فيقع الصراع بينهم وبين المتدينين .

فالمســـيحيون الذيـــن يخافون على أمنتهم وسلامتهم وحريتهم في ظل عـــروبة إســـلامية هم أكثر خوفًا وأبعد عن الأمن في عروبة لا دينية . لأن الإســـلام وحده هو الضامن لمنع انحراف المسلمين إلى عصبية جهولة عمياء تحطـــم وتعـــتدي وتظلـــم . وأن قـــوام الديمقراطية التي يتغنى بها أهل هذا العصـــر ، هـــو نزول القلة على حكم الكثرة . فلماذا تجد القلة غير المسلمة غضاضة في إقرار الكثرة المسلمة على بناء حياتهم في ظل الإسلام ، وعلى هدى منه[1] .

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ، د/محمد حسين ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .

الدولة

تعـرف الدولـة مـن أنها مجموعة دائمة من الأفراد ، يملكون إقليمًا معيـنًا ، وتضـم سـلطة منظمة بهدف تمكين الجماعات والأفراد من التمتع بحقوقهم وبالشخصية المعنوية والنظام والإستقلال . والدولة هي الشخص الذي يمـثل أمة تقطن أرضًا معينة ، والذي بيده السلطة العامة « السيادة » . وهناك تعريف أوضح من أن الدولة عبارة عن ذلك الشخص المعنوي الذي يرمز إلى مجموعـة شعب مستقر على إقليم معين حكامًا ومحكومين . بحيث يكون لهذا الشخص سلطة سياسية مجردة ذات «سيادة » . ولوجود الدولة يتعين أن يكون المجـتمع السياسـي قد وصل في تطوره إلى الحد الذي يسمح بتحقيق أمرين أساسيين :

أولهما : أن يكون الاستقرار قد عمق الشعور بالتضامن بين أفراد هذه المجموعـة البشرية بحيث يتم انصهارهم في وحدة بشرية لها ذاتيتها المتميزة عن غيرها من الوحدات الأخرى المجاورة .

ثانـيهما : أن يتطور التنظيم السياسي والاجتماعي للمجموعة البشرية بحيث يقترب قدر الإمكان من الحد الذي يسمح بوجود نظام شبه دائم ومستمر لظاهرة السلطة السياسية .

ووفقًـا للمفهوم السابق فإن الدولة ليست إلا جماعة بشرية تكاملت لها خاصـيتان رئيسـيتان : «رابطـة قويـة للتضامن ، وتنظيم سياسي قانوني

مـــتكامل » . كمـــا أن مجـــرد وجود المجتمع السياسي بما يعنيه على توافر عناصر « الأفراد ، والإقليم ، والسلطة » لا يفيد وجود الدولة ، لأنه لا بد من توافر شرط الإستقلال أو ما يعرف بسيادة الدولة . فإذا كانت الدولة كما ورد فـــي بعض التعريفات السابقة : عبارة عن ذلك الشخص المعنوي الذي يرمز إلـــى مجموعة شعب مستقر على إقليم معين حكامًا ومحكومين ، بحيث يكون لهـــذا الشخص المعنوي سلطة سياسية ذات سيادة ، فإنه يكون للدولة الأركان الأساسية الآتية :

أولاً : الشعب :

وجـــود السكان أو الشعب هو الشرط الأساسي لوجود الدولة . وليس مـــن الضـــروري أن يكون شعب الدولة من عدد معين ، فقد يقل العدد حتى يكـــون بضـــعة آلاف ، وقـــد يـــزيد فيتجاوز مئات الملايين . وأنه ليس من الضـــروري أن يـــتكلم شعب الدولة لغة واحدة أو ينتسب إلى قومية واحدة . حيث قد تتباين الأجناس والقوميات التي ينحدر منها شعب الدولة الواحدة .

وفي تعريف الأمة أنها جماعة بشرية لا تقوم فقط على أساس التركيب « البيولوجـــي » الذي يرتبط بالميلاد والدم والأصل البشري . ولكنها بالإضافة إلـــى ذلك تركيب أخلاقي اجتماعي ، يرتبط بنمط حياتي معين ، وبمجموعة مشتركة من الأحاسيس النابعة من وحدة الأصل ووحدة البيئة ووحدة التاريخ . وهي تختلف في ذلك عن الدولة في أن الأخيرة هي مجرد وحدة قانونية يكون

لها سلطة سياسية ذات سيادة . أي أن الدولة ليست إلا تنظيم سياسي ، وليست كل أمة دولة .

كمـــا يظهر الاختلاف بين الدولة والأمة في أن الأمة قد تسبق وجود الدولـــة ، وذلك إذا انقسمت الأمة الواحدة بين عديد من الدول . بمعنى أنه قد توجد أمة واحدة ، ولكن مع ذلك نجدها موزعة بين دول مختلفة . ومثال على ذلك « الأمة العربية » التي تكونت منها دول كثيرة .

ثانيًا : الإقليم :

يعتـــبر الإقليم شرط وجود الدولة باعتبار أن الدولة هي الأساس وهي مجموعـــة من الأفراد تعيش معًا عيشة مستقرة ودائمة ، وهو ما لا يمكن أن يـــتحقق بغـــير الإقليم والأرض . كما أن الإقليم هو ركن أساسي من أركان ممارســـة الدولـــة لســـيادتها . فالســـيادة تبنى على قيام الدولة بإخضاع كل الأشـــخاص والأشياء الموجودة داخل إقليمها لسيادتها ، وبدون عنصر الإقليم تصـــبح ممارسة السيادة أمرًا غير ممكن . ومن هنا ، فإن زوال إقليم الدولة يؤدي إلى انقضاء شخصيتها الدولية ، ولكن زيادة الإقليم أو نقصانه لا يؤدي إلـــى ذات النتـــيجة . وإذا كانـــت الـــدول تختلف عن بعضها من ناحية عدد الســـكان ، فإنها تختلف أيضًا من ناحية مساحة إقليمها حيث يكبر أو يقل من دولة إلى أخرى .

ويلاحـــظ أنه لا يقصد بإقليم الدولة الإقليم الأرضي أي سطح الأرض بمعنى اليابسة فقط . وإنما يقصد بذلك سطح الأرض وما تحته من أعماق وما

فوقه من الطبقات الجوية التي تعلو اليابسة . وكذلك البحر الإقليمي أي المياه الساحلية من البحر الملاصقة لشواطئ الدولة ، وما يعلو هذا البحر الإقليمي من طبقات جوية ، وعلى ذلك فإقليم الدولة يشمل : « إقليم أرضي ، وإقليم مائي ، وإقليم جوي » وتتلخص في التالي :

أ- الإقليم الأرضي :

يتحدد بمساحة معينة من الأرض تحدها حدود معينة قد تكون طبيعية مثل الجبال ، أو الأنهار ، أو البحار ، كما قد تكون حدودًا صناعية . وفي حالات أخرى يكتفي بخطوط وهمية كحد فاصل بين دولة وأخرى . ويشمل الإقليم الأرضي للدولة تحت السطح من طبقات لا نهاية لعمقها بكل ما تشتمل عليه هذه الطبقات من شتى مصادر الثروات كالبترول والمعادن والفحم .

ب- الإقليم المائي :

ويشتمل جميع الأنهار والبحيرات الداخلة في حدوده ، وإذا كان النهر يجري في إقليم أكثر من دولة فإن كل دولة تعتبر مالكة لهذا الجزء من النهر الذي يمر بإقليمها . أما مياه الأنهار المشتركة فإن كل استغلالها وتوزيعها بموجب معاهدات تعقد بين الدول التي تملك هذه الأنهار . كما تمتد ملكية الدولة إلى جزء من البحار العامة الملاصقة لأراضيها ، ويسمى بالبحار الإقليمية . وكانت محدودة في القانون الدولي بثلاثة أميال بحرية تبدأ من شاطئ الدولة ، ثم رفعتها بعض الدول إلى اثني عشر ميلاً .

جـ- الإقليم الجوي :

تمتد ملكية الدولة لإقليمها إلى طبقات الهواء الواقعة فوق هذا السطح وسيادة الدولة تمتد إلى ارتفاع معين من جو إقليمها . وما كان أعلى من هذا القدر المعين من الجو يعتبر حرًا لجميع الدول ، ويطلق عليه « الفضاء الخارجي » .

ومما سبق يمكن القول بأن لإقليم الدولة أهمية فيما يتعلق بممارسة سلطة الدولة في تحديد النطاق الإقليمي الذي يمكن للدولة أن تحدد شعبها وأن تحصر رعاياها الذين يعيشون على أرضها . كما أنها أحد الركائز الأساسية لاستقلال سلطة الدولة ، وهو اختصاص الدولة التشريعي والإداري والقضائي بالنسبة للوطنيين والأجانب والحكومات الأخرى . ووفقًا لمبادئ القانون الدولي العام القائم على تعدد الدول المستقلة ، فإنه لا يجوز لإحدى الدول أن تتدخل في الشئون والأحداث التي تقع في إقليم دول أخرى ، و إلا اعتبر ذلك بمثابة انتهاك لسيادتها واعتداء على استقلالها .

ثالثًا : الحكومة :

لا يمكن أن تقوم دولة على أساس وجود مجموعة من الأفراد وإقليم محدد فقط ، بل يلزم وجود سلطة سياسية عامة يخضع لها جميع الأفراد الذين يكونون الجماعة « الشعب » . وتقوم هذه الحكومة بالوظائف التي تلزم لإدارة شئون الإقليم واستغلال موارده وحماية شعبه من أي اعتداء خارجي يهدد أمنهم واستقرارهم . ويستلزم هذا أن يكون احتكار أدوات القمع أو القوة في يد

الحكومـــة حـــتى تـــتأكد لها السلطة العليا التي لا تنازع . والتي بدونها تقف عاجزة عن فرض الاحترام الواجب لما يصدر عنها من تشريعات وقرارات ، وإلزام الأفراد بطاعتها وتنفيذها على النحو الواجب[1] .

---

(١) علم السياسة ، د/محمد نصر مهنا ، ص٢٧١ – ٢٧٩ . القانون الدستوري والأنظمة السياسية ، د/عبد الحميد متولي ، ص٣٨ – ٤٧ . علم الاجتماع السياسي ، ص١٩ و ٤٧ .

نشأة الدولة

تعـددت محـاولات تفسـير أصل الدولة وكيف نشأت ، وأخذت هذه المحـاولات اتجاهات مختلفة . وكان من أهمها « التطور العائلي » الذي يقوم على أساس أن العائلة هي أصل المجتمع . أو بمعنى آخر أن الدولة كانت في أصـلها أسرة تطورت باجتماع وارتباط أكثر من عائلة معًا فتكونت عشيرة . ثم تطورت العشيرة بدورها وتكونت القبيلة ثم المدينة حتى وصل التطور إلى الدولـة بشـكلها الحاضـر . وقـد تـؤدي هذه الفكرة إلى أن روح الانتماء والتضـامن التـي تجمع بين أفراد الدولة الواحدة تشبه من وجوه عديدة روح الولاء والارتباط في الأسرة ، وتشبه أيضًا إلى حد ما سلطة حاكم الدولة التي تشبه سلطة العائلة[1] .

وكـان هناك بعض التحفظ في قيام الدولة كتنظيم سياسي إلى الأسرة وإرجاع أساس السلطة العامة في الدولة إلى سلطة رب الأسرة . فسلطة رب الأسـرة لهـا صفة شخصية مرتبطة بشخص رب الأسرة ذاته تزول بزواله أو باسـتقلال أفراد الأسرة عنه . أما السلطة السياسية في الدولة فإنها سلطة مجردة دائمة ومنفصلة عن أشخاص من يمارسونها .

وأنه حتى وإن بدت نظرية التطور العائلي سليمة في بعض جوانبها ، إلا أنها ليست وحدها المصدر التاريخي لنظام الدولة . فالتطور الإنساني بكل

---

(١) علـم السياسـة ، د/محمـد نصـر مهنا ، ص٢٧١ – ٢٧٩ . القانون الدستوري والأنظمة السياسية ، د/عبد الحميد متولي ،ص٣٨ – ٤٧ . علم الاجتماع السياسي ، ص١٩ و ٤٧ .

ما تفاعل فيه من فكر ، وما تحكم فيه من مؤثرات دينية وسياسية واقتصادية ، قد شارك جدية في تطور نظام الدولة[1] .

ووفقًا لذلك فإن الدولة تقوم بتنظيم أحوال الجماعة ، وتحقيق الخير لهم ، وعلى ذلك يجب أن يكون للدولة محلاً للإعزاز والاحترام . ومن ناحية أخرى ، فإن بقاء الدولة واستمرارها يستلزم وجود سلطة تقوم بإدارة وتنظيم وحكم الجماعة ، وأن على الأفراد أن يخضعوا تمامًا للدولة والسلطة الحاكمة فيها حتى لا يتعارض ذلك مع مكانة الدولة وسلطانها .

ونتيجة للتطور التاريخي في نظرية نشأة الدولة من أنها نتيجة تفاعل عوامل متعددة أسهمت بعد تطور طويل على مر العصور في إحداث التقارب وإيجاد الترابط بين أفراد الجماعات البشرية . ونظرًا لأن هذه العوامل كثيرة وتتفاوت من جماعة إلى أخرى مثل : « العوامل الدينية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية » . لذا فإنه لا يمكن أن تكون نتيجة التفاعل الذي يحدث بينها واحدة في كل الحالات . لأنه من الطبيعي أن تختلف الدول عن بعضها نتيجة اختلاف العوامل التي تفاعلت ونشأت عنها الدولة . ولذلك فإنه لا غرابة في أن نجد أشكالاً مختلفة للدول وأنظمة الحكم . كما يغدو من الطبيعي أن النظام السياسي الذي يصلح لدولة من الدول قد لا يكون كذلك بالنسبة لدولة أخرى . وقد برز الاتجاه الذي يقول أنه إلى جانب الدين ورابطة الدم ، فإنه يجب اعتبار الوعي السياسي من العوامل التي أسهمت في نشأة الدولة . ويعتمد المنطق الذي يبني عليه هذا الاتجاه ، على أن الفرد

---

(١) المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية ، د/فوزي أبو ذياب ، ص٦٨ – ٧٠ .

يســـعى إلى إشباع حاجات أساسية لذاته . ومن أهم هذه الحاجات التي تحاول إشباعها الأمن والحماية ضد أي خطر أجنبي ، وأيضًا إشباع حاجات وأهداف مادية ومعنوية ، اجتماعية وثقافية ، وكل هذه الأهداف لا يمكن تحقيقها إلا في ظل الدولة . وكلما زاد حجم الجماعة كلما ظهرت الحاجة إلى تنظيم العلاقات بيـــن الأفراد على شكل قواعد ملزمة . وأصبح لزامًا على مجتمع الدولة أن يلجـــأ إلـــى استحداث قواعد قانونية وضعية تعتمد على تفهم الأفراد ووعيهم بطبيعة العلاقات فيما بينهم[1] .

ووفقًا للقانون الدولي تنشأ الدولة باكتمال العناصر المكونة لها من إقليم ورعايا وحكومة ، واعتراف بقية المجتمع الدولي بهذه الدولة الجديدة ، وتنشأ على إحدى الصور الآتية :

١- قـــد تنشأ الدولة من عناصر جديدة باستقرار مجموعة من السكان فوق إقليم غير مأهول ، أو إقليم كان مسكون بشعب قليل .

٢- قـــد تنشأ الدولة الجديدة من عناصر قديمة نتيجة تفكك أو انحلال بعض الدول القائمة .

٣- قـــد تنشأ الدولة الجديدة عن طريق انضمام عدة دول إلى بعضها على شكل دولة واحدة .

---

(١) قضايا نظرية في السياسة المقارنة ، د/عبدالغفار رشاد ، ص٣٩ – ٤٢ .

وإذا توفرت أركان قيام الدولة من : « إقليم ، وشعب ، وحكومة » فإنه يـــبقى لكي تنشأ الدولة أن تسلم الدول القائمة بوجودها وتقبل معاملتها ، وهذا هو ما يسمى في القانون الدولي : «بالاعتراف » .

وفـــي مفهوم سيادة الدولة فإنها في حقيقتها لا تعدو أن تكون نوعًا من التنظـــيم السياســـي والقانون للجماعة البشرية ، وهي التي تتولى أمنها وأمن المقيميـــن عليها ، ومن ثم فهي تحتكر كل أدوات القوة من أدوات القمع مما يمنحها قوة مادية على جانب كبير من الأهمية تضمن قراراتها وأوامرها تنفيذاً جـــبريًا . لذا فإن سيادة الدولة هي تعبير عما تملكه من سلطات عليا . أو كما يقال فإن السيادة هي السلطة المطلقة غير المحدودة التي تمارسها الدولة على رعاياهـــا ، وعلى جميع المنظمات التي يكونها الرعايا داخل الدولة . ويمكن تلخيص الخصائص المختلفة للسيادة فيما يلي :

١ – السيادة المطلقة :

وهي أعلى صفات الدولة ، وإطلاق سيادة الدولة يعني أن لا يكون في داخـــل الدولـــة ولا في خارجها هيئة سلطتها أعلى من سلطة الدولة ، فللدولة سلطة على جميع المواطنين ، والصفات الأخرى للسيادة كلها مستمدة من هذه الصفة الرئيسية .

٢ – السيادة الشاملة :

ومعـــنى شـــمول السيادة أنها تطبق على جميع المواطنين في الدولة ، والاســـتثناء الوحيد من ذلك هو ما يتمتع به الدبلوماسيون الأجانب المعتمدون

فـــي الدولـــة من حصانات وامتيازات دبلوماسية . والأصل في الاستثناء من ســـيادة الدولـــة بالنسبة للدبلوماسين : « أن دار السفارة تعتبر تابعة أو امتداد لإقليم الدولة التي تمثلها ، وموظفوها يخضعون لسيادة دولتهم » .

٣- السيادة غير قابلة للتجزئة :

فالســـيادة لا يمكـــن تجزئتها ، والدولة الواحدة لا توجد فيها إلا سيادة واحدة .

وبمعيار السيادة والدول ناقصة السيادة تتلخص خصائصها في التالي :

أولاً : الدولة الكاملة السيادة :

التي تتمتع بكل مظاهر سيادتها الداخلية والخارجية ، بحيث لا تخضع في إدارة شئونها في الداخل والخارج لرقابة أو تبعية .

ثانيًا : الدولة ناقصة السيادة :

هـــي التـــي لا يكون لها مطلق الحرية في ممارسة سيادتها الخارجية أو الداخلـــية لارتـــباطها بدولة أخرى ، أو لخضوعها للأمم المتحدة . وتنقسم الدول ناقصة السيادة إلى ثلاث فئات كالتالي :

أ- الدولة المحمية :

وهي الدولة التي تضع نفسها تحت سلطة دولة أخرى أقوى منها .

فالحمايـــة نوعـــان : الحماية الاختيارية ، والحماية القهرية أي الاستعمارية . وفـــي كلـــتا الحالتيـــن تفقـــد الدولـــة المحمية سيادتها في المجالين الخارجي والداخلي . إذ تتولى الدولة الحامية التمثيل الدبلوماسي لها ، وإبرام المعاهدات والاتفاقات الدولية . وبالنسبة للدفاع عن أمن الدولة المحمية فإن الذي ينهض بـــه هي الدولة الحامية التي لها أيضًا أن تحدد معالم الحكم الداخلي بما يتلاءم والإطار الذي يخدم مصالحها من وراء توليها هذه الحماية . وغالبًا ما تنتهي الحمايـــة إمـــا باســـتقلال الدولـــة المحمية ، أو بضمها إلى الدول الحامية ، أو بوضعها تحت سلطة المنظمة الدولية .

ب- الدولة التابعة :

كـــل دولـــة تخضع لدولة أخرى تسمى « الدولة التابعة » ، وغالبًا يتم حـــرمان الدولة التابعة من ممارسة سيادتها الخارجية مع احتفاظها بجزء من ســـيادتها الداخلـــية . والعلاقات بين التابع والمتبوع لا تخضع لقواعد قانونية ثابتة ، بل تختلف الظروف والملابسات التي أدت إلى قيام التبعية .

جـــ- الدولة المشمولة بنظام الانتداب :

هـــو أن الدولـــة تحـــت الانـــتداب ، تفقد شخصيتها الدولية وسيادتها الخارجـــية كلها . وهي وإن كانت تحتفظ بكيانها فلا يجري عليها حكم الضم للدولـــة المنـــتدبة . ولنظام الانتداب هدفان : أولهما « مثالي » ، وهو مساعدة الشعوب الواقعة تحت الانتداب حتى تصبح أهلاً للاستقلال ، وثانيهما «مادي » وهـــو إرضـــاء الأطمـــاع الاســـتعمارية للدولة التي انتصرت في الحروب العالمية .

د- الدولة المشمولة بنظام الوصاية :

ونظام الوصاية كنظام الانتداب ينقص من سيادة الدولة . فالدولة تحت الوصـــاية لا تملك سلطة تصريف شئونها الداخلية بإرادتها المنفردة . كما لا تـــنفرد بوضـــع نظامها الدستوري ، ولكنها تملك ذلك تحت إشراف المنظمة الدولية[1] .

---

(١) علـــم السياسة ، د/محمد نصر مهنا ، ص٢٨٨ – ٣٠٠ . النظم السياسية ، د/ثروت بدوي ، ص٢٣٠. الحريات العامة ، د/عبد الحميد متولي ، ص٨٣ .

قوة الدولة

هـــناك مقومـــات لقياس القوة للدولة كبناء تكامل ، وذلك وفقًا لمعايير تحـــدد مـــدى قـــوة تلـــك الدولة . والقوة تعني قوة أو ضعف دولة ما ضمن المقاييس المقررة لهذا الوصف . وبمعنى آخر مدى الاعتمادات أو المقدرات أو الموارد المتاحة التي يمكن أن تستخدمها الدولة لتحقيق مصالحها وأهدافها الوطنـــية . والقـــوة بذاتهـــا يمكن أن تكون قوة رادعة تمنع الاعتداء عليها ، وتصبح مهابة ويصعب الدخول معها في نزاع أو تهديد لها . ولذا فيكون لهذه الدولـــة المتمتعة بمقومات القوة تأثير إستراتيجي في البيئة الإقليمية والدولية وأن هذه العناصر مجتمعة تعتبر أعمدة التصنيف للقوة تتلخص في التالي :

١- القوة البشرية :

أي عـــدد الســـكان لتلك الدولة ، والبناء الاجتماعي لهم ، وهل هؤلاء السكان متعلمون يستطيعون بعلمهم خدمة المصالح الوطنية .

٢- العنصر المكاني الجغرافي :

ويعنـــي أيـــن تقـــع هذه الدولة هل هي دولة داخلية ولو كانت واسعة الأرجاء أم هي دولة ذات صبغة إستراتيجية تقع على مفاصل هامة من العالم حـــتى ولو صغرت مساحتها . ثم مناخ هذه الدولة هل هو في المناطق الحارة الذي قد يؤثر على الأداء البشري أم في المناطق المتجمدة بالبرودة حيث يؤثر أيضًـــا على أداء البشر ويحد من نشاطهم ، ولذا تبرز أهمية المناخ المعتدل .

ثم أن المساحة الواسعة للدولة يعطيها بعدًا إستراتيجيًا فإذا كانت الدولة واسعة الأرجاء حتى لو سقط جزء منها فستبقى تقاوم بينما لو كانت مساحتها صغيرة فيسهل قضمها أو ابتلاعها .

٣- العنصر الاقتصادي :

وهذا يعني ما هي مقومات الدولة الاقتصادية وما هي ثرواتها الطبيعية من معادن وطاقة وثروات زراعية ، وتمتعها بميزان تجاري وبقوة شرائية .

٤- العنصر التاريخي :

وهـــذا يعنـــي هل الدولة ومجتمعها يتمتعون بتاريخ مجيد لها عراقتها وحضـــارتها وسجلها الزمني الموغل في القدم مثل « الأمة العربية » . ثم هل يتمـــتع هذا الشعب بمعنويات عالية واعتزاز بالذات الحضارية والنفسية . ثم هل هذا المجتمع مترابط لا تفرقه أهداف ومتجانس ، وهل هناك أعراف تنظم حياتهم وأهدافهم .

٥- العنصر التنظيمي الإداري :

وهذا يعني نظام الدولة والحكم .

٦- العنصر العسكري :

وهذا يعني القوات المسلحة للدولة ما هي طبيعة هذه القوات وحجمها والوسائل المستخدمة معها ومستوى تدريبها[١] .

---

(١) مدخل إلى الثقافة والتربية والوطنية ، محمد عليان عليمات ، ص٢٥ – ٢٧ .

إن المقصـــود بكـــل مـــن القـــوة والقدرة في نظرية العلاقات الدولية باعتـــبارها علاقـــات « قوى »والقوة في المجال الدولي هي بالدرجة الأولى علاقات اجتماعية ، ولا تعني في الواقع أكثر من علاقات الدول بما أوتيت من قـــوى . ومـــن ثم علاقات ما بين إرادات تستهدف بقدرتها غايات اجتماعية أو غايات تتمثل في تحقيق المصلحة القومية .

وتحلـــيل القـــوة القومية في العلاقات الدولية يجب أن تظل بمنأى من الـــتعرض لطبيعتها الأخلاقية ، وما إذا كانت تستخدم في الخير أم في الشر . وكذلـــك يجـــب التمييز بين الكيفية التي تجرى بها ممارسة القوى القومية من جانب ، وبين استخدام العنف كظاهرة من مظاهر الممارسة من جانب آخر . فـــالقوة القومـــية عناصرها كثيرة وأساليب استخدامها متنوعة ، وبالتالي فإن الالتجاء إلى العنف ليس إلا واحدًا فقط من هذه الأساليب . وتأسيسًا على ذلك يجـــب عدم الخلط بين القوة القومية والعنف واعتبارها مترادفين ، فأحيانًا لا يكون استخدام العنف هو أنجح أساليب ممارسة القوة القومية . حيث أن القوة القومـــية بطبيعتها متغيرة أي أن التغيير في العناصر التي تصنعها لا بد وأن يتبعه تغيرات متشابهة في حجم هذه القوة وفعاليتها . وقد يتبادر إلى الذهن أن الدول ذات الرقعة الجغرافية الممتدة هي الدول القوية ، وكذلك الحال بالنسبة للكـــثافة الســـكانية أو الـــثراء أو التقدم الصناعي أو ضخامة الجيش . ولكن التركيز على أي من هذه العوامل بمفرده لا يوضح القوة الحقيقية للدولة .

وبالتالي فإنه يمكن تعريف القوة القومية بأنها المقدرة على التأثير في سلوك الدول الأخرى بالكيفية التي تخدم أغراض الدول الممتلكة لها . وبدون هذا فقد تكون الدولة كبيرة أو غنية ولكنها ليست قوية . كما أن الجانب الأكبر من قوة الدولة لا يعتمد فقط على قدرتها على التأثير في سلوك الدول الأخرى ، ولكنه يرتبط كذلك بكيفية تقييم الدولة لهذه القوة وأيضًا بتقييم الدول الأخرى لها . وكذلك فإنه هناك اعتبارًا آخر وهو أن توقع أي زيادة مقبلة في قوة الدولة قد يكون من العوامل المساعدة على قدم القوة الحالية لهذه الدولة .

هناك بعض التحليلات التي تحاول إيجاد حقيقة نظرية تصورها لعوامل قوة الدولة في المجال الدولي . لقد دأب الباحثون في المجال الدولي في قوائم تختلف في العدد والتسميات في ضوء معايير معينة لاقتراح صيغة نظرية . وهناك العوامل التي قد تشكل قوة الدولة ومكانها من سلم القوى في المجال الدولي ، وتتضمن ثمانية عوامل هي : « الجغرافية ، الموارد الطبيعية ، المقدرة على الصناعة ، الاستعداد الحربي ، السكان ، الخصائص القومية ، المعنويات القومية ، المهارة الدبلوماسية » . والبعض يرد قوة الدولة إلى مجموعة عوامل هي : « الجغرافية ، الأوضاع السكانية ، القوى الاقتصادية ، العوامل المالية ، الشعور القومي ، ودور رجال الدولة في تشكيل سياستها الخارجية » .

وباســتقراء التاريخ نلاحظ أن عوامل القوة ليست ثابتة زمانًا ومكانًا ، فواقع الحياة الدولية يؤكد أن عوامل القوة تختلف من عصر إلى عصر . ومن ذلــك أن أســباب القوة في زمن السلم ليست هي نفس أسباب القوة في زمن الحــرب بــل إن نفــس العــامل قد تتفاوت أهميته من عصر إلى عصر . وقــد أثــارت مســألة هدف عمل الدولة في المجال الدولي اتجاهين : اتجاهًا إنســانيًا يرتبط بفكرة الخير « خير الجماعة الدولية – خير البشرية » واتجاهًا ماديًا بفكرة القوة المادية والذي ينتهي إليها « مفهوم المصلحة القومية » .

فقوة الدولة لا تعتبر ذات طبيعة مطلقة ، فقد تكون ذات تأثير معين في وقــت ما ، ولكنها في وقت آخر وفي ظل علاقات قوى مختلفة قد تؤثر على نحــو مخــتلف ســواء بالزيادة أو النقص . ونظرية أن بعض مكونات القوة القومــية تتمــتع بطبيعة دائمة لا ينصرف إليها التغيير . وهذه النظرية غير واقعية مع التطورات التكنولوجية التي تجعل من فكرة وجود عوامل ثابتة في قــوة الدولة أمر غير عملي . ويجب عدم التركيز على عامل مفرد في عملية التقييم بل الأخذ بعين الاعتبار كل العناصر التي تؤثر في قوة الدولة[1] .

---

(١) علم السياسة ، د/محمد نصر مهنا ، ص٤٦٥ – ٤٧٤ .

الفصل الثالث

- المملكة العربية السعودية .

- جذورها ..... نشأتها .

- الأمن ..... وإرساء قواعد الحكم .

- تنظيم جهاز الدولة .

الدولة الإسلامية النموذج ..... الحي

هـــي مهـــبط الوحـــي وحاملة الرسالة وحماة أشرف البقاع على وجه البسيطة بيت الله الحرام ومثوى رسوله ﷺ خير الأنام . هذه الدولة التي قامت علـــى أساس ديني ولم تقم على عصبية قبلية وعلى حمية . جديرة بأن تذكر نشـــأتها وجـــذور حكمها على مبادئ الدين الإسلامي الحنيف وعلى المبادئ والمـــثل الـــذي تركنا عليها الرسول ﷺ حيث يقول : ((**تركتم على المحجة البيضـــاء لـــيلها كنهارها ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**))[1] . ويقول ﷺ : ((**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه**))[2] .

وهـــا نحـــن الـــيوم نـــنعم بهذه النعمة العظيمة نعمة تطبيق الشريعة الإســـلامية وتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . هذه الدولة العربية الإسلامية التي تتمسك بتعاليم الشرع الحنيف في كل أمورها الدينية والدنيوية في زمان تتكالب قوى الشرك والبغي على ديننا وتعاليمه .

---

(١) سنن ابن ماجه ، باب إتباع سنن الخلفاء الراشدين ، جـــ١ ص٥ .

(٢) الموطأ لإمام مالك ، كتاب الجامع ، رقم جـــ١٦٦١ .

وها نحن نتفيأ هذه الظلال الوارفة بفضل الله تعالى ثم بفضل ما قامت بـــه هـــذه الأسرة ممثلة في والدهم الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى وطيب ثراه ، وما قام به أبناؤه في ترسم خطاه والسير على نهجه ، ونأمل من الله أن يمدهم بعونه وتوفيقه .

جذور الحكم السعودي والأسس التي قام عليها

كان جد آل سعود « مانع المريدي » انتقل بأسرته في عام « ٨٥٠هـ » من شرق الجزيرة العربية إلى العارض حيث منحه قريبه بن درع المكان الذي قامت عليه بلدة « الدرعية » التي كانت عاصمة الدولة السعودية في دورها الأول . وكانت تلك الأسرة ضعيفة في بداية أمرها ثم قويت ووسعت أملاكها . على أنه حدث بين أفرادها خلال تاريخها ما كان يحدث من صراعات على السلطة في كل زمان ومكان . وكان من نتائج ذلك الصراع أن انتزعت منهم إمارة البلاد فترة قصيرة ، لكن الإمارة عادت إلى أصحابها .

وكان ممن تولاها بحزم « سعود بن محمد بن مقرن » الذي توفي عام « ١١٣٧هـ » . وبعد وفاته ولي الإمارة « زيد بن مرخان » . وتولاه بعده « محمد بن سعود » الذي ظل أميرًا للدرعية حتى قام بمناصرة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان الإصلاحية . وانتقلت الإمارة إلى مرحلة تاريخية جديدة غيرت مجرى الأحداث في المنطقة كلها .

لقد رأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي أن الدرعية هي المكان المناسب له ولدعوته ، وذلك لأن كثيرًا من وجهائها كانوا متحمسين للدعوة . بالإضافة إلى ذلك فقد كانت إمارة الدرعية مستقرة ذات قوة جيدة في عهد أميرها محمد بن سعود . ولذلك انتقل الشيخ إلى الدرعية

عـــام «١١٥٧هـــ» . وتعاهد مع أميرها على نشر الدعوة والوقوف ضد من يعترض سبيل الحق . وهكذا بدأ الحكم السعودي أو ما سمي بالدولة السعودية الأولـــى . وكذلـــك مســـاعي قادته بالنجاح في توحيد البلاد وبسط الأمن في ربوعها .

وإن كان الحكم السعودي قد بدأ حقيقة بمناصرة دعوة الشيخ محمد بن عـــبد الوهـــاب بن سليمان الإصلاحية التي تهدف إلى : « إفراد الله بالعبادة ، ومحاربـــة الشـــرك بجميع أنواعه ، وسد الذرائع المؤدية إليه » . ومن أبرز أهدافها : «محاربة البدع في الدين ، وتطبيق الشريعة الإسلامية في كل أمور الحياة » . وذلك في ظل دولة قادرة على تحقيق تلك الأهداف .

وهكـــذا يتضح أن الحكم السعودي قام على أساس « ديني » ، ولم يقم على عصبية «قبلية » ، ولا على « حمية » مرتبطة ببلدة معينة . وبما أن الدين أســـاس يلتقـــي فيه كل مسلم ، فإن الحكم القائم عليه أقرب إلى اجتذاب أغلب الـــناس مـــن أي حكـــم قائم على أسس أخرى . وهكذا توحدت معظم مناطق الجزيـــرة العربـــية في دولة لم يُرَ لها مثيل من قبل باستثناء فترة قصيرة من فجر التاريخ الإسلامي[١] .

---

(١) المعـــارك الحاســـمة فـــي تـــاريخ الملك عبد العزيز ، أعدته لجنة مختارة من وزارة الدفاع والطيران بالمملكة العربية السعودية ، ص١٠ .

نشأة الدولة السعودية

ينتمـــي آل سعود إلى قبيلة عنزة من ربيعه أحد أولاد نزار . وعنزة ترجع إلى وائل بن ربيعه وهم في اصطلاح اليوم أبر قبائل العرب كما يقال : قـــوم دون عـــنزة ، مثل مشهور رمز للقوة والشهرة ، وعنزة قبيلة معروف رجالهـــا في ركض الخيل والفراسة ، وليس في أرض نجد أحد يقاومها[1] . وكانـــت منازل آل ربيعة بن نزار ، ومنهم بنو وائل في « حجر » من وادي اليمامة قرب الدرعية وما حولها من بلدة « حريملاء » . كما قطن آل ربيعة : « هجـــر ، والقطـــيف ، وحجر اليمامة » وما جاور هذه الديار . وكان الأمير مانع المسيب ولقبه « المريدي » جد آل مقرن بن مرخان يقطن بلدة « الدروع » مـــن أعمـــال القطيف . ويربطه بابن درع رئيس حجر اليمامة صلة نسب ، فجمعـــت هـــذه الصـــلة بينهما وأسفرت عن دعوة الأمير مانع من القطيف ، واقطعـــه من أملاكه أرض « المليبيد ، وعضبه » قرب الدرعية ، فاستقر فيها مع صحبه وآله في سنة « ٨٥٠هـــ » .

ولمـــا توفي الأمير مانع تولى بعده ابنه ربيعة زمام الإمارة ، وحصل على شهرة بالغة في تلك الأصقاع وكثر أنصاره في كل مكان . ثم تولى زمام الولايـــة بعـــده ابـــنه موســـى بن ربيعة وتزعم عشيرته ، وتولى بعده ولده إبراهـــيم ، فأنجـــب عدة أولاد أحدهم «مرخان » وتعاقب أولاده على استلام الولايـــة . وكان أكبرهم وأشدهم مراسًا وعدلاً الأمير « مقرن »جد آل سعود الأكـــبر فانـــتهى الحكـــم إلـــيه ، واختار الدرعية عاصمة له وذلك في سنة

---

(١) كنز الأنساب ومجمع الآداب ، حمد بن إبراهيم الحقيل ، ص٦٦ .

« ١١٠٠هـ » . وبقي الحكم في عقب الأمير مقرن بن مرخان من بعده إلى أن أصبح الأمير سعود بن محمد بن مقرن أميرًا على الدرعية[١] .

إن المؤسس لملك « آل سعود » هو الأمير سعود الأول بن محمد بن مقرن ، ومن عقبه الأمراء والملوك السعوديون بحسب تفرعاتهم وهم :

الأول : سعود « الأول » بن محمد بن مقرن والذي تنتسب إليه الأسرة المالكة السعودية .

الثاني : محمد بن سعود وهو أول حاكم سعودي خرج بالحكم من نظامه القبلي إلى حكم إسلامي صحيح بعد أن كان الحكم قائمًا على الهوى والجهل والسيف ، صار حكمًا أساسه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وقد تم ذلك في عهده وذلك بفضل الله ثم بفضله ثم بفضل الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي الذي عرف نظام حكمه وعدله ، وما كان عليه الأمير من الأخلاق الكريمة والعطف على الناس فقصده الناس ووجدوا عنده الأمن والحرية والعدل .وكان من قصده الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان الذي غادر العيينة في ظروف صعبة ، ورأى أن الدرعية دار آمنة يجد فيها الأمن على نفسه وعلى الدعوة التي يقوم بها .

وقد تحقق ما كان يرجوه من الأمير محمد بن سعود في أن يحمي الداعي والدعوة وينصره . وتعاهدا معاهدة إسلامية على توحيد الكلمة ونصرة الدين ، وقمع الباطل ، وحرب الباغي والمبتدع والضال ما استطاعا . ومن ثم

---

(١) المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ، صلاح الدين مختار ، ص ٢٩ – ٣١ .

أخـــذا في تطهير الداخل من المبتدعين وإرشاد الناس إلى الهدى ، واستطاع الاثنان تكوين قوة واجتمع بعض زعماء القبائل حولهما .

وفي عهده قويت الإمارة واستقامت أمورها ، ونفذ شرع الله الذي أدى إلى حياة فاضلة كريمة . وقد تم ذلك بفضل الله ثم بفضل الدعوة الجدية التي أخلص لها الحاكم السعودي وحماها ونشرها بكل قوته ومواهبه ، فنصره الله . وعـــاد الإسلام بفضل الله دينًا ودولة ، وعرف محمد بن سعود بالإمام ليتفق لقبه مع الدعوة الإسلامية[1] .

والحديـــث عـــن أوضـــاع البلاد قبل الحكم السعودي يتطلب عرضًا مقتضـــبًا لأوضاع كل منطقة من مناطقها قبل الحكم السعودي ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية . ويتلخص في التالي :

أولاً : منطقة نجد :

أمـــا نجـــد فقد قامت فيها دول « الأخيضرية » في النصف الثاني من القـــرن الثالث الهجري ، واستمرت حوالي قرنين من الزمن . وكان زعماء تلـــك الدولة يتبعون المذهب الزيدي ، وبعد زوالهم أصبحت نجد مفككة ، كل بلـــدة لها إمارتها المستقلة المعادية في كثير من الأحيان لجارتها . وكان هذا الـــتفكك مـــن أسباب ضعفها وامتداد نفوذ « آل أجود » على بعض أجزائها ، ونفـــوذ « الأشراف » على بعض أجزائها الأخرى . ولما ضعف مركز الدولة العثمانـــية فـــي جزيرة العرب بصفة عامة ، وانتزاع «بنو خالد » منهم حكم

---

(١) صقر الجزيرة العربية ، أحمد عبد الغفور عطار ، جـــ١ ص١٥٩ ١٧٠ .

المنطقة الشرقية ، أصبح الزعماء الخالدون ينافسون أشراف الحجاز في نجد . علـــى أن نفـــوذ كل من الأشراف وبني خالد لم يكن من القوة بحيث يفرض الأمـــن أو يمـــنع تحارب البلدان والقبائل النجدية . وكان المذهب الحنبلي هو المذهـــب السائد بين علماء نجد منذ زوال الدولة الأخيضرية . وقد انتشر في نجـــد حيـــنذاك مـــا انتشر في غيرها من بلدان العالم الإسلامي من خرافات وبدع[1] .

كـــان عصـــر الإمـــام بالنســـبة لنجد عصرًا جاهليًا ، فما أهل القرن الثانـــي عشر للهجرة على نجد إلا وهي غارقة في الجاهلية . وانقلبت مرسمًا تمـــثل علـــيه أدوار الهمجية ، حيث إراقة الدماء وقتل النفوس بغير الحق ، وحيـــث التـــناحر والجمـــود والفساد في كل شيء . ومرد هذا كله إلى فساد الديـــن ، فلـــو صـــلح دينهم لصلحت أمور دنياهم . وانزوى الدين في بقاع صـــغيرة ، وهي صدور العلماء الذين يفهمون الدين الصحيح ويعتنقونه . أما الســـواد الأعظـــم فلـــم يفهم الدين إلا ما يزينه له هواه من الشرك والوثنية ، وانقلـــب الإســـلام مجموعـــة من الوثنيات والبدع والخرافات . فصرف من العـــبادات مـــا كـــان لله وحده لغيره ، وأشرك مع الله سواه . يدعو الأوثان ويســـتغيث بهـــا ويستعينها ، وينحر على الأحجار والصخور والأشجار ، إذ يعتقد فيها القدرة على النفع والضرر .

---

(١) الإســـتراتيجية ودور عـــباقرة الفكـــر العسكري في تطورها ، للمؤلف ، ص١٨٥ – ١٨٦ .
المملكـــة العربـــية السعودية في ماضيها وحاضرها ، صلاح الدين مختار ، ص٢٦ – ٣٥ .
المعارك الحاسمة في تاريخ الملك عبد العزيز العسكري ، إعداد مجموعة من ضباط القوات المسلحة بالاشتراك مع د/عبد الله بن صالح العثيمين ، ص٦ .

وتـــاريخ ابن غنام المسمى « روض الأفكار والأفهام » حفل بذكر هذا الفساد ، وبخاصة فساد الحياة الدينية . فيقول في تاريخه : كان الناس في نجد والأحساء وغيرهما في بلدان الجزيرة غارقين في الشرك يتبعون ما زينت لهم الأهواء والشياطين . وينهاهم ولم يعبأوا بالدين الصحيح ، بل تنكروا له . لأنه يأمـــرهم بالمعـــروف وينهاهم عن المنكر ، وهم لا يريدون ذلك ، فعدلوا عن عـــبادة الله إلى عبادة غيره . فاستغاثوا بخلقه في النوازل والخطوب ، وطلبوا منهم الرزق وكشف الضر وجلب النفع ، واعتصموا لهم دون الله عز وجل . واعـــتقدوا فـــي الأحجـــار والأشجار ، وأنها تضر وتنفع ، وعادوا إلى حياة الجاهلية في المعتقد . ولم يعد الإسلام إلا اسمًا ، أما مسماه فقد قضوا عليه . وكـــل شيء كان قد فسد بفساد الحياة الدينية ، فلا دين يمنع من الباطل ، ولا ضمير يهدي إلى الرشد .

أمـــا الحـــياة السياسية فكانت أشد فسادًا ، لأن الحكم الإسلامي كان قد زال بـــزوال الديـــن وحلول الوثنية ، وصار الحكم عشائريًا لا يتوخى الحق والعـــدل . فالحـــاكم القـــوي يعتدي على من هو أضعف منه ويحاربه ، هذا مهـــاجم ، وذلـــك مدافـــع . وهذا ثائر يطلب ثأره ، وذلك قاطع طريق يرجو مغنمًا ، وليس ثمة حاكم يقضي بين الناس بالعدل ، وينشر الأمن والطمأنينة ، ويعاقب الجاني .

ففـــي « الدرعـــية » حاكم مستقل من آل سعود ، وهي أكثر بلدان نجد عمـــرانًا ، وأهلهـــا أشد الناس شكيمة ، وأميرها راجح الأمراء عقلاً وأعدلهم حكمًـــا . وفي « العيينة » حاكم مستقل من « آل معمر » ولكنه لم يكن كالأمير الســـعودي فـــي قدرتـــه ومكانـــته ، ومـــع ذلـــك كان أميرًا عادلاً صالحًا .

وفـــي « الـــرياض » دهـــام بن دواس الظالم الغشوم الذي لا مبدأ له ، يستبيح المحرمات ، ويحل ما حرم الله .

وتبعث الحياة الاقتصادية والسياسية الفساد في الدين ، فإذا ساء المعتقد وســـاد الظلـــم ســـاءت الأخلاق . والنواحي العلمية تبعث النواحي الأخرى ، والعلماء الصالحون مضطهدون ، ومن كان منهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر محاربين . ومع كل ذلك فإن الله أراد خيرًا بالعلم ، فحفظه وحفظ بعض العلماء ، فكانوا النور الذي يهدي إذا اشتد الظلام ، ولكن لم يكونوا إلا آحادًا وكانوا قانعين بالعلم دون الدعوة .

وجملة القول : أن نجدًا قد ساءت أحوالها كلها في القرن الثاني عشر ، حـــتى قيض الله لها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي ، فأخـــرجها بفضـــل الله ورحمته من الظلمات إلى النور . وأعاد إليها الإسلام الحـــق الذي نقل نجدًا من الشرك إلى التوحيد ومن التأخر إلى التقدم ، ودفع بالإنسان إلى الحياة الكريمة الفاضلة[1] .

ثانيًا : منطقة الحجاز :

كانـــت تحـــت حكم الأشراف منذ أوائل القرن الثالث الهجري أي عام « ٣٣٤هـــ » تقريبًا . وكان ولاء حكومة الأشراف يتذبذب بين دولة إسلامية وأخـــرى حســـب قوة الدولة المحيطة بهم وضعفها . لكنهم في أغلب فترات تـــاريخهم تـــابعون للدولـــة التي اتخذت من مصر مركزًا لها . وكانت فيها

---

(١) صقر الجزيرة ، أحمد عبد الغفور عطار ، جـــ١ ص٣١ – ٤٠ .

إمارتـــان إمـــارة « مكة المكرمة » لحسنيين من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ، وإمارة « المدينة المنورة » لحسينين من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب . وكان من يدعي له من الخلفاء على منابرها سواء الخلفاء العباسيون أو الفاطميون يعد نفسه خليفة المسلمين قاطبة .

وأول أســـرة حســـنية حكمـــت مكـــة المكرمة هي أسرة بني سليمان أو بنـــي موســـى ، في عام « ٣٧٠هـــ » أذعن الحسنيون للعزيز الفاطمي ، وظلـــت الخطـــبة تقـــام باسم الفاطميين مدة متطاولة . حتى تولى أبو الفتوح الحســـن بن جعفر سنة « ٣٨٤هـــ »وهو أهم أمراء الأسرة ، وقد حاول إتباع الحاكم بأمر الله الفاطمي أن يحملوه أن يقرأ سجلاً في المسجد الحرام بالبراء مـــن أبـــي بكر وعمر رضي الله عنهما وسب بعض الصحابة وبعض أزواج رســـول الله ﷺ ، فـــرفض ذلـــك وقطع صلته بمصر . وخلفه في الحكم ابنه شـــكر ، وأضـــاف إليها المدينة المنورة كان يجمع فيها بين الحرمين إلى أن توفـــي ســـنة « ٤٥٣هـــــ » ، وانقرضت سلالته . غير أن فرعًا من الأسرة الحســـينية مـــن بني هاشم ، وهو محمد بن جعفر قد تولى أمر مكة بمساعدة المصـــيلحي أمـــير اليمن سنة « ٤٥٤هـــ » . ويقول المؤرخون أنه كان تارة يجعـــل الخطـــبة فـــي الموســـم باســـم الخلفاء الفاطميين وتارة باسم الخلفاء العباســـيين ، تبعًا لما كان يغدق عليه من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة . واســـتطاع أن يجمع في ظل حكمه الحرمين ، وبذلك اجتمع له الحجاز . ولي بعده ابنه القاسم وخلفه ابنه عيسى سنة « ٥٥٦هـــ » ، وفي عهده انتهت الدولة الفاطمـــية وحكـــم مصر صلاح الدين الأيوبي واستولى على الحجاز ، ويظل أبناء عيسى يلون مكة .

تولى قتادة إمارة الحجاز وكان يخطب للسلطان العادل بن أيوب ولابنه الكامل سلطان مصر ، وخلفه ابنه الحسن سنة « ٦١٧هـ » ، ووليها راجح بن قتادة ، وظلت تنتقل بينه وبين أخيه ثم ابنه راجح . وفي كل هذه الفترة أمراء مكة يولون من قبل العباسيين حتى انقراض دولتهم سنة « ٦٥٦هـ » . وكانت مصر بعد ذلك في عهد السلاطين المماليك هي التي توليهم . ومن أهم أمراء الأسرة أبو نمي الأول سنة « ٦٥٢هـ » وثبته عليها السلطان الظاهر بيبرس ، وظل يلي شئونها خمسين عامًا ، ويخلفه سنة « ٧٠١هـ » ولداه : « رميثه ، وعطيه » ، وأخيرًا خلص الأمر لعجلان وكان يحب أهل السنة وينصرهم على الشيعة الزيدية وغيرهم . وتولى بعده إخوانه أحمد ، وعلي ، ومغامس ، والحسن حتى تولاها بعده بركات ، ويخلفه ابنه محمد حتى سنة « ٩٠٣هـ » فتصير لابنه بركات . ثم لابنه أبو نمي الثاني الذي سافر إلى مصر عقب استيلاء السلطان العثماني سليم الأول عليها سنة « ٩٢٢هـ » ليعلن تسليم الحرمين الشريفين له .

وكانت إمارة مكة المكرمة في العهد العثماني تتبع ولاية مصر والخلافة العثمانية ، ووليتها ثلاث أسر من أبناء نمي : أسرة بركات ، ثم أسرة زيد ، ثم أسرة عون . وظلت الولاية في الأسرة الأولى أكثر من مائة عام ، ثم نافستها أسرة زيد في القرن الحادي عشر وظلت الإمارة تنتقل من بركاتي إلى زيدي حتى استقل بها بنو زيد ، وظلوا يلونها إلى زمن فتح محمد

علـــي للحجـــاز فـــي عام « ١٢٢٧هـــ » . وما زالت الإمارة في أبنائه حتى استخلصها سعود الثاني بن عبد العزيز الملقب بالكبير[١] .

وكانت إمارة المدينة المنورة الرياسة فيها لبني المهنا أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب ، وظلت الإمارة في أيديهم إلا فترات قليلة تتبع إمارة مكة المكـــرمة . ويقال إن مسلمًا بن الحسن في عام « ٣٢٩هـــ » كان يدعو للمعز صـــاحب إفريقـــية ، وكان الفاطميون يولون أبناءها على المدينة ، واحدًا تلو الآخـــر ، ومـــن أهمهم منظور بن عمار المتوفى سنة « ٤٩٥هـــ » . وتنتهي الدولـــة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي ، ويبقى على بني مهنا أمراء للمديـــنة وكانوا يتولون إمارتها في العهد الأيوبي من قبل الخلفاء العباسيين . وكان من أشهرهم « أبو فليته » الذي حضر مع صلاح الدين فتح أنطاكية سنة « ٥٨٤هـــ » . يكثر القتل بين أفراد هذه الأسرة وما يكاد يتولاها شخص منهم حـــتى يـــنقض عليه آخر . وفي سنة « ٩٠١هـــ » تتدهور الإمارة وتدخل مع الحجاز في الحكم للدولة العثمانية ، وتظل لهذا البيت عليها إمارة اسمية[٢] .

وكـــان لوجـــود الحرمين الشريفين في الحجاز أثره الكبير في الحياة العلمـــية ، ذلـــك أن بعـــض العلمـــاء من الأقطار الإسلامية المختلفة كانوا يـــتجاورون فـــي مكـــة المكرمة والمدينة النبوية المنورة . وكثيرًا ما قاموا بالتدريس والتأليف . لكن وجود أولئك العلماء في المدينتين المقدستين لم يحل

---

(١) سمط النجوم العوالي ، عبد الملك العصامي المكي ، جـــ٤ ص١٩٩ – ٢٧٠ . عصر الدول والإمارات ، د/شوقي ضيف ، ص١١ – ١٦ .

(٢) صقر الجزيرة ، أحمد عبد الغفور عطار جـــ١ ، ص٣١ – ٤٠ .

دون انتشار كثير من البدع والخرافات التي كانت منتشرة في كثير من البلدان الإسلامية .

ثالثًا : المنطقة الشرقية :

كـــان شـــرقي البلاد والمشتمل على إقليمي الإحساء و القطيف مركز دولـــة « القـــرامطة » التي بدأت في أواخر القرن الثالث الهجري وانتهت في النصف الثاني من القرن الخامس . وكانت نهايتها على يد « عبد الله العيوني » الذي أقام دولة استمرت حتى منتصف القرن السابع الهجري تقريبًا . ثم تولى حكـــم تلك المنطقة أسر أشهرها « آل أجود » . وكان أعظم رجالات آل أجود أجـــود بـــن زامـــل ، الذي مد نفوذه إلى أجزاء من عمان ونجد . وفي عام « ٩٦٠هـــ » دخلت المنطقة تحت حكم العثمانيين ، وظلت تحت حكمهم حتى اســـتقل بها « آل حميد »زعماء بني خالد عام « ١٠٨٠هـــ » . وكان المذهب الجعفـــري الشـــيعي يوجد فيها جنبًا إلى جنب بصفة عامة ، منذ القضاء على دولـــة القرامطة . وكانت توجد فيها حركة علمية جيدة . لكن كان يوجد فيها كمـــا يوجـــد فـــي غيرها من بدع وخرافات ومن جهل بأمور الدين وإهمال لواجباته من قبل فئات القبائل الرحل .

رابعًا : بقية مناطق المملكة :

كـــان نفـــوذ أشراف الحجاز قد امتد إلى القنفذة جنوبًا ، وشمالاً شمل بعـــض المدن ، ومن الراجح أن نفوذهم في هذه الجهات لم يكن سوى تحالف بعـــض القبائل معهم . ولم تكن الحياة العلمية جيدة ، ولذلك لم يكن غريبًا أن

يوجـــد فيها ما كان يوجد في كثير من المجتمعات الإسلامية حينذاك من جهل بأمور الدين ، وإهمال لواجباته ، وانتشار للبدع والخرافات .

أمـــا المخلاف السليماني أو إقليم جازان ، فقد كان إمارات متعددة منذ نهايـــة القـــرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن الثاني عشر عند ما نجح الشريف أحمد بن محمد في توحيده تحت قيادته . وكانت الحياة العلمية فيه لا بـــأس بهـــا . إلا أن الخـــرافات والبدع منتشرة بها كما كان منتشرًا في بلاد إسلامية أخرى .

وأمـــا نجـــران فكـــان أكـــثر ســـكانه من قبائل يام ، وكان المذهب الإسماعيلي هو المذهب المتبع غالبًا لدى سادة نجران . أما القبائل الرحل في ذلـــك الإقليم ، فكان وضعها مشابهًا لأوضاع القبائل الرحل الأخرى في كثير من أقاليم الجزيرة العربية من حيث غلبة الجهل بأمور الدين وإهمال واجباته .

وهكـــذا يتبين أن أوضاع المناطق المختلفة من البلاد كانت في حاجة إلى إصلاح ديني وسياسي . وكانت نجد بالذات منطقة مناسبة لتكوين المركز الـــذي مـــنه ذلـــك الإصلاح . وذلك لكونها بعيدة نسبيًا عن متناول السلطات العثمانية مما يتيح لأي نشاط إصلاحي أن يثبت أقدامه وينمو بعيدًا عن التدخل الخارجـــي . ولقـــد تحقق ما كان متوقعًا ، فقامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهـــاب بن سليمان بن علي الإصلاحية التي ناصرها « آل سعود » ، فكانت خيرًا وبركة لسكان البلاد خاصة وللمسلمين عامة .

أمـــا عـــن اليقظة والتجديد في الفكر الإسلامي فإن الله عز وجل أراد للمسلمين العزة فقيض لهم رجالاً ظهروا في شتى الأقطار الإسلامية ، جددوا

لهـــذه الأمـــة أمر دينها . ففي مطلع القرن الثامن عشر الميلادي ظهر الشيخ محمـــد بن عبد الوهاب في نجد بين عامي « ١٧٠٣م و ١٧٩١م » ، فدعا إلى التوحـــيد المطلـــق ومـــنع التوسل بغير أسماء الله وصفاته ونادى بفتح باب الاجتهاد .

وفـــي الهند ظهر الشيخ «ولي الله الدهلوي » ما بين عام « ١٧٠٢م » وعـــام « ١٧٦٢م » ، واشـــتهر بالدعوة إلى عقيدة السلف ، فكان من مؤلفاته « الجزء اللطيف » .

وفي اليمن ظهر الشيخ «محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الأمير » الذي نشـــر السنة في اليمن ، فكان عالمًا مجددًا مجتهدًا ، ومن أشهر مؤلفاته «سبل الســـلام » . كمـــا كان شاعرًا مجيدًا ، وله قصيدة معروفة يؤيد فيها ويناصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومطلعها :

ســـلام على نجد ومن حلّ في نجد وإن كان تسليمي على البعد لا يجد

وإذا كان الأمير مجددًا وشاعرًا إلا أنه سلم الراية من بعده إلى الإمام الشـــهير «محمد علي الشوكاني » المولد عام « ١٧٥٨م » في شوكان اليمن ، ونشأ في صنعاء . وكان فقيهًا ومفسرًا ومحدثًا زادت مؤلفاته على المائة ومن أشهرها « التفسير وإرشاد الفحول ».

وفـــي المدينة المنورة ظهر الشيخ « مظهر بن نوح القلاف » عاش ما بيـــن عامي « ١٧٥٢ و ١٨٠٣م » . كما ظهر الشيخ « شهاب الدين الأولسي » بالعراق ما بين عامي « ١٨٠٢ و١٨٥٤م » . وبالمغرب ظهر « محمد بن علي السنوســـي » ، وبالســـودان ظهر «محمد بن أحمد المهدي » . لقد كانت هذه

الدعـوات الـتجديدية دعـوات إصـلاحية ، فكانت ظاهرة عامة في القرن الثامـن عشـر ظلـت حتى منتصف القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من الاخـتلاف الـذي كان يبدو بين بعض هذه الدعوات إلا أنها اتسمت بالتجديد واتفقت على نبذ التقليد وفتح باب الاجتهاد[1] .

لا بـد لأي باحـث محـايد وهو يستعرض جهود الملك عبد العزيز – طيب الله ثراه – في توحيد المملكة وتوطيد الأمن فيها . لا بد له أن يشير إلـى الاتفاق التاريخي بين مجدد القرن الثاني عشر الهجري الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان رحمه الله تعالى ، وبين الإمام محمد بن سعود رحمه الله تعالى الذي ابتدأ في عهده مجد الإمامة في البيت السعودي . وبعهده يؤرخ قيام الاتجاه السلفي النقي في عالمنا المعاصر بعد أن استفاضت أخبار التعدي والـزيغ عن المنهج الإسلامي القويم . وصارت الجزيرة العربية ميدانًا رحبًا لأعمال النهب والسلب والإغارة والعنف .

ويتفق المؤرخون المنصفون على أن ذلك الاتفاق التاريخي كان أخطر عمـل تنظـيري تحول إلى سلوك واقعي ، رافقته وقائع عسكرية . كان لها مداها الواسع ، لا في شبه الجزيرة العربية وحدها ، ولكن في أنحاء شتى من العالم الإسلامي . مما يؤكد الصلة بين شعوب الأمم الإسلامية الخالدة بأعمق مما يبدو عليه السطح الخارجي أو الشكل الظاهري للاتصال أو التواصل بين أجزاء هذه الأمة . ويكفي أن نشير إلى مضمون هذا الاتفاق العظيم لكي ندرك

---

(١) الإسلام ومقتضيات العصر ، د/أنور ماجد عشقي ص٢٥٩ – ٢٦١ .

شيئًا هامًا ، وهو أن أثار هذه الاتفاقية المباركة بين الإمام والشيخ ظلت تسري عبر العصور والأجيال بشروطها ونتائجها .

فعندما رحل الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي من بلدة العيينة بعد تنكر حاكمها له ، توجه إلى الدرعية باحثًا عن قوة سياسية لتدعيم دعوتـــه السلفية . وهناك استقبله حاكم الدرعية الإمام محمد بن سعود وأكرمه بمـــا يستحق من إكرام وأحسن استقباله قائلاً : (وأنا أبشرك بالعز والتمكين وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعـــباد ، وهـــي كلمة التوحيد ، وأول ما دعا إليه المرسلون من أولهم إلى آخـــرهم) . ورد عليه الإمام محمد بن سعود قائلاً : (يا شيخ ، إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه ، وأبشرك بالنصر لما دعوت إليه وبالجهاد لمن خالف التوحيد) .

وفـــي خـــتام هـــذا اللقـــاء التاريخي بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمـــير محمد بن سعود ، تعاهد الرجلان المجاهدان على نصرة دين الله ، وإعـــلاء كلمة التوحيد ، وإعلاء شريعة الإسلام ، والأمر بالمعروف والنهي عـــن المنكر . وهكذا يعتبر وصول الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية وعقد اتفاقية مع الأمير محمد بن سعود بن مقرن مؤسس الدولة السعودية بحق هو يوم نشأة الدولة السعودية ، ويوم بروزها في التاريخ .

وتشـــير المراجع التاريخية إلى أنه لم يكن في نجد عند ظهور الدعوة حكومة مركزية ذات نظام وأوضاع ثابتة ، ترعى مصالح الناس وتسهر على

أمـــنهم وســـلامتهم ، وتقـــيم أحكام الشريعة الإسلامية فيهم . لقد كان شيوخ القبائل ، وأمراء المدن ، وحدهم المسيطرين ، وقد أرهقوا الناس بتصرفاتهم ، وفوضـــاتهم لا حـــدود لهـــا . وقـــد سئم العامة من أبناء نجد حالة الفوضى والاضـــطراب هـــذه . ولـــذا لم يترددوا في قبول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التي جاءت لإنقاذهم فأيدوها تحت قيادة آل سعود لنصرتها والدفـــاع عـــنها وحمايتها من أعداء الشريعة المحمدية . ويستنتج أنه كان في نجـــد يـــوم تحالف الإمام محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن ســـليمان بـــن علي الأمارات التالية : « إمارة آل سعود في الدرعية ، إمارة آل معمـــر فـــي العيينـــة ، إمارة آل دواس في الرياض ، إمارة آل خالد في الأحســـاء ، إمـــارة آل هذال في نجران ، إمارة آل علي في الشمال ، إمارة آل حجـــيلان فـــي القصـــيم » . وبجانـــب هذه الأمارات وجدت عدة إمارات وشـــيخات صغيرة في غرب نجد في «بيشة ، ووادي الدواسر » وكانت هذه الإمارات مضطربة وغير آمنة[1] .

وبـــتحالف الإمام محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن ســـليمان بن علي قامت في قلب الجزيرة العربية دولة تحكم بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وبالقدوة الحسنة المتوارثة عن السلف الصالح . تأمـــر بالمعـــروف وتنهي عن المنكر ، تعيد ما كان عليه عهد رسول الله ﷺ وعهـــد الخلفاء الراشدين من سنن الحياة . ترعى ظروف الخلق في مجتمعه

---

(١) فـــي آفـــاق التربية الوطنية في المملكة العربية السعودية ، د/سليمان بن عبد الرحمن الحقيل ص٨ – ٩ . الأطلس التاريخي للدولة السعودية ، إبراهيم جمعة ص٣١ .

ظل تائها في فيافي الجزيرة العربية ردحًا من الزمن بلا هادي يهدي أو رادع يـــردع . شـــاعت فيها الفرقة وعمت الفوضى وانعدم الأمن وفسدت السلائق وارتد المجتمع إلى جاهلية تشبه الجاهلية الأولى بضلالها وبدعها وخرافاتها .

وفي توافق تام التأمت الإمامة والسياسة في هذا الكيان السياسي الجديد الذي شهدته بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري .

ونشـــأ في قلب الجزيرة مجتمع هذب الإسلام جوانبه وقوم اعوجاجه وأزال نقائضـــه . ميز الإنسان فيه بين الحق والباطل والعدل والظلم والهدى والضـــلال . صار على نفسه بصيرًا ، وسادت ولأول مرة وبعد عدة قرون أحكـــام الشـــريعة الإسلامية الغراء . وأصبحت الدرعية بقيادة الكيان الجديد عاصمة للدولة بعد أن كانت مقرًا لعشيرة . وما لبث أن خرجت من الظل إلى الضـــوء ومن غموض التاريخ لتصبح إحدى قواعد الجزيرة العربية المقترنة باسم « آل سعود »[1] .

يعتـــبر الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب من زعماء الإصلاح في العلم الإسلامي ، ورأى في أثناء رحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامي أن هذا التوحـــيد الذي هو مزية الإسلام الكبرى ، قد دخله الكثير من الفساد فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده ، هو خالق هذا العالم والمسيطر عليه ، وواضع قوانينه التي يسير عليها ، والمشرع له وليس في الخلق ممن يشاركه في خلقه ولا في حكمه ولا من يعينه على تصريف أموره . لأنه تعالى ليس في حاجة

---

(١) المرجع السابق ، ص١٠ .

إلـــى عون أحد مهما كان من المقربين إليه . هو الذي بيده الحكم وحده وهو الـــذي بـــيده النفع والضر وحده لا شريك له . فمعنى لا إله إلا الله ليس في الوجـــود ذو سلطة إلا هو ، وليس في الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو سبحانه وتعالى .

إذن فمـــا بـــال العـــالم الإسلامي اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخـــالص من كل شائبة إلى أن يشرك مع الله كثيرًا من خلقه . فهذه أضرحة الأولـــياء يحج إليها وتقدم لها النذور ، ويعتقد أنها قادرة على النفع والضر . وهـــذه الأضـــرحة يشـــد الـــناس إليها رحالهم ويتمسحون بها ويتذللون لها ، ويطلـــبون جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم . هكذا أشغلت ذهن الشيخ رحمه الله تعـــالى فكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كل شرك ، وفكرة التوحيد في الشريعة ، فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

لقـــد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ومن عاصروه يرون أن ضعف المسلمين ليس له سبب إلا العقيدة . فقد كانت العقيدة الإسلامية في أول مهدها صافية نقية من أي شرك ، وكانت (لا إله إلا الله) معناها السمو بالنفس وعدم الخوف من الموت في سبيل الحق . ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت فـــي رفـــع لواء الحق ودفع الظلم ، وهذا هو الفرق بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها غزوا وفتحوا وحكموا .

ثـــم لـــم يتغـــير شيء إلا العقيدة فتدنو من سمو التوحيد إلى حضيض الشـــرك بالتـــبرك بالأشـــجار وقـــبور الأولياء ، وركنوا إلى ذلك في حياتهم

العامـــة . ومازال كل قرن يمر تزداد النفوس ذلة حتى وصلت الحالة بالأمة الإســـلامية إلـــى فقد سيادتها وانهيار عزتها « ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله » . فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصـــحيح والعـــزة الحقة . لم يتجه الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بـــن علي في إصلاحه إلى الحياة المادية وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها ، هذا هو جوهر الدعوة التي دعا إليها يرحمه الله[1] .

الأسرة الوهابية تنسب إلى الشيخ عبد الوهاب والد الشيخ الإمام الشيخ محمد ، وكانت تعرف « بآل مشرف » أحد أجدادها . ولما ظهر شيخ الإسلام محمـــد بن عبد الواهب غلبت نسبة الأسرة إليه فعرفت « بآل الشيخ » ، وكل مـــن جاءوا بعده عرفوا بآل الشيخ اختصارًا . إلا أن اسم الوهابية هو الاسم الـــذي عرفت به هذه الأسرة في خارج ديارها . وأصول الشيخ محمد أصول كـــريمة ، فآل مشرف من فروع تميم ، وكانوا ذوي امتياز مشهود في بلدتهم والـــبلدان المجـــاورة . ولـــم يكن امتيازهم إلا الامتياز الذي لا يمحى بموت صاحبه ، وذلك هو امتياز العلم والخلق .

وشيخ الإسلام هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد ابن أحمد بن راشد بن زيد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر ابن علوي بن وهيب . وينتهون إلى القبيلة العربية المشهورة تميم بن مرة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

---

(١) عبد العزيز آل سعود وعبقريته الشخصية الإسلامية ، د/ عبد العزيز شرف ومحمد شعبان ، ص٧٨ – ٨٢ .

وجـــد الشيخ محمد بن عبد الوهاب سلميان كان أعلم أهل بلده العيينة وأفقههـــم ، وبـــرع في العلوم الإسلامية . ومع بروزه في الفقه الحنبلي كان عالمًا في فقه المذاهب المشهورة . ولكنه لم يكن ليفتي إلا على مذهب الإمام أحمد الذي استوعبه . كما لم يفته الإطلاع على المذاهب الأخرى كفقه الشيعة وعلـــم الكـــلام لـــيكون على علم ، وليبصر الناس بما في مذاهب الفرق من خـــروج وانحراف . وتوفي الشيخ سليمان سنة « ١٠٧٩هـــ » . بعد أن خلف أبـــناء لـــم يكن لهم شغل غير العلم ، وقد برز فيهم اثنان : « عبد الوهاب ، وإبراهـــيم » وكانا عالمين جليلين . غير أن عبد الوهاب والد الإمام كان أبرز وأعلم وأشهر ، وانتهت إليه رئاسة القضاء والعلماء والفتيا .

وهذا البيت المبارك زاده الله بركة ونماء بولادة الشيخ محمد ودعوته . وهـــو بيت العقيدة الصحيحة الذي شع منه النور في نجد ، ليعيد الضالين إلى الهـــدى والرشد والصواب . وإذا كانت أصول الشيخ زاكية طيبة فإن فروعه أربت بفضل الله ثم بفضل شيخ الإسلام على الأصول بركة وخيرًا[1] .

الثالـــث : عـــبد العزيز « الأول » ابن محمد لقد امتد ملكه بعد الجهاد المتوالي إعلاء كلمة الله وتثبيت دعائم الدين الحنيف وقواعد التوحيد . فشمل جمـــيع الديار النجدية والحجازية والإحساء والقطيف ورأس الخيمة والبحرين وتهامـــة ومـــا يليها من اليمن حتى وصل إلى كربلاء في النجف من أعمال

---

(١) صقر الجزيرة ، أحمد عبد الغفور عطار ، جـــ١ ص ٤١ – ٤٤ .

العـــراق . «اغـــتاله شيعي في ١٩ رجب سنة ١٢١٨هـــ »[١] . قتل الأمير عـــبد العزيـــز فـــي مســـجد الطريف بالدرعية بينما كان ساجدًا يؤدي صلاة العصر . فقدم عليه رجل من أهل العمارية المعروفة في بلاد الموصل فاغتال الإمـــام الشهيد عبد العزيز وراء الأخذ بالثأر بعد غزوة « كربلاء » وهي في نظر الشيعة البلد الحرام . وكان يرحمه الله آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم .

الرابع : سعود « الثاني » ابن عبد العزيز الملقب بالكبير لقد درج على ســـيرة أبيه ، وكان بطلاً مقدامًا حليمًا كريمًا ، وكان من أحسن الناس كلامًا وأجودهـــم بيانًا ، يسر الله له الهيبة عند الأعداء والحشمة في قلوب رعاياه ، فأمنت البلاد وقام بأمر الجهاد وفتح كثيرًا من البلاد في أيام أبيه وبعد وفاته ، وانتشر نفوذه حتى شمل جزيرة العرب .

لقد بويع بالإمامة قبل مصرع أبيه ، وكان قائدًا عظيمًا وعالمًا جليلاً ، وحاكمًـــا عدلاً لا تأخذه في الله لومة لائم . خضعت له جميع أنحاء الجزيرة العربـــية ، واســـتتب الأمـــن في جميع ربوعها ، فدانت لحكمة البلاد النجدية والحجاز واليمن وعمان ، ووصلت غزواته إلى حوران في بادية الشام . كما قاد الجيوش إلى النجف وكربلاء في العراق . وفي آخر أيامه بارزته السلطنة العثمانية بالعداء فأوعزت إلى واليها محمد علي بمصر ، لمحاربة الوهابيين ، وأرســـل الحملـــة تلـــو الحملة إلى الحجاز فهزمت هزيمة شنيعة بقيادة ابنه

---

(١) معجـــم الأنســـاب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، المستشرق زامباور ، ص١٩٠ ، أخرجه د/ محمد زكي وحسن أحمد ، ترجمة إسماعيل كاشف وحافظ أحمد وأحمد محمود .

« طوسون » . وفي عام « ١٢٢١هـ » : وردت الأخبار إلى مصر بأن الوهابيين قد دخلوا مكة والطائف والمدينة وغيرها من بلاد الحجاز فرتبوا فيه الأحوال وضبطوا الثغور . فساروا في الحجاز سيرة حسنة لم يبلغنا عنهم أنهم أحدثوا شيئًا من الحوادث سوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع شرب الدخان ظاهرًا ، وهدم القباب المبنية على القبور غير قبر رسول الله ﷺ ، فأنهم لم يتعرضوا له بشيء . ثم إن الشريف غالب صار يكاتب الدول ويحثهم على الخروج لقتال هؤلاء الوهابيين ويرميهم بالمنكرات مرة ويقول : إنهم خوارج يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم إلى غير ذلك .

وفي سنة ١٢٢٦هـ استعملت الدولة العثمانية محمد علي على الأقاليم المصرية ، وحثته على قتال الوهابيين واستنقاذ الحرمين الشريفين من أيديهم مع ما يضم إلى ذلك من بلدان الحجاز والثغور . فعند ذلك شهر محمد علي وجد واجتهد وبعث البعوث الكثيرة . وأمر ابنه محمد طوسون أن يسير بها إلى الحجاز ويقاتل الوهابيين ويستنقذ الحرمين الشريفين فوصلت الجموع الكثيرة إلى ينبع وقد ملأوا شعابها ورهادها خيولاً ورجالاً وأموالاً وأمتعة . والوهابيون مقيمون في وادي الصفراء وهم نحو سبعة الآلاف مقاتل . فحملت الأتراك على الوهابيين فثبتوا لهم حتى هزموهم . فولى الأتراك مدبرين يقتل بعضهم بعضًا بالرصاص تجنبًا لعدم الفرار .

ثـــم قال : إن الشريف غالب بن سرور أخذ يكاتب محمد علي ويشير علـــيه بـــأن يغري الأتراك ويجعل قسمًا منهم يأتون إلى ساحل ينبع وآخرين يأتون إلى ساحل الحديدة وساحل جدة حتى يعجز الوهابيون عن مقاتليهم .

لقـــد كتب الإمام سعود بن عبد العزيز كتابًا إلى السلطان سليم عندما دخل الحجاز واستولى على الحرمين الشريفين هذا نصه : (من سعود بن عبد العزيـــز إلى سليم : أما بعد : فقد دخلت مكة في اليوم الرابع من محرم سنة « ١٢١٨هـــ » ، وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعدما هدمت ما هناك من أشياء وثنية وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقًا ، وأثبت القاضي الذي وليـــته أنـــت طـــبقًا للشرع . فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس . فإن ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته) .

جاءت النجدات المصرية في عام « ١٢٢٧هـــ » فأعاد الكرة طوسون علـــى المديـــنة بعـــد أن احـــتل ينـــبع ، ووادي الصفراء ، وبدرًا ، واحتل المديـــنة المنورة . وقد استبشر الشريف غالب بهذا النصر ، ودخل طوسون مكة والطائف بمساعدته دون مقاومة .

ثـــم جـــاء محمد علي بالنجدات فوصل إلى جدة سنة « ١٢٢٨هـــ » ، فاستقبله فيها الشريف غالب ثم رافقه إلى مكة . وعندما استقر محمد علي فيها جـــازى الشـــريف غالـــب بان قبض عليه وعلى أولاده عملا بالأمر العالي أرسلهم مخفورين إلى مصر ، ونصب مكانه ابن أخيه يحيى بن سرور . وفي

سـنة « ١٢٢٩هـ »توفي الإمام سعود بن عبد العزيز في الدرعية ، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وقد خلف كثيرين : أكبرهم عبد الله ثم فيصل وتركي ومشاري وعمر وفهد وخالد و حسن وغيرهم[1] .

الخـامس : عبد الله بن سعود الملقب بالكبير تولى الإمارة بعد أبيه ، وكـان مستنير الذهن متصفا بالأمانة و الروية في أموره . لم يكن شجاعا في طـبقة آل سعود ، ولكن انتسابه إليهم كان يولد فيه قوة وحماسه تجعلانه يقدم إلـى مـيدان القـتال ، فاستطاع أن يثبت للمصريين بضع سنوات تقهقر في خلالها البلد و الأمة إلى الوراء .

وأخـذت أجـزاء الدولة العربية بموت سعود الكبير تتفكك ، وأخذت روحهـا القويـة الوثابة تضعف . وأول وهن أصاب الدولة في زمن عبد الله انحـلال أواصر القربى و انقسام الأسرة . وبدأ عهده بسلسلة من النزاع في داخل البيت الحاكم بينه وبين عمه عبد الله بن عبد العزيز ، فقد طمع العم في ابـن أخـيه حين رأى اللين و الهوادة . وليس قيامه على أبن أخيه طلبا لحق شـرعي مفقود منه ، وإنما كان طمعا فيه ولكن الله أعان ابن الأخ على عمه فانتصر عليه . غير أن الكدر أخذ يأتيه من ناحية أخرى ، فتسرب الوهن إلى قلـب حكومـته ، وبـدأت عناصـر القوة و الوحدة تنحل و تضمحل . وبدأ المرتـزقة يلقـون شـباكهم فـي مـياه العكـرة ، فبعـثوا إلـى محمـد والي مصر يشرحون له الحال وما وصلت إليه البلاد من الضعف والتفكك .

---

(١) تـاريخ ملـوك آل سـعود ، سمو الأمير سعود بن هذلول ، جـ١ ص١١ – ١٥ ، الطبعة الثانية .

فسنحت الفرصة لمحمد علي وهو الطامع في حكم العرب ، فرأى أن يبادر إليها ويجني منها ثمارها .

ولم يستطع عبد الله القضاء على الفتن و الثورات ، ولم يستطع (طوسون) التقدم متوغلا في نجد ، بل احتل (الرس) ووقف عندها . واضطر عبد الله إلى طرق أبواب المفاوضة علها تجديه نفعاً وتنقذه مما هو فيه . وعقد مع طوسون صلحاً سنة « ١٢٣٠هـ »كان بمثابة هدنة بين الفريقين ربح منها المصريون ربحاً عظيماً ، فتمكنوا من استجماع القوة ومعاودة الكرة . إلا أن محمد علي جهز جيشاً قوياً بقيادة ابنه إبراهيم فتقدم الجيش حتى وصل الحناكية بالقرب من المدينة المنورة وعسكر بها ، واخذ يرصد ما يستجد من الحوادث ، ويفكر فيما يصلح من الوسائل لحوز النصر بأرخص ثمن ، فرمى الذهب لبعض القبائل حتى خلب عقولهم بريقه .

ولبث في الحناكية ستة اشهر يغري العربان ويستغويهم ، ثم سار بجيشه الكثيف ميمما نجداً ، وأخذت المدن والبلدان والقرى تسقط بعد تقويض أسوارها بمدافعه الضخمة . وصار شغله الشاغل التفكير في فتح الدرعيه العاصمة ، فأخذ في تهديم أسوارها وإلقاء الرعب في قلوب أهلها بالقنابل التي تزعجهم ليلا ونهارا . فوالى الهجوم والتخريب ، فأسرع أهل الدرعية إلى أميرهم عبد الله وطلبوا منه أن يضع حدا لما هم فيه . فاضطر عبد الله إلى أن يخرج إلى إبراهيم ويسلم نفسه بلا قيد ولا شرط ، وذلك في اليوم

الثامن من شهر ذي الحجة سنة « ١٢٣٣هـ » فأرسل إلى الاستانه فأمر الباب العالي بقتلة رحمه الله[١] .

وقد كان دأب هذا البيت العربي النبيل ((بيت آل سعود)) منذ نشأته أن يجمع بين أطراف جزيرة العرب ، ويوحد بين أهلها وسكانها في دولة عربية واسعة الأطراف ، وقدم آل سعود الشهداء تباعاً على محراب هذا الهدف الأسمى .وهذا ما كان يخيف آل عثمان في أي حكم قائم على أسس أخرى . ومن تتبع المراحل التي مر بها الحكم السعودي فإن بدايته قد تمت بتعاهد الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب . وانطلقت الدعوة . فاستجاب البعض لدعوته وانضموا إلى الدولة مختارين ، ورفض آخرون الانضمام إلها . وكان العامل الديني أقوى العوامل في تحديد مواقف المؤيدين والمعارضين على حد سواء . على أن انضمام إمارات إلى الدولة مهما كان عددها قليلا في البداية ــ قد أخل بميزان القوة المحلية في نجد لصالح هذه الدولة . ولذلك كانت قوتها العسكرية راجحة أمام خصومها المحليين الذين كانوا بصفة عامة مفككين ، ومضت تحرز انتصارات تلو انتصارات متخطية ما قام أمامها من عقبات .

لقد تمكنت دولة الدعوة المنطلقة من مركزها في الدرعية توحيد نجد وقبائلها في مستهل القرن الثالث عشر الهجري . ولم ينته العقد الأول من ذلك القرن إلا وقد توطد حكمها في المنطقة الشرقية من البلاد . ثم دخلت طاعتها

---

(١) صقر الجزيرة العربية ، أحمد عبد الغفور عطار ، جـ١ ص١٨٩ – ١٩٤ .

منطقة عسير ، وفي مستهل عام « ١٢١٨هـ » دخل الأمير سعود بن عبد العزيز مكة المكرمة دون إراقة دماء ولم ينته الربع الأول من القرن الثالث عشر إلا وقد بلغت الدولة السعودية الأولى أوج اتساعها . لقد وحدت مع نجد كل شرقي الجزيرة العربية الإحساء والقطيف وقطر ، ومدت لها نوعاً من النفوذ في البحرين . كما دخل تحت حكمها الجهات التي تكونت منها في العصر الحديث دولة الإمارات العربية المتحدة ، وأجزاء من أرضي سلطنة عمان . أما غرباً فقد دخلت كل الأقاليم الحجازية تحت حكمها . كما دخلت منطقة عسير وتهامة ، وإقليم جازان .وامتدت رقعتها جنوباً حتى الربع الخالي . وأما شمالاً فقد أدخلت تحت طاعتها جميع أجزاء الجزيرة العربية الشمالية . وهكذا توحدت معظم مناطق الجزيرة العربية في دولة واحدة .

ولم يكن تطور الدولة السعودية الأولى بمنأى عن علم ولاة الدولة العثمانية وقادتها . لكنهم اعتقدوا في بداية الأمر أن القوة المحلية المعارضة لها قادرة على إيقاف مدها . ولما رأوا هيمنة قادتها على شرق البلاد ونجاحهم في صد حملات شريف مكة ، بل وإحراز النصر علية ، تحركوا ضدها . فأرسلوا حملتين من العراق للقضاء عليها ،لكن الحملتين فشلتا ، واستطاع قادة آل سعود أن يشنوا غزوات خاطفة داخل أراضي والى بغداد . ولما دخل الحرمان الشريفان تحت الحكم السعودي جن جنون العثمانيين ، وازداد تصميمهم على إنهاء هذا الحكم ، فعهدوا إلى والي مصر محمد علي بانتزاع الحجاز من السعوديين والقضاء على دولتهم .

وبعـــد أن اســـتعد محمـــد علي لحرب جعل قيادة الحملة المتجهة إلى الحجاز لابنه طوسون .

ولقيت هذه القوات هزائم في أول الأمر ، لكن انحياز شريف مكة سهل فيما بعد دخول المدن الحجازية الكبيرة .

وتزامن ذلك مع وفات الإمام سعود بن عبد العزيز القائد الذي لم تهزم له راية . فكسب محمد علي الجولة ثم توالت انتصارات قواته حتى تمكن ابنه إبراهـــيم من محاصرة الدرعيه . ورغم الصمود الذي أبداه الإمام عبد الله بن سعود فإن تدفق الإمدادات على جيش إبراهيم اضطر الإمام إلى الاستسلام له عام « ١٢٣٣هـــ » . وبذلك انتهت الدولة السعودية الأولى[١] .

---

(١) المرجع السابق ، جـــ١ ص١٥٦ - ٢٠٠ .

الدولة السعودية في دورها الثاني

بعـــد تدمـــير الدرعـــية من قبل إبراهيم باشا تفرقت الكلمة و برزت الأطمـــاع الذاتية ، وساءت أحوال البلاد لمدة ست سنوات . لكن آل سعود لم تلن عزيمتهم ، وكان المسلم به أن يظهر من آل سعود من يتولى قيادة الدولة من جديد ويرد اعتبارها ويستعيد مكانتها لتصبح دولة قوية مهيبة الجانب . فقد دفعـــت الغـــيرة الوطنية الإمام تركي بن عبد الله إلى تخليص بلاده من حكم أجنبي باغ لم يرع الله في الحرمات . وقد أقبل الناس من أنحاء نجد وانضموا إلى قيادته طائعين . وقد وفق الإمام واستطاع أن يكسر شوكة الطغاة ، ويعيد لنجد وحدتها وكرامتها بعد الفوضى والتفرقة والإنحلال التي أضاعت جهودا عزيـــزة بذلها آل سعود في سبيل العودة إلى مجتمع السلف الصالح ، سلامة عقيدة والتئام صف وتحاب في الله . لقد أعاد للدولة كيانها وطهر مجتمعها مما أفســـدته المشـــارب الدخيلة ووحد الصفوف التي فرقها الأجنبي . لهذا أصبح بحق (مؤسس الدولة السعودية الثانية) [1] .

السادس : تركي بن عبد الله بن سعود الكبير كان متنقلا في نجد هربا من إبراهيم باشا لئلا يقتله أو ينفيه كآل سعود ، وبعد قتال ونزاع صفا ه الجو ولكن إلى حين . بتولي تركي انتقلت الإمارة من سلالة عبد العزيز بن محمد إلـــى سلالة أخيه عبد الله بن محمد ، وما زال فيها إلى يومنا هذا . ويجدر بنا أن نشير إلى أن هذا مؤسس الإمارة السعودية في دورها الثاني بعد أن سقطت وقتل عبد الله بن سعود .

---

(١) في آفاق التربية الوطنية ، د/ سليمان بن عبد الرحمن الحقيل ، ص١١ .

واستطاع تركي بخلائقه الكبيرة أن يجعل اسم آل سعود حيا في نفوس العـــرب ، ولـــو لـــم يـــنجح في تشييد صرح الدولة كما نجح سعود الكبير . فـــالأعداء قد أحاطوا به من كل جانب ، وشغلوا حياته و تفكيره . فهو دائما مهـــاجم أو مدافع ، إما انتزاع الأرض اغتصبت منه ، وإما دفاعا عن رقعة تحت يده يخشى أن تفلت منه . وماذا يصنع وخصومه التفوا به و ماذا يعمل وقد فشا الفساد والسطو والقتل في رابعة النهار أكثر منه في جنح الليل .

وفي سنة « ١٢٣٥هـــ » غادر تركي الرياض هاربا من الأتراك الذين حاصـــروها . وفي نفس الوقت ثائرا عليهم معلنا أن العرب أولى من غيرهم بحكـــم أنفســـهم . و مضـــى يجمـــع الكلمـــة ويوحد الصفوف ويقضي على المنازعات الداخلية حتى استولى على العارض بعد أن نازع الترك . ثم غزا الإحساء والقطيف وفتحها ، وادخل كثيرا من القرى والمدن تحت حكمه ، وقد جعل الرياض عاصمة حكمه .

وفي سنة « ١٢٤٩هـــ » خامرت مشاري بن عبد الرحمن فكرة اغتيال خالـــه الإمام تركي و الاستيلاء على الحكم . ثم نفذ فكرته في جرأة وحماقة بواســـطة خادمـــه الـــذي اغـــتال الإمـــام عقـــب خـــروجه من المسجد بعد صلاة الجمعة . وكان فيصل بن تركي ابن القتيل في أطراف القطيف ، ومعه جـــيش لجب يؤدب به العصاة المارقين . فوصله نبأ أبيه على يد مشاري بن سعود فأعد السير راجعا إلى الرياض يطالب بدم أبيه المقتول ظلما وعدوانا .

وفـــي الحـــادي عشـــر مـــن صفر سنة « ١٢٥٠هـــ » وصل الرياض وقتل مشاري[١] .

السابع : مشاري بن سعود : وهو لم ينعم بالإمارة .

الثامـــن : فيصـــل بن تركي بن عبد الله : استقر الحكم له فنشر راية العـــدل والحق في جميع أنحاء البلاد . بعد ما خلفه الجاني مشاري في إقدامه على اغتيال خاله ، فجعل آلامه في وجل من جريمته إلى أن تدارك الله البلاد والعـــباد بولده الإمام فيصل بن تركي الذي تنحى عن الإمارة بسبب الضغط التركي المصري . وسلم نفسه لقائد الحملة خورشيد باشا فجهزه وأرسله إلى مصر .

التاســـع : خـــالد بن سعود الكبير : وقد تولى الإمارة في ظل الحكم العثماني مدة سنتين وخلع ووضع مكانه عبد الله بن ثنيان .

العاشـــر :عبد الله بن الثنيان بن إبراهيم بن الثنيان بن سعود الأول ، وقد أسرع فيصل بن تركي باسترجاع الإمارة منه .

الحادي عشر : فيصل بن تركي بن عبد الله (للمرة الثانية) أراد الله فرج للديار النجدية مما هي فيه من ضيق ومحن . فقد تمكن الإمام فيصل بن تركـــي مـــن الهرب من القصر الذي اتخذه حاكم مصر مقرا له ، وعاد إلى وطـــنه ومكـــنه الله مـــن استرجاع ملكه . وكان الإمام فيصل دائبا على نشر

---

(١) صقر الجزيرة العربية ، أحمد عبد الغفور عطار ، جـــ١ ص١٩٦ – ١٩٨ .

الطمأنينة والسلامة والعدل في طول البلاد وعرضها . وكان أخوه جلوي السيف القاطع بيده ، ومع هذا لم تسلم البلاد من بعض الفتن والقلاقل .

وقد كان فيصل إماما عادلا حليما مهابا وافر العقل كريما ، حسن السيرة ، رفيع الأخلاق ، محبا للعلماء ، كثير الخوف من الله ، ناسكا كثير العبادة . وقد أعقب أربعة أنجال هم : (عبد الله ، محمد ، سعود ، عبد الرحمن)[1] .

الثاني عشر : عبد الله بن فيصل بن تركي : بموت فيصل بن تركي فقدت نجد شخصية عظيمة ووقع التنافس بين ولديه عبد الله وسعود. وكان من نتيجة الخصومات والمنازعات التي استمرت أكثر من ثلاثين سنة ، انحلال دولتهم . وكان عبد الله حمل على قبائل (عجمان) لتعديهم على الحجاج فهزمهم قرب الكويت . فراحوا شمالا وتحالفوا مع حاكم البحرين ، وتقدموا إلى الهفوف فحاصروها ، واخذ عبد الله بمساعدة أخيه محمد فترة كبيرة في مهاجمة الهفوف لاستردادها ، وفي ذلك الوقت سارع سعود وأعوانه في احتلال الرياض ، ويبدو أن عبد الله قد هزم في الهفوف . وأخذ ينتقل حتى وصل إلى محمد بن الرشيد في حائل ، فلم يجد صدرا منه . وأخيرا اتصل بمدحت باشا والي بغداد من قبل العثمانيين ليستمد منه المعونة ضد أخيه فوجد مدحت هذه الفرصة سانحة للاستيلاء على الإحساء ، واستعان لتحقيق غرضه (بحاكم الكويت ورئيس قبيلة المنتفق ، وقبيلة بني خالد) ، وهكذا انسلخت

---

(١) الاستراتيجية ودور عباقرة الفكر العسكري في تطورها ، للمؤلف ، ص١٨٧ – ١٨٨ .

الإحساء من أيدي الأخوين إلى أيدي الأتراك . وبقي عبد الله متنقلا طوال مدة حكم أخيه حتى مات سعود وتولى بعده أخوه الأصغر عبد الرحمن .

الثالث عشر : سعود بن فيصل بن تركي : أراد سعود أن يسترد الإحساء من الأتراك بعد أن أضاعها أخوه عبد الله ، فأرسل أخاه عبد الرحمن (والد الملك عبد العزيز) إلى بغداد . حيث مكث بها أربع سنوات دون أن يصل إلى نتيجة فعاد ، وعندئذ قام سعود بحملة على الإحساء ولكنه لم يتمكن من غزوها ، وعاد إلى الرياض حيث توفي سنة « ١٢٩١هـ » .

الرابع عشر : عبد الرحمن بن فيصل بن تركي : بايع أهل الرياض عبد الرحمن بعد موت سعود ، إماما لهم وحاكما عليهم ومضى على ذلك نحو سنة . غير أن عبد الله بن فيصل عز عليه أن يرى أخاه الأصغر حاكما في الرياض وأعلن نفسه إماما وحاكما عليها . ورأى عبد الرحمن حين إذ أن يتنازل لأخيه عن الإمارة ليضع حدا للفتن الداخلية التي أنهكت دولتهم .

لكن هذا الحكم لم يدم طويلا لعبد الله لأن خصومه وأعداءه تمكنوا من القبض عليه وحبسه سنة « ١٣٠٥هـ » . وعندئذ أسرع محمد بن الرشيد أمير حائل إلى مساعدة عبد الله بن فيصل و فك أسره وأخذه معه إلى حائل . وأقام في الرياض عاملا من قبله بجانب عبد الرحمن بن فيصل ثم ما لبث أن استقدم عبد الرحمن أيضا إلى حائل ليقيم مع أخيه عبد الله . وفي سنة « ١٣٠٨هـ » أذن ابن الرشيد لعبد الله وعبد الرحمن بسكني الرياض غير أن المنية لم تمهل عبد الله بن فيصل فمات بعد وصوله .

أمـــا عـــبد الرحمن فلم يرض لنفسه أن يكون تحت رحمة ابن الرشيد بالـــرياض فأتفق مع أهل القصيم على مبايعته ومباغتة ابن الرشيد في حائل . ومـــا أن علـــم الأخير بذلك حتى هاجمهم في موقعة المليدة . حاول بعد ذلك عـــبد الرحمـــن أن يسترد الرياض له ذلك . ولكن الأعداء أعدوا جيشا قويا لمهاجمـــة الرياض ، لذلك أيقن عبد الرحمن أن الأمر أصبح فوق مقدوره . فترك وأسرته نجد إلى الإحساء فالقطيف فالكويت حيث استقر بها ونزل ضيفا على أميرها من آل الصباح في سنة « ١٣٠٩هـــ » . ولم يزل على هذا الحال حـــتى أذن الله فقـــام الفـــتى عبد العزيز ابنه بمغامرته التي كانت نتيجتها أن اســـتولى علـــى الـــرياض فاستعاد بذلك عاصمة ملكهم القديم ، ووضع أسس الدولة السعودية الحديثة[1] .

انتهت الدولة السعودية الثانية برحيل الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركـــي آل سعود وعائلته إلى الإحساء فالبحرين ثم قطر بمنازل بني مرة في الـــربع الخالـــي ثم الكويت . وكان ذلك نتيجة لمعركة « المليدة » الثانية سنة «١٣٠٨هـــــ » بيـــن ابـــن رشيد وأهل القصيم المحالفين للإمام عبد الرحمن آل ســـعود ومعـــركة « حـــريملاء » ســـنة « ١٣٠٩هـــــ » بين قوات الإمام عـــبد الرحمن وابن الرشيد . حيث انتهت هاتان المعركتان الصالح ابن رشيد ضـــد الإمام عبد الرحمن وتولية إمارة الرياض اسميًا الأمير محمد بن فيصل آل ســـعود حتى توفي سنة « ١٣١١هـــ »وقد نزل الإمام عبد الرحمن وعائلته ضـــيفاً على آل صباح كنوع من النفي بترتيب من الدولة العثمانية ، لتضمن

---

(١) المملكـــة العربـــية الســـعودية في إطار تاريخ الوطن العربي الكبير ، د/حسين محمود وسيد محمد ، ص١٠٣ – ١١٠ .

عدم تكرار محاولته لتأليب القبائل على الدولة العثمانية . وعلى حليفها الجديدة ابـــن الرشيد ، ولئلا يستنجد بالعدو الجديد بالمنطقة بريطانيا التي تحاول بسط نفوذهـــا فـــي المـــنطقة . بعد أن أصبح لها الحماية لبعض أجزاء من الخليج العربي وعدن ، ولها معاهدات حماية مع أمراء هذه المشيخات بما يحفظ لها تأميـــن وحمايـــة أساطيلها في البحر العربي والخليج العربي . خصوصا وأن الدولـــة العثمانـــية كانت تهيمن على معظم الأقطار العربية وأجزاء من شبه الجزيـــرة العربية ، فهي موجودة بالعراق وسوريا وفلسطين ومصر وبعض أقطـــار المغـــرب العربـــي . وتحكم هذه الأقطار عن طريق ولاياتها ، ولها جيوش في بعض هذه الأقطار تأتمر بالقيادة العامة من الاستانة[1] .

وليست تركيا وبريطانيا التي أصبح لهما موطىء قدم في شمال وشرق شبه الجزيرة هما الدولتان اللتان لهما أطماع بالسيطرة على المنطقة فقط . فقد كانـــت كل من ألمانيا وروسيا تحاولان التنافس على المنطقة ، وخاصة شمال الجزيرة العربية والخليج العربي . فقد مدت ألمانيا سكة الحديد من برلين إلى بغـــداد لاستغلال خيرات المنطقة ، كما كان لروسيا رؤيتها في إمداد نفوذها ومحاولـــة وصـــلها إلى المياه الدافئة التي تربطها بالمحيط الهادي وقد ظهر عـــبد العزيـــز آل الرشيد بتوليه الحكم سنة « ١٣١٥هـــ » كأكبر قيادة تتزعم نجـــد ، وتمـــد أطماعها لتصل إلى الخليج بالتعاون مع الدولة العثمانية . وفي الكويـــت استولى الشيخ مبارك الصباح على السلطة سنة « ١٣١٣هـــ » وبرز

---

(١) توحيد المملكة العربية السعودية ، محمد المانع ص٣٥ . شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عـــبد العزيـــز ، خير الدين الزركلي ، ص٥٦ – ٥٧ . تاريخ الملك عبد العزيز ، أمين ابن سعيد ص١٨٤.

كقــوة لهــا أطماع منافية لابن الرشيد مما دفعه أن يوقع معاهدة حماية سنة « ١٣١٦هـــ »بينه وبين بريطانيا . ونتيجة لهذه المعاهدة أرادت تركيا تأديب الشيخ مبارك بتحريض ومساعدة ابن الرشيد ضد الشيخ مبارك ، وأرسلت له بعض الأسلحة مما قوى جناحه ، وبدأ بإخضاع القبائل . فجمع الشيخ مبارك قــوة من أهل الكويت والقبائل القريبة منه ، وأمراء بريدة وعنيزة ، كما بدأ بالاتصـــال بأهل القصيم لمناصرته في الوثوب على ابن رشيد ، وجهز حملة أتجه بها لمنازلة ابن الرشيد ، وكان من ضمن هذه الحملة الإمام عبد الرحمن الفيصل آل سعود حيث استنجد به للاتصال بالعجمان وبني مرة لمناصرة ابن الصباح .

وكــان الأمــير الفــتى عــبد العزيز يرافق والده في المفاوضات مع متصــرف الإحســاء لتسلية ولاية الرياض بعد أن احتلها ابن الرشيد شريطة إعلان خضوعه للدولة العثمانية في إعطائها مبلغاً من المال باسم الخراج وقد اعتذر الإمام عن تنفيذ هذه المفاوضات ، ووصل مع أفراد عائلته إلى الكويت إلـــى أن أنقــذ الله الــبلاد على يد جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصــل . الــذي كان يرافق والدة في أكثر أوقاته وحضر مجالسه ، فتعلم كثــيرا من أحوال العرب وألم بتاريخهم . وكان يدقق في كل صغيرة وكبيرة لــيقف علــى حقائق الأمور فلا يذهل عنها ، لأنه كان يعتقد بأنها تسعفه في تحقيق الأهداف الجليلة التي كان ينشدها وهو في ديار غربته وعزلته .

لقــد رأى عبد العزيز عمومته تنازعون الملك ويتحاربون في سبيله ، ورأى كيف استغل عدو بيته (ابن الرشيد) هذا الخلاف فانقض على الوطن الــنجدي يحتل مدنه واحدة تلو الأخرى . وشاهد والده كيف كان يستبسل في

الـــذود عن الحمى المستباح ، ولكنه يخفق في جهاده لان خصومه سبقوه إلى الاحتفاظ بالمبادرة . وعملوا في إيقاع الشقاق وبذور الفساد بين رؤساء البلاد وزعمـــاء القبائل والعشائر واستغلوها لحسابهم ودعما فيها مصلحتهم ، فكان لهـــم فـــيها ما أرادوه غصبا بحد السيف . ولعل في هذا الاغتصاب ما جعل الأمـــير الفـــتى عبد العزيز يطرح القلم جانبا ويلتفت إلى السيف وحده ليكون فصل الخطاب وهكذا كان[1] .

(١) تاريخ نجد ، عبد الله فلبمي ، ص١٨٤ – ٢٧٦ . تاريخ ملوك آل سعود ، سمو الأمير سعود ابن هذلول ، ص٥٥ – ٥٧ .

الدولة السعودية في دورها الثالث

الخامس عشر : عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل . كان الأمير الفتى عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، دائم القلق على الوضع الـذي تكـبده بـلاده تحـت سلطان ابن رشيد وحكمه الجائر ، وأطلع والده عـبد الرحمـن على نواياه ، وأشفق الوالد على ولده أن يذهب ضحية وطنه الغالـي ، فـراح ينصـحه أن يترك التفكير في هذا الموضوع إلى الفرص المواتية .

إلا أن الأمـير عبد العزيز أصر على تنفيذ قراره باستعادة الرياض ، وراح يسـتجدي موافقة والده على العمل العظيم بأساليب مختلفة إلى أن وافق الوالـد إلى طلب الولد مشترطا عليه أمرا واحدا . ذلك انه في حالة انتصاره واسـتعادة العاصمة الرياض ، يبقى حاكما عليها لأنه شخصيا لا ينشد الحكم والسـلطان . وقـد واجهـت الشاب عبد العزيز الكثير من الأحداث العربية والعالمية أثناء البدء في تحركاته و التي تتلخص في الآتي :

١- الأحـداث العربـية أثـناء بداية تكوين الدولة السعودية الثالثة :

كانـت الساحة العربية مليئة بالأحداث و صراعات السلطة . ففي أول القـرن الثالـث عشـر الهجـري كانـت الدول الاستعمارية تتجه بأنظارها وأطماعها إلى أملاك الدولة العثمانية التي انتابها شيء من الفتور والانكماش

نتـيجة الخلل الداخلي . وفي أوائل القرن الرابع عشر الهجري بدأ نجم الدولة العثمانـية في الأفول . فقد قامت ضدها حركات من داخلها في الدول العربية إلا أن سـيادتها بقيـت نتيجة اختلاف الدول الاستعمارية في مطامعها لتقسيم ممـتلكاتها المترامية الأطراف . هذه الممتلكات هي الدول العربية ، كيف لا والعـرب يشـغلون حـيزا من الكرة الأرضية يقع بين المحيط الهندي وخط الاسـتواء جـنوبا ، والخليج العربي وإيران شرقا ، وجبال طوروس وساحل الـبحر الأبـيض المتوسط الجنوبي شمالا ، والمحيط الأطلسي غربا . وهي مسـاحة شاسـعة تزيد على أربعة ملاين وربع المليون من الأميال المربعه موزعـون فـيها على ممالك وجمهوريات وسلطنات وأقطار محمية ومناطق تحت الإدارة الدولية ومستعمرات يبلغ عددها تقريبا نحو الخمسين مستعمرة .

مـع ذلـك فهي جميعا متجاورة متلاصقة لا تكاد تفصل بين الواحدة والأخـرى حواجـز جغرافـية . وتربط بين رعاياها وحدة الدين الإسلامي ووشـائج من المصالح الاقتصادية ، والوحدة الثقافية . وتجمع بين هذه الدول الوحـدة المتكاملة التي حققتها الفتوحات الإسلامية في فترات متلاحقة أشكال مخـتلفة لأمـن الوحدة السياسية . بل إنها في أكثر من عهد بدت جميعا دوله واحـدة إلا أن هناك أسباب أدت إلى الفرقة بين العرب والتي فتتت في عضد تلـك الوحدة . لقد بدأ الملك عبد العزيز في إعادة ملك آبائه وتكوين دوله في فـترة مـن أصـعب الفترات المليئة بالأحداث وصراعات السلطة والأطماع الاستعمارية في لساحة العربية والتي تتلخص في الآتي :

أ- المملكة العربية السعودية قبل توحيدها :

شـــهدت الدولة السعودية الثانية ما شهدت مما شجع محمد بن الرشيد على الرياض رغم كفاح الأمير عبد الرحمن بن فيصل لاستعادة ملكه . وعز علـــيه أن يســـتمر على الحياة في الرياض التي حكمها آباؤه وأجداده حكاماً مكرميـــن بيـــنما مـــندوب ابن الرشيد هو صاحب الأمر والنهي فيها . فقرر الهجـــرة من وطنه إلى الكويت بعد أن عرض عليه أميرها ضيافته . وأيضاً بعد رفضه لمبعوث الحكومة التركية التي بدأت تستريب من موقف آل رشيد فعرضـــوا على الأمير عبد الرحمن أن يساعدوه في استعادة الرياض بشرط قبوله أن يضعوا فيها قوة عسكرية وأن يعترف بتبعيته لهم .

وبذلك تجمع ضده حقد آل الرشيد وعداوة الحكومة التركية . وقد انتقل الأمـــير عـــبد الرحمـــن وأسرته إلى الكويت ، حيث عاش الملك عبد العزيز طفولـــته في الكويت تلك أول نافذة له على الحياة الدولية . ولكي يقدر المرء المدى الكامل لإنجازات الملك عبد العزيز عليه أن يعرف شيئاً عن مجريات السياسة في جزيرة العرب قبل البدء في تحركه لاستعادة ملك آبائه وأجداده .

فقـــد كان معظم جزيرة العرب في بداية القرن الرابع عشر الهجري تحت نفوذ أو حكم الدولة العثمانية التي كانت حينذاك لا تزال قوية رغم قرب نهايتها . ففي المنطقة الغربية كانوا يحكمون الحجاز بواسطة الشريف حسين بـــن علـــي أمـــير مكة المكرمة آنذاك ، وكذا الحال بالنسبة للمنطقة الجنوبية بوسطه آل عائض والأدارسة .

أمـــا فـــي المـــنطقة الشمالية فكانوا يسيطرون على الهلال الخصيب وحاولوا أن يسيطرون على المنطقة الصحراوية في جزيرة العرب بمساعدتهم

للقـبائل الذيـن بـدوا لهم أقوى من غيرهم ، إلا أن هذا النجاح التركي كان مؤقتاً .

أما بالنسبة للمنطقة الوسطى للمملكة فهي في معظمها صحراء واسعة أو مـدن صغيرة حول واحات قليلة يقطنها كثير من القبائل . وكان يوجد بها أسرتان بارزتان إحداهما آل الرشيد ومركزها حائل ، والثانية آل سعود التي كـان مقـرها الرياض والتي كان لها تاريخ متميز عن غيرها . إلا أن دعم الحكومة التركية لآل الرشيد مقابل ولائه لهم مكنه من الاستيلاء على الرياض و مغادرة الإمام عبد الرحمن و أسرته لها . وأصبحت القبائل التي تعيش في نجـد وأهل الرياض في خوف من بطش ابن الرشيد وظلمه لأن البلاد خالية مـن حـاكم حقيقـي يقبض على الزمام و يقضي على الفوضى التي أحدثها ابن الرشيد بفتكه لكل من يعارض سياسته أو يخرج عن نفوذه[1] .

ب- دول الخليج العربيّ :

١- سلطنة عمان :

هـي تقـع فـي أقصى الجنوب شرق الجزيرة العربية ويبلغ طول شـاطئها نحـو ألف ميل تقريبا ، احتلها البرتغاليون ثم تداعى نفوذهم وتمكن العـرب مـن طردهم . ونشأت أسرة (آل أبو سعيد) في بداية القرن الثاني عشـر الهجـري تقـربًا وزاد نفوذها في المنطقة . وفي أوائل القرن الرابع الهجـري ثـارت قـبائل المناطق الساحلية . وعقدت سلسلة من المعاهدات

---

(١) الدول العربية الكبرى ، محمود كامل المحامي ، ص٤٣٣ – ٤٥٧ .

البريطانية التي تعد ملزمة دوليا إلا أن مركزها كان أوضح من مراكز غيرها من الدول الخليج العربي ، وأنها تعد من أشخاص القانون الدولي .

٢- دولة الكويت :

تقع شمال غرب الخليج العربي ، وقد برزت أسرة (آل الصباح) في نهاية القرن الثاني عشر الهجري تقريبا ضمن بضع أسر عربية ينتسبون إلى القبيلة العربية نفسها التي ينتسب إليها أكثر من أسرة في شبه الجزيرة العربية ، وهذه القبيلة هي قبيلة (عنزة) .

ومؤسس أسرة آل صباح الحاكمة هو صباح الأول الذي تولى الحكم في نهاية القرن الحادي عشر الهجري تقريباً . وفي نهاية القرن الثالث عشر الهجري حدث خلاف أدى إلى قتل مبارك الصباح أخاه محمد وأعلن نفسه أميراً على الكويت . فأوعزت الحكومة التركية إلى ابن الرشيد بأنه يجب أن تمتد سطوته إلى الكويت ، ووعدته بأن تتنازل له عن ميناء الكويت إذا طرد مباركاً واعترفوا بسلطة الحكومة التركية لها . كما بدأت ألمانيا تسد جزءاً كبيراً من احتياجات تركيا العسكرية فطلبت من الحكومة التركية منحها امتياز مد خط سكة حديدية يصل إلى بغداد . وعرضت على الشيخ مبارك بمنحه امتياز محطة لنهاية تلك السكك الحديدية التي سوف تصل إلى الكويت . إلا أن مبارك رفض ذلك العرض طبقا للاتفاق الذي كان معقودا بينه وبين بريطانيا . حرض الألمان الحكومة العثمانية التي كانت الكويت تتبعها اسميا على إرسال حملة عسكرية لتأكيد سيطرة العثمانيين عليها . وبدا

ابـــن الرشـــيد هجومـــه وتغلب على قوات مبارك في موقعة (الصريف) . واستمر في تقدمه حتى وصل بالقرب من ثغر الكويت .

خـــلال ذلـــك وصلت بارجة بريطانية وأعلن قائدها أن مبارك صديق للحكومـــة البريطانـــية وأنهـــا تحميه ، فانسحب ابن الرشيد من الكويت . لقد شـــهدت الكويـــت فـــي بداية القرن الرابع عشر الهجري الصراع عليها بين بريطانـــيا وألمانيا وروسيا وتركيا . وذلك لموقعها الجغرافي القريب من الهند تاج الإمبراطورية البريطانية والمتصل بدروب الجزيرة العربية شمالا وشرقا وجنوبا حيث كان للدولة العثمانية المكان الأول في تلك الجزيرة ، فضلا عما توقعـــه الجيولوجـــيون من وجود الزيت فيها . وأخيرا عقدت المعاهدات مع بريطانـــيا لفـــرض حمايـــتها على الكويت من أي اعتداء واعترفت باستقلال الكويت الداخلي[1] .

٣- دولة البحرين :

تـــتكون مـــن أرخبـــيل من الجزر في خليج البحرين تحد شرقاً بقطر وغـــرباً بالمملكـــة العربـــية الســـعودية . احـــتلها البرتغالـــيون في أواخر القـــرن العاشـــر الهجري تقريباً . ولكن العرب أخرجوهم منها في أواخر القـــرن الثانـــي عشر الهجري تولى أسرة (آل خليفة) حكم البحرين ، وهذه الأســـرة تنتســـب إلـــى قبيلة عنزة في بطن الجزيرة العربية . ومؤسس هذه الأسرة محمد بن خليفة ، وأول من انتقل إلى البحرين هو ابنه الملقب (أحمد الفاتح) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٧٤ – ٤٧٨ ، وص٤٨٢ – ٤٩٠ .

ففـــي بداية القرن الثالث عشر الهجري ارتبطت دولة البحرين بمعاهد مع الحكومة البريطانية لحمايتها مقابل اخذ امتياز التنقيب عن البترول .

٤- دولة قطر :

عـــبارة عـــن شبه جزيرة تقع في منتصف الجانب الغربي من الخليج العربـــي . وتتولى حكم قطر أسرة (آل ثاني) ، ويعود حكم الأمير علي ابن عـــبد الله آل ثاني إلى القرن الرابع عشر الهجري تقريباً . وعقدت معاهدات مع بريطانيا لحمايتها مقابل أخذ امتياز التنقيب عن البترول .

٥- دولة الإمارات العربية المتحدة :

ســـاحل المهادنـــة ســـابقاً ، تقـــع في جزء من الجانب الغربي للخليج العربي ، وتتكون من سبع مشيخات هي : (أبو ظبي ، دبي ، الشارقة ، رأس الخـــيمة ، أم القوين ، عجمان ، الفجيرة) . وأهمية هذه المشيخات من وجهة الـــنظر الاقتصـــادية تنحصر في إمكان العثور على البترول في أراضيها . وعقدت سلسلة من معاهدات الحماية التي تربط هذه المشيخات ببريطانيا مقابل مـــنحها امتـــياز التنقيـــب عن البترول . وكانت هذه المشيخات تسمى ساحل المهادنة قبل توحيدها في دولة واحدة[١] .

جـــ- الجمهورية العربية السورية :

فـــي أوائل القرن الرابع عشر الهجري أعلن الأمير فيصل بن الحسين

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٩٠ – ٥٠١ .

قـــائد جنود الثورة العربية تأليف حكومة عربية تشمل جميع البلاد السورية . وأصـــدر مؤتمـــر الصلح قراراً بفصل البلاد العربية عن تركيا ، وإيفاد لجنة تحقيق دولية لدراسة أحوال تلك البلاد العربية و تبين رغبات أهلها . وخلال ذلـــك أرســـل رئـــيس الحكومة البريطانية مذكرة تضمنت انسحاب الجيوش الإنجلـــيزية من سوريا ، ويحل محلها جنود فرنسيون في غرب الخط المعتبر في معاهدة (سايكس بيكو) ، وأن المقاطعات التي يبقى فيها الجنود الإنجليز هـــي العراق وفلسطين . إلا أن العرب احتجوا بشدة على تعيين الحدود لأنه مقدمة لتجزئة البلاد ورفضوا هذه التجزئة .

وأعلـــن المؤتمـــر الوطنـــي السوري اختيار فيصل ملكاً على سورية وطلـــب استقلال العراق إلا أن مجلس الحلفاء الأعلى صدق على منح فرنسا ســـلطات الانتداب على سورية . فدخلت القوات الفرنسية دمشق وتمكنت من إجـــلاء قـــوات الملـــك فيصل عنها بعد أن هب الشعب السوري للدفاع عن استقلاله ، وكانت معركة (ميسلون) التي تعد من أيام سوريا الخالدة .

د- الجمهورية العربية اليمنية :

وكانـــت تســـمى بالمملكـــة المتوكلـــية اليمنـــية ، ففـــي أوائل القرن الرابع عشر الهجري بويع الإمام أحمد يحيى بن محمد حدميد الدين من أسرة (القاســـم الراسي) التي تحكم اليمن من القرن الثاني الهجري تقريبا . استمر مقاومة اليمنيين للأتراك في سبيل تحرير وطنهم من الحكم التركي . ولم يتنه هـــذا الصراع إلا بعد مضي سبعة أعوام من تولية الإمام يحيى بتوقع معاهدة

بيـــن البلديـــن اعترفت بالإمام كتابع للخليفة العثماني ، وله حق تعيين حكام المـــنطق ورؤساء القبائل على أن يدفع عشر موارده للحكومة التركية . وبعد جـــلاء الأتراك عن اليمن تنفيذاً لمعاهدة الصلح عقب الحرب العالمية الأولى اتخذ الإمام يحيى صنعاء مقراً لحكمه .

أمـــا عـــن اليمن الجنوبي الذي يشمل عدن ومحمياتها ، فقد ارتبط مع بريطانـــيا بـــأحلاف جعلـــته مـــن مستعمراتها في أوائل القرن الثاني عشر الهجـــري . وتـــتكون المحمـــيات مـــن محميات عدن الغربية وعددها اثنتان وعشرون ، أما محميات عدن لشرقية فتتكون من ثمان محميات . وقد استغلت السياســـة الاســـتعمارية البريطانية الخلافات الدينية ، وذلك للتفرقة بين أهل اليمنيين وجيرانهم من أهل المحميات[1] .

هـــ- المملكة الأردنية الهاشمية :

تقع شرق نهر الأردن التي كانت تديرها الحكومة التركية إدارة رسمية وهـــي متمتعة بنوع من الإستقلال ، وكانت تابعة لولاية سوريا . وفي أوائل القـــرن الـــرابع عشر الهجري استدعى المندوب السامي البريطاني لفلسطين أعيان السلطة أهم مدن المنطقة ، وأخبرهم أن الحكومة البريطانية اعتزمت أن تمـــنحهم حكومة ذاتية . وأن بريطانيا اعتزمت فصل الأردن عن فلسطين ، وعينـــت الحدود بين سوريا ولبنان من جهة ، والعراق وفلسطين بما في ذلك شـــرق الأردن مـــن جهـــة أخرى . وصل الأمير عبد الله بن الحسن مع قوة

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٩٨ – ٤٠٧ ، وص٤١٠ – ٤١٣ ، وص٤٦٣ – ٤٧٣ .

عربية إلى معان وأعلن اعتزامه قيادة ثورة ضد الفرنسيين في سوريا ثم تقدم إلى عمان ، ولم يعترض البريطانيون على ذلك فتولى إدارة المنطقة .

وفـــي مؤتمـــر القاهـــرة الذي عقد بناء على دعوة (تشرشل) وزير المســـتعمرات البريطاني اعترف بالأمر الواقع ، وبعبد الله حاكما على شرق الأردن بشرط عدوله عن مهاجمة الفرنسيين ، وقبوله الحماية والمعونة المالية البريطانية . كما اعترفت بريطانيا بقيام حكومة مستقلة في شرق الأردن تحت حكـــم الأمير عبد الله و الذي عمل على استقلال هذا القطر وفي إعلان نفسه ملكا عليه .

و- الجمهورية العراقية :

كـــان العراق محتلا خلال الحرب العالمية الأولى من قبل بريطانيا ، وكـــان التصريح البريطاني الفرنسي قد جاء فيه : إنهما متفقان على المعاونة فـــي إقامـــة حكومـــة و ارادات وطنية في العراق تستمد سلطتها من انتخاب الشـــعب بها ، وأن العراق لا يجب أن يندمج سياسياً مع باقي العالم العربي ، بـــل يجب أن يبقى منعزلاً عنه بالقدر الذي يجعل منه حاجزاً خاضعاً للرقابة البريطانـــية . وعلى إثر ذلك عبأ العراقيون الذين كانوا مع فيصل بن الحسين فـــي ســـوريا الشعور الوطني في مدن العراق ، وقربوا مسافة الخلاف بين السنيين و الشيعة . وفي اليوم نفسه الذي اجتمع فيه المؤتمر السوري لإعلان استقلال سوريا ومبايعة فيصل بن الحسين ملكاً عليها اجتمع المؤتمر العراقي فـــي دمشـــق لـــيقرر إعلان استقلال العراق تحت ملكية الأمير عبد الله بن الحسين .

إلا أن معـــاهدة (ســـيفر) فصـــلت العـــراق عن الدولة العثمانية ، واعترفت بها مؤقتا دولة مستقلة بشرط أن تتولى إدارتها دولة منتدبة إلى أن تصـــبح قـــادرة علـــى حكم نفسها بنفسها . ونتيجة لذلك انتقل النشاط العربي الوطنـــي مـــن مرحلة الإثارة إلى مرحلة التحدي السافر . مما اضطر وزير المستعمرات البريطاني تشرشل إلى عقد مؤتمر في القاهرة استقر فيه على أن يكـــون فيصل بن الحسين ملكاً على العراق . كما تم عقد معاهدة مع بريطانيا لمدة عشرين عاماً ، وحق امتياز البحث عن زيت البترول لمدة خمسة وسبعين عاماً[1] .

ز- الجمهورية اللبنانية :

مـــنذ بـــدء الفتوحات الإسلامية خضعت البقاع لسيادة الدولة العربية الكـــبرى عـــدا مجموعـــة من المسيحيين محتمين بجبل لبنان . وبعد وصول الصليبيين انتعش النفوذ المسيحي في لبنان وقسم إلى إدارات مسيحية صغيرة . وفـــي القرن التاسع الهجري ضم لبنان مع سوريا إلى الدولة العثمانية ، وفي القرن العاشر الهجري ثار الأمير فخر الدين الدرزي على العثمانيين حتى ضم حدود لبنان الطبيعية ، وحصل على موافقة العثمانيين بأن يلقب سلطاناً . ولما ضعفت سطوته انتخب اللبنانيون أُسرة شهاب ، وأبرز من حكم لبنان من هذه الأسرة بشير الثاني المعروف باسم الشهابي .

وفي القرن الثالث عشر الهجري حصلت الدولة العثمانية على موافقة الـــدول الأوربية على ضم لبنان رأساً لهم وعمدوا إلى تقسيم لبنان إلى درزية

---

(١) المرجع السابق ، ص٤١٧ – ٤٣٢ .

ومارونـــية . وفي بداية القرن الرابع عشر الهجري لم تكن المطامع الفرنسية الاستعمارية تنظر بعين الرضا إلى الوعي العربي ، ومطالبته بتحرير العرب من كل رقابة أجنبية وميل إلى التكتل . خصوصاً بعد قرار المؤتمر السوري العام الذي أعلن عن إنشاء دولة سوريا الكبرى والتي تضم لبنان وفلسطين .

وقـــد منح مؤتمر (سان ريمو) لفرنسا سلطات الانتداب على سوريا ولبـــنان . لـــذا قـــرر الفرنسيون تيسيراً لمهمتهم أن يتبعوا سياسة فرق تسد باستغلال الخلافات الدينية وتوسيع شقة تلك الخلافات . وقاموا بزيادة مساحة لبـــنان إلـــى ثلاثة أمثال مساحتها الأصلية بإعلان دولة لبنان الكبرى ، التي ضمنت مدن بيروت وطرابلس وصيدا ، وضم جنوب لبنان إلى حدود فلسطين الذي يغلب فيه السكان الشيعة ، وسهل البقاع الذي يسكنه خليط من المسلمين والمســـيحيين والأرثوذكـــس . وكان هدف فرنسا من اتساع مساحة لبنان هو إضعاف مركز المسيحيين لمحاولة جعلهم أكثر اعتماداً على حماية فرنسا .

حـــ- دولة فلسطين :

إن نكبة فلسطين بالصهيونية وتاريخها يتلخص في أن إسرائيل الأولى كانـــت فـــي القـــرن الخـــامس قبل الميلاد ، والثانية كانت في آخر قرن قبل المـــيلاد ، ولم يتجاوز عمرها خمسمائة وإثنى عشر عاماً ، وأن أثر الحكومة اليهودية اختفى تماماً من الأراضي العربية منذ ألفي عام .

وفي بداية القرن الرابع عشر الهجري أصدر (هيرتزل) كتابه الدولة اليهودية موضحاً أن عناصر مشروعه هي أن تتقدم شركة يهود لتمتلك أرض لا يـــنازعها فـــيها أحـــد . وأن تم هجرة اليهود إليها لا رغبة في الهرب من

الاضـــطهاد أو تحسين حالة المهاجر الشخصية ، وإنما لإنشاء شعب متحد ، وقرر أن الهجرة لا قيمة لها إذا لم تكن إلى أرض لنا عليها السيادة الأكيدة .

لقـــد اســـتطاع هيرتـــيزل أن يقابل السلطان عبد الحميد وأن يقدم إليه التماســـاً بـــأن يتـــنازل للـــيهود عن فلسطين . وقد بحث سلطان تركيا جميع احـــتمالات هذا الالتماس وما وعد به من مساعدات مالية كان اليهود على أتم اســـتعداد لـــتقديمها . ولكنه لم يتردد قط في رفض فكرة السماح بإقامة دولة يهودية في فلسطين .

وعـــندما يـــئس من موافقة الدولة العثمانية على استعمار الصهيونيين لفلســـطين ، ولـــى وجهـــه شطر انجلترا وإن كانت إذ ذاك لها علاقة بحكم فلســـطين . وقـــد أشار هيرتيزل في اقتراحاته للحكومة البريطانية أن يسمح للصـــهيونيين باســـتعمار قبرص فرفض طلبه . واقترح مرة ثانية الأراضي المجـــاورة للعريش في الحدود المصرية المتاخمة لحدود فلسطين إلا أن طلبه قد رفض .

فقـــد عرضـــت الحكومـــة البريطانية منحهم أرضاً في شرق إفريقيا البريطانية واقعة في حدود المستعمرة المعروفة باسم كينيا إلا أنه في أثناء ذلك أعلنـــت الحـــرب العالمـــية الأولـــى . ومن هذا البحث التاريخي يتضح أن الصهيونيين لم يجمعوا رأيهم قط لاتخاذ فلسطين وطناً قومياً ... بل فكروا في قـــبرص وشـــبه جزيـــرة سيناء وكينيا وغيرها مما يقطع بأن المبرر لاختيار فلسطين لا أصل له .

وفـــي ذلك الوقت جاء دور وايزمان الذي استطاع أن ينشىء صلات بـــرجال الحكومـــة البريطانـــية ، وقـــد حاول أن يخطو خطوة لتحقيق آمال الصـــهيونيين . وقـــد كـــان هـــناك اقتراح من البريطانيين لتحقيق المشروع الصـــهيوني يرمي إلى وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية حتى إذا أصبح عدد المهاجرين اليهود كافياً لإنشاء دولة مستقلة أعلن حيادها كضمان ضد أي اعتداء عليها . وتحقق هذا الاقتراح بأن أعطي للمهاجر اليهودي إلى فلسطين فرصة الحصول على جنسية المواطن الفلسطيني بدون قيد . وكانت نتيجة هذه الجهـــود أنـــه بلـــغ عـــدد اليهود في فلسطين تسعين ألفا من مجموع سكانها الأصليين الذين كان يبلغ ثمانمائة ألف .

وبعـــد مضي عامين على قيام الحرب العالمية الأولى وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقا سريا عرف باسم اتفاق (سايكس بيكو) ، وقد نص على تقسيم الشـــرق الأوســـط العربي إلى خمس مناطق . وكانت المنطقة الخامسة التي سميت (المنطقة السمراء) و تشمل فلسطين ونص الاتفاق أن يرجأ البت في أمرها لطبيعتها الدينية الخاصة حتى تتم إدارتها دوليا .

وبعد أن مهدت الحكومة البريطانية للغدر بفلسطين كان وعد « بلفور » المشـــئوم القاضـــي بإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي بفلسطين . وقد عين صـــاموبل الصـــهيوني البريطاني مندوبا ساميا عهد إليه بتنفيذ شرط انتداب بريطانيا لإدارة فلسطين من قبل عصبة الأمم . متجاهلة دول العصبة رغبات الشـــعب الفلســـطيني بشأن اختيار الدولة التي تنتدب لإدارة إقليم كما يقضي الميثاق .

وقد رد العرب على ذلك بعقد المؤتمر الفلسطيني الأول بالقدس ، وهو المؤتمر الذي رفض وعد بلفور والهجرة اليهودية والانتداب البريطاني ، وطالب بوحدة سوريا وسميت فلسطين سوريا الجنوبية . إلا أن مجلس عصبة الأمم أقر وثيقة انتداب بريطانيا على فلسطين ، واضطرمت المصادمات بين العرب و اليهود . وسافر وفد اللجنة التنفيذية لمؤتمر فلسطين العربي واتصل بالحكومة البريطانية ، وقد رفضت طلبات الوفد العربي الخاصة بوقف الهجرة وسن تشريع لمنع انتقال لأراضي التي يملكها العرب إلى اليهود ، وتأليف حكومة وطنية يشترك فيها أهلا البلاد بنسبتهم العددية . و بهذا الرفض دعت اللجنة التنفيذية العربية أهل البلاد إلى الإضراب العام لتأييد عروبة فلسطين ، واستنكار السياسة الإنجليزية الصهيونية[1] .

ط- جمهورية مصر العربية :

شهد الشرق العربي عقب الحرب العالمية الأولى يقظة عامة وتبين له أن العبارات التي رددها الحلفاء أثناء الحرب قد تمخضت عن روح استعمارية آثمة ، ولا تتفق إطلاقاً على ما استقر علية الوعي العربي من عزم على التحرير .

وأحس المصريون بعد أن شاهدوا السوريين وغيرهم من الشعوب العربية يرسلون وفودهم إلى باريس أثناء انعقاد مؤتمر الصلح ، بضرورة الإسراع في عرض مطالبهم على الضمير العالمي . إلا أنه لم يسمح للوفد المصري بالسفر إلى مؤتمر الصلح ، وبدأت الإضرابات والاضطرابات

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٥٨ – ٣١٦ ، وص٤٥٧ – ٤٦٣ .

وحـــركات العـــنف والتدمير ، وألقي القبض على الزعماء المصريين برئاسة ســـعد زغلـــول ، وقامـــت الحكومـــة البريطانية بنفيهم إلى مالطة . وتولت محـــاولات الحكومـــة البريطانية لتهدئة الحالة عبثاً إلى أن اضطرت إلى أن تعـــترف بإنهـــاء الحمايـــة واســـتقلال مصـــر مع أربعة تحفظات خاصة : بالمواصلات البريطانية ، وبالدفاع عن مصر ، وبحماية الأجانب والأقليات ، وبالسودان ، وقد قبلها المصريون كقسط من أقساط الاستقلال .

ي- جمهورية السودان :

إن المراحل الأخيرة لتاريخ السودان العربي بدأت من القرن الخامس الهجـــري عـــندما احتل العرب شمال السودان والمنطقة الساحلية على لبحر الأحمر في الجنوب الشرقي . استمر استعراب شمال السودان وجنوبه الشرقي طـــوال القـــرن السادس الهجري . وفي القرن الثامن الهجري ظل كل ساحل البحر الأحمر الغربي في السودان عربياً . وتقدم المصريون في عهد المماليك جنوباً في النوبة فاتسعت رقعة السودان الشمالي التي ضمت إلى مصر . وظل النفوذ العربي مستقراً في السودان إلى آخر القرن الثالث عشر الهجري .

وفـــي بدايـــة القرن الرابع عشر الهجري أرغمت الحكومة البريطانية الحكومة المصرية على توقيع اتفاقية الحكم الثنائي في السودان ، وأن يستعمل العلـــم البريطاني والعلم المصري معاً في البر والبحر بجميع أنحاء السودان . كما نصت الاتفاقية على تفويض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية إلى موظف

واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ، ويكون تعيينه بأمر الخديوي في مصر بناء على طلب حكومة بريطانيا[1] .

ك- الجماهيرية الليبية :

تم فتحها بعد فتح مصر من قبل قادة الفتوحات الإسلامية ، وكانت ليبيا وتونس والجزائر الشرقية تجمعها وحدة سياسية وإدارية ظلت خاضعة للعباسيين ثم لبني الأغلب ثم للفاطميين . ففي القرن الرابع الهجري انفصلت طرابلس عن تلك الوحدة وأصبحت تابعة للدولة الفاطمية حتى اجتاحها عرب بني هلال وبني سليم ، وفي القرن العاشر الهجري حكمها موحدو المغرب . وتمت وحدتها مع مصر تحت حكم الأيوبيين وحكم المماليك البحرية . وفي القرن العاشر الهجري حكمتها الدولة العثمانية حتى بداية القرن الرابع عشر تقريبًا عندما هاجمتها إيطاليا . إلا أن الفرنسيين والبريطانيين حكموها بعد ذلك من قبل هيئة الأمم المتحدة .

ل- الجمهورية التونسية :

عقب الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا والدويلات التي نشأت ، ومن تلك الدويلات بنو المهلب والأغالبة والصنهاجية والحفصية حتى استولت عليها الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع الهجري . وفي نهاية القرن الثالث عشر الهجري استولت فرنسا على تونس بزعم حماية رعاياها وأرغمت تونس على توقيع معاهدة أفقدتها سيادتها .

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٨٩ – ٣٩٨ ، وص٥٠١ – ٥٠٥ .

م- الجمهورية الجزائرية :

بعد الفتح العربي الإسلامي ظلت الجزائر تحت حكم الأمويين والعباسيين حتى القرن الثالث الهجري عندما ضمها بنو الأغلب إلى تونس ثم خضعت بعد ذلك لحكم الفاطميين . ثم خضعت لحكم موحدي المغرب ، حتى استقلت الأسرة الزيانية بحكم الجزائر إلى أن استفحل أمر الدولة العثمانية ، وخضعت الجزائر في القرن العاشر الهجري للحكم التركي . واستولى الفرنسيون عليها في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، وقد تولى عبد القادر الجزائري ، زعامة العرب الجزائريين وبرغم نفيه من قبل فرنسا لم يهدأ الجهاد العربي في الجزائر . وبعد تلك المراحل التي دلت على يقظة الوعي العربي اتجهت السياسة الاستعمارية إلى فكرة الاتحاد الفرنسي أي عد الجزائر الأرض العربية جزءًا من الدولة الفرنسية .

ن- المملكة المغربية :

تقع عند مدخل البحر الأبيض المتوسط في نقطة جغرافية وعسكرية لم يكن مناص من أن تجعل منها همزة وصل بين الشرق والغرب ، بين إفريقيا وأوروبا وأمريكا . وإن أول أسرة عربية مسلمة حاكمة في المغرب كانت أسرة « الأدارسة » في القرن الثاني الهجري ، واتخذت فاس عاصمة لها بعد أن وحدت عددًا من القبائل ، وأرست أول قاعدة في وحدة المغرب السياسية والدينية . وإن ثاني أسرة حاكمة في المغرب كانت أسرة « المرابطين » ، وقد أسس زعميهم « يوسف بن تاشفين » في نهاية القرن الرابع الهجري مراكش واتخذها عاصمة له .

والأسرة المغربية الثالثة هي أسرة « الموحدين » التي أسسها في القرن الخامس الهجري ابن « تومرت » . وفي عهد خلفه « عبد المؤمن » أسس أكبر إمبراطورية إسلامية عربية في المغرب ضمت الجزائر وتونس وليبيا ، واتخذ الـرباط عاصمة له . والأسرة المغربية الرابعة هي أسرة « بن مرين » التي أسسـها « أبو يحيى » في النصف الأخير من القرن العاشر الهجري واستمر حكمها قرنين . ثم أسرة « الأشراف السعديين » التي أسسها «محمد القائم بأمر الله »فـي القرن العاشر الهجري بعد أن طرد البرتغاليين من مراكش واتخذها عاصـمة له ، وعني بتقوية حصونه لدرء خطر غزو الأتراك الذين كانوا إذ ذاك قد احتلوا سائر شمال إفريقيا .

وأخيرًا « الأسرية العلوية » التي ينتمي إليها الملك محمد السادس ملك المغرب وتسمى العلوية نسبة إلى علي بن أبي طالب جدها الأعلى . وإن أول ملـوك هـذه الأسـرة مـولاي « الرشـيد بـن الشريف » الذي أسسها في القـرن الحادي عشر الهجري واتخذ مكناس عاصمة له وتمكن خلفه مولاي « إسـماعيل » مـن تحريـر العـرائس وأصيلاً من الأسبانيين واسترد سيادة المغـرب على طنجة بعد إجلاء البريطانيين . وفي نهاية القرن الثالث عشر تغلبـت القوات الأسبانية على المغرب في موقعة « تطوان » وفرضت أسبانيا على المغرب معاهدة قاسية .

وفـي القرن الرابع عشر الهجري وقعت معاهدة بين المغرب وفرنسا والتي بمقتضاها أرغمت فرنسا هذا القطر العربي أن يخضع لحمايتها . ولقد تمـرد المغاربة على الاستعمار الفرنسي وأخذوا يتعقبون الفرنسيين ويفتكون

بهـــم ، واستمرت حركة المقاومة التي كلفت الفرنسيين جهدًا عظيمًا وخسائر فادحة إلى أن بدأت الحرب العالمية الأولى[1] .

٢- الأحـــداث العالمـــية أثـــناء بداية تكوين الدولة السعودية الثالثة :

كانت أوروبا الاستعمارية تتجه بأنظارها وأطماعها إلى أملاك الدولة العثمانـــية إلا أن الســـيادة التركية بقيت نتيجة لاختلاف الدول الأوروبية في مطامعها على تقسيم هذه الممتلكات المترامية الأطراف . ولتخوف الحكومتين البريطانـــية والفرنســـية مـــن الـــنفوذ الروسي كقوة جديدة تقف حائلاً دون مآربهمـــا . وفـــي مطلـــع القرن الرابع عشر الهجري ظهرت الإمبراطورية الألمانـــية كقوة جديدة تهدد أوروبا وتقضي على مطامعها . وعندما أصبحت ألمانـــيا الدولـــة العسكرية القوية مما غير توازن القوي بأوروبا ، شجع ذلك فرنسا للتحالف مع عدوتها روسيا ، أما بريطانيا فلم تمل لأحد الفريقين .

هـــذا الموقـــف وما تعيشه القوات العسكرية على الساحة الدولية دفع ألمانيا إلى أن تركز على القوة البحرية للدخول مع بريطانيا في منافسة بحرية حـــتى تستطيع النفاذ إلى مناطق تشملها القوة البريطانية وتقع تحت حمايتها . مما دفع بريطانيا إلى عقد اتفاق عسكري دخل تحته كل من روسيا من جهة ، وفرنســـا وبريطانيا من جهة أخرى . هذه الأحداث المحيطة بالدولة العثمانية نتج عنها رد فعل قوي ، إذ قام بعض الضباط الأتراك بتكوين جمعية « تركيا

---

(١) الدولة العربية الكبرى ، محمود كامل المحامي ، ص٥٠٥ – ٥٣٩ .

الفـــتاة » وســـيطر أفرادها على مقاليد الحكم . وبدأت بوادر الحرب باستيلاء إيطاليا على ليبيا وجزيرة رودس ، وحاولت تركيا الحصول على مساعدة من بريطانيا بالرغم من اقتطاع بريطانيا جزءًا مهما من ممتلكات الدولة العثمانية يتمثل في : مصر ، والسودان ، وجزيرة قبرص . لكن بريطانيا امتنعت عن تقديم أي مساعدة لتركيا ، فاتجهت إلى ألمانيا القوية عسكريًا لتحميها من شر روسيا التي باتت مصدر قلق وموطن إزعاج لها .

أعلنـــت دول الـــبلقان الحـــرب على ألمانيا ، وقد تم استقطاع معظم الأراضي التركية التي في أوروبا للبلقان . وتلا ذلك الحروب البلقانية الثانية التـــي انتهت باستعادة تركيا أراضيها المأخوذة في الحرب السابقة . وأن هذا غـــير عائد لقوة تركيا الحربية ، وإنما هو بسبب ظروف مواتية حيث يتنازع الحلفاء البلقانيون فيما بينهم على اقتسام الغنائم فأضاعوا ما بأيديهم .

استمرت الأحداث على أشدها إلى أن تفجرت الأوضاع وقامت الحرب العالمية الأولى ، وأعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا ثم على النمسا . وخلال هـــذه الأحداث أعلنت تركيا التعبئة العامة لقواتها لمجابهة أي اعتداء خارجي علـــى أراضـــيها . وأصـــدر الحلفـــاء إنذارًا لتركيا بضرورة إبعاد التعبئتين الألمانيتيـــن البحرية والبرية عن أراضيها . عندما رفضت تركيا هذا المطلب تأهبت البحرية البريطانية لقتال تركيا .

لكن بريطانيا وقبل الدخول في الحرب فكرت في إرسال قوات للدفاع عـــن مستعمراتها في مصر وإيران خشية تسلط الدولة التركية وحلفائها على المستعمرات المهمة في الخليج العربي أو النفاذ إلى مصادر البترول في إيران

وتهديـــد حـــرية الملاحة في قناة السويس الشريان الحيوي لبريطانيا والممر المائـــي لهـــا . كما توقعت بريطانيا حدوث قلاقل واضطرابات بين المسلمين الـــذي يعيشون في مستعمراتها للتعاطف مع تركيا المسلمة مما دفع الحكومة البريطانية إلى تعزيز مستعمراتها بقوات كبيرة .

وقـــد نشـــبت الحرب العالمية الأولى ، وفي الجولة الأولى انتصرت تركـــيا وألمانـــيا لكن كفة بريطانيا رجحت نتيجة لهزيمة تركيا وسقوط بيت المقـــدس . ونتج عن هذا انخفاض الروح المعنوية للقوات والشعب التركي ، ولم يبق بيدها سوى المدينة المنورة التي كانت محاصرة بالقوات العربية حين رفع الشريف الحسين من مكة راية الثورة العربية .

إن الهدف من هذه اللمحة التاريخية الموجزة للأحداث العالمية للفترة السابقة للحرب العالمية الأولى وأثناء دورانها هو إيضاح العوامل الناجمة عنها . وكذا الأحداث التي واكبت سير العمليات في المحيط الدولي أثناء قيام الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بحركته الأولى . إلى أن استرد ملك آبائه وأجداده ووحد الجزيرة العربية بشخصيته الفذة وطموحه الوثاب[1] .

---

(١) الإستراتيجية ودور عباقرة الفكر العسكري في تطورها ، للمؤلف ، ص ١٨٩ – ١٩٨ .

معارك الملك عبد العزيز الحربية

لمـــا بلغ الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود عشرين سنة من عمـــره – وبما أنعم الله عليه وبما ميزه عن غيره وهيأه لأمور عظيمة حيث كـــان يمـــتاز عـــن رفاقـــه مـــن حيـــث التكوين الجسماني والهيئة الطبيعية والفروســـية – تمكن بما وهبه الله من صفات من أن يجتذب إليه مجموعة لها وزنها من الأتباع الشخصيين ، واستعادة ما سلب .

وقـــد اســـتفاد الملك عبد العزيز من مكوثه في الكويت بجانب الأمير مبارك الصباح يشاركه في مباحثاته ومجالسه التي تتفاعل فيها الآراء ، وكان يتوســـم فـــي عبد العزيز سيماء النجابة ، ويحس في توقد ذهنه أملاً مرتقبًا ، فعبد العزيز الذي تتطلع نفسه للسمو والرفعة كان يستمد آراءه من والده الإمام عـــبد الرحمـــن الذي كان ملازمًا له وجرب الأمور وسبر غورها ، والأمير مـــبارك الـــذي يمـــتاز بالرأي الصائب والنظرة العميقة للأمور . فكان هذان الشيخان بتجاربهما ونصائحهما مدرسة متكاملة لعبد العزيز حيث كانا يرعيانه ويتوقعان النصر على يديه .

كانـــت الدولة العثمانية قد أخذت في اعتبارها أن الجزيرة العربية قد خضـــعت لســـلطانها بعد تفكك دولة آل سعود وابتعاد قادتها . إلا أن شكوك العثمانيين بدأت تحوم حول الشيخ مبارك الذي لمسوا منه خروجًا على الطاعة حيث كان في معاملته يجاملهم لكنه يتقرب من أعدائهم الإنجليز . فبدأت تركيا تفكـــر فـــي الانتقام من أمير الكويت دون أن تصطدم مباشرة مع الإنجليز ، فأوعـــزت إلـــى ابن الرشيد أمير حائل بالوقوف ضد أمير الكويت ، وأمدته

بالســـلاح والمال والرجال ، فوافق ذلك هوى في نفسه حيث كان طامعًا في الكويـــت . وهـــذه الحادثة كانت بارقة أمل لعبد العزيز في محاولته لاسترداد الـــرياض في الوقت الذي ينشغل فيه ابن الرشيد بحرب مبارك . وقد استشار والده الإمام عبد الرحمن والشيخ مبارك فشجعاه ، وتتلخص معارك الملك عبد العزيز الحربية ونتائجها الاستراتيجية في التالي :

أ- معركة الرياض الأولى :

خـــرج عـــبد العزيز من الكويت مع والده والشيخ مبارك في استعداد لملاقـــاة ابـــن رشيد ، وقد عرض على الشيخ مبارك خطة حربية تعينه في التغلب على خصمه وتشتت قوته . وهي أن ينفرد بقوة يتجه بها إلى الرياض فـــيداهمها ، فيضـــطر ابن الرشيد أن يقاتل جيشين في مكانين مختلفين . وقد وافـــق الشـــيخ مـــبارك على هذه الخطة التي تدل على ذكاء ومعرفة بشئون القـــتال ، فـــانطلق عـــبد العزيـــز ومعه بضع مئات من المقاتلين متجهًا إلى الرياض . وكانت هذه تعتبر الركيزة الأولى التي أعطت عبد العزيز الثقة في نفســـه واســـتغل ثمارها فيما بعد كعملية استطلاع بالقوة استفاد منها لمواصلة الكره مرة أخرى لاحتلال الرياض . وقد تميزت هذه المحاولة بشكل الصراع المســـلح بيـــن عبد العزيز آل سعود وآل الرشيد بقيادة واليه على الرياض . واســـتطاع عـــبد العزيز اقتحام سور الرياض متتبعًا حاميه ابن الرشيد حتى حاصرها بقصر المصمك ، ولم يفك هذا الحصار إلا بعد وصول أنباء هزيمة مبارك الصباح في معركة الصريف . كما وصلت رسالة الإمام عبد الرحمن لابنه عبد العزيز يستحثه بترك حصار الرياض والتوجه إلى الكويت ، ولكنها

نجحت كوسيلة استطلاع أمكن استغلال نتائجها الاستراتيجية والتعبوية في حملته الثانية على الرياض[1] .

ب- معركة الرياض الثانية :

أفادت معركة الرياض الأولى عبد العزيز في الاطلاع عن كثب على طبوغرافية الرياض وأعطته المعرفة الكاملة لدفاعاتها وكيفية احتلالها . وقد عرض على والده والشيخ مبارك القيام بمغامرة جديدة تبدو في ظاهرها لتأليب القبائل على ابن الرشيد ، وفي باطنها مغامرة جريئة لمحاولة احتلال الرياض واقتحام حصنها والقضاء على حاكمها عجلان . وقد واف والده والشيخ مبارك على إعطائه بعض المؤن وترك موضوع الرجال لمن يريد أن يخاطر بنفسه مع عبد العزيز ، فتجمع معه أربعون رجلاً يتقدمهم أخوه محمد وبعض أبناء عمومته وأقرانه المقربين . قرر عبد العزيز أن يستخدم أسلوب الحرب الخاطفة ويجب أن يعد لها خطة اقتحام تعتمد على المفاجأة بعد أن عرف تحصينات قلعة الرياض . وتركزت على استخدام عنصر المفاجأة التعبوية للوصول إلى الرياض ودخولها دون أن يشعر به الخصم ، واختيار أنسب الأوقات بحيث يكون التوقيت في مدة يطول فيها الليل عن النهار ، يكون الجو باردًا والقمر غائبًا . واشتملت الخطة على استخدام مبدأ الضرب مع الحركة

---

(١) توحيد المملكة العربية السعودية ، محمد المانع ترجمة د/عبد الله العثيمين ، ص٣٧ – ٤٣ .
أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز وحربه العميد ، أ/ ح محمد رحمو ، ص٤٥ – ٥٦ .

أثـناء المطاردة القصيرة التي يتم فيها الإجهاز على الرياض ثم المناداة باسم عبد العزيز حاكمًا للرياض[1] .

قسـم عـبد العزيـز عناصر القوة الرئيسية (الأربعين مقاتلاً) إلى نسـقين : الأول تحت قيادته ، والثاني تحت قيادة أخيه محمد بن عبد الرحمن وأمرهم بالبقاء مختفين بالنخيل المحيطة بالرياض . تحرك عبد العزيز ودخل الـرياض عـن طريق الفتحات في سور الرياض باتجاه القلعة (المصمك) بهدف اقتحامها والقضاء على حاميتها .

ورأى عبد العزيز أنه لم يبق بينه وبين هدفه شيء ، فأرسل في طلب النسق الثاني بقيادة أخيه محمد وبعد وصوله اطمأن عبد العزيز بأنه لم يكتشف أمـرهم . تمكـن عـبد العزيـز مـن الاستيلاء على القلعة بعد قتل أميرها ابـن عجلان واستسلام حاميتها . وانتهت معركة احتلال الرياض ونودي من أعلى برج في القلعة أن الملك لله ثم لعبد العزيز بن آل سعود .

جـ- معركة الدلم :

سـميت هذه المعركة الدلم نسبة إلى المكان الذي دارت أحداثها فيه ، والدلـم حينـئذ كانت عاصمة الخرج . وتعتبر هذه المعركة من أهم معارك توحـيد المملكة ، وتعتبر المعركة الأولى التي التقى فيها طرفا النزاع وجهًا لوجه على رأس جيشين متحاربين .

---

(١) توحيد المملكة العربية السعودية ، محمد المانع ترجمة د/عبد الله العثيمين ، ص٣٧ – ٤٣ . شـبه الجزيـرة العربـية فـي عهـد الملـك عـبد العزيز ، خير الدين الزركلي ، جـ١ ص ٧٩ – ١٠٠ وص١٢٥ وص١٢٨ .

وأن هذه المعركة وما تمخض عنها من انتصار لقوة عبد العزيز على قـوة منافسه ابن رشيد ، قد تركت آثارًا نفسية وتغيرًا مهما في المفاهيم على السكان من حضر وبدو ، وقد جنى الطرفان نتائجهما فيما لحق من أحداث .

إن الأسـلوب الذي انتهجه عبد العزيز آل سعود في معاركه يظهر ما يتمتع به من صفات جمعت بين الشجاعة وسلامة التخطيط ، وبالوعي وحسن الـتقدير للموقـف . وقد حقق باتصالاته على كسب الأنصار مهنئه ومبايعة داعمة ، وكان استغلاله المتمثل في التأييد وإظهار الولاء استغلالاً جيدًا . كما اهـتم فـي وضع خطته الدفاعية والاستعداد لملاقاة خصمه ، وهو يدرك أنه على الرغم من تحسين وضعه السياسي والعسكري ، فإن خصمه ما زال يملك مـن أسـباب القوة السياسية والعسكرية الشيء الكثير الذي لا يستطيع حينئذ مجاراته فيه .

وللتغلب على هذا الخلل في ميزان القوى وضع خطة دفاعية لتحصين الرياض ضد أي هجوم . وبعبقريته العسكرية ونظرته الاستراتيجية الفذة قرر أن بقـاءه فـي الرياض ونشوب المعركة فيها قد يعرضها للحصار واحتمال السقوط في أيدي القوة المهاجمة . وبالتالي إلى الانغلاق داخل أسوار الرياض ممـا يحد من حركته واتصاله بأنصاره ومؤيديه ، وكذا توسعة مجال العمق الدفاعي عن الرياض عاصمته .

لهـذه الاعتبارات اتخذ عبد العزيز يرحمه الله قراره بمغادرة الرياض والـتوجه إلى الخرج والمناطق المجاورة لها بعد دراسته لمختلف الاحتمالات مـثل : لو وقع هجوم على الرياض فإنه لا يدعو إلى القلق والخوف لصمود

الدفاع عنها بوجود ألف مقاتل ، والقيادة المتمثلة في والده ، والعمق الدفاعي المتمثل في منطقة جنوب نجد . ولتوفر هذه المزايا العسكرية للرياض فبإمكانها الصمود لفترة من الزمن يتمكن خلالها عبد العزيز من نجدتها وفك الحصار عنها . ولما سبق فإن قرار عبد العزيز بخروجه من الرياض وتوجهه إلى الخرج قد خطط له تخطيطًا سليمًا وقصد منه : استدراج خصمه إلى معقله في جنوب نجد حيث القوة والأنصار ، وحماية ظهره بصحراء الأفلاج والربع الخالي ، إضافة إلى إطالة خطوط مواصلات خصمه مع جعل الرياض مصدر تهديد لمؤخرة قوات خصمه وقطع إمداداته .

وهكذا نجد خطة الملك عبد العزيز يرحمه الله الدفاعية قد تضمنت عناصر إيجابية ممتازة سواء كان ذلك بالنسبة لاختيار مكان المعركة أو التخطيط الناجح لاستدراج الخصم إلى المكان المختار ، وما تم اتخاذه أثناء سير المعركة من إجراءات ذات دلالة على وضوح الرؤية ودقة التخطيط واستغلال الإمكانات المتاحة ، كل هذه الأمور انعكست على نتيجة المعركة . بدأت المعركة وما أن وصلت قوات ابن رشيد إلى المدى المؤثر للأسلحة المتوفرة مع الملك عبد العزيز حتى أطلقت عليهم نيرانها فتراجعوا مفزوعين بغير انتظام .

وقامت مفرزة من قوات الملك عبد العزيز بشن هجوم مضاد على أحد أجنحة قوة ابن رشيد ، وتمكنت من إيقاع خسائر كبيرة في قوة الخصم مما اضطرهم إلى الانسحاب . وانتهت معركة الدلم بانتصار الملك عبد العزيز وهزيمة ابن الرشيد .

د- معركة القصيم :

تحتل منطقة القصيم موقعًا مهمًا بالنسبة إلى طرفي النزاع ابن الرشيد وابن سعود ، وذلك لتوسطها بين عاصمتي القوتين الرياض وحائل ، ولوفرة مواردهـــا الزراعية وكثرة سكانها . لذلك فإن ولاءها وانضمامها إلى أي من طرفي النزاع سيكون له دور في ترجيح كفته .

فبعد أن تمكن الملك عبد العزيز من استرداد الرياض بدأ في تحصينها والعمـــل علـــى توسيع مناطق نفوذه خصوصًا بعد هزيمة خصمه في معارك الدلم وانسحابه من منقطة الرياض[1] . هذه الأحداث أعطت الملك عبد العزيز ثقة وتصميمًا في ملاحقة خصمه ، واستخلاص أقاليم نجد من نفوذه واحدًا تلو الآخـــر فـــي عدة مصادمات ومعارك أبرزها : معركة البكيرية ، والشنانة ، وأخيرًا روضة مهنا حيث قضى على خصمه القوي .

فـــبعد النصـــر الـــذي حققه الملك عبد العزيز في معارك البكيرية ، والشنانة ، والخبراء ظهرت جليًا قوة موقفه ورجحان كفته في هذا الصراع . وبدأت الدول ذات النفوذ في شبه الجزيرة العربية تركيا وبريطانيا في محاولة كسب الملك عبد العزيز إلى جانبها . فطلبت الدولة التركية إجراء مفاوضات معه فوافق على ذلك . وفعلاً تمت المقابلة واستعمل الملك عبد العزيز حنكته السياســـية ودهـــاءه فـــي ذلك الاجتماع لإحباط جميع المطامع ، فقبل مبدئيًا العـــرض التركـــي شـــريطة عرضـــه علـــى والـــده الإمـــام وموافقـــته .

---

(١) شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز ، خير الدين الزركلي ، ص١٤٥ – ١٨٠ .

وكـــان العـــرض التركـــي يقضي بالصلح بين ابن سعود وابن الرشيد وجعل القصـــيم منطقة عازلة بين المتصارعين ومحايدة ، ووضع قوة تركية للفصل بيـــنهما ، إلا أن هذا الطلب ووجه بالرفض من الملك عبد العزيز . فمعركة روضة مهنا تقع في نهاية كثبان رمال الثويرات الغربية التي تمتد من الشرق بارتفاعـــات متفاوتة تحتوي على بعض الرياض المحاطة بالكثبان التي تتوفر فيها بعض النباتات والشجيرات الصغيرة .

أما عن سير المعركة فبعد أن أنهى ابن الرشيد غاراته قرر المبيت في روضة مهنا في أرض تحيط بها الرمال من الجنوب والشرق ، أمر أن تتوزع قواته وأن تشعل النيران للإيهام بالكثرة والتيقظ .

وكـــان الملك عبد العزيز يتابع أخبار خصمه وملاحقته ، ويتابعه من جـــنوب الكثـــبان مـــتخذاً من الحذر والاختفاء وسيلة لعدم كشفه . وفي الثلث الأخـــير مـــن الليل كان الملك عبد العزيز قد أعد ترتيباته للقيام بهجوم ليلي خـــاطف علـــى معســـكر خصمه مستفيدًا من ستر الظلام . وفعلاً سار نحو معســـكر ابـــن الرشـــيد الذي يغط معظمه في بيات والذي لم يكن يتوقع أي هجـــوم ، واندفعت قوته نحو موقع خصمه خيمة « ابن رشيد » الذي أفاق من نومـــه وهو لا يميز بين العدو من الصديق . حيث أطلقت عليه النيران وخر صـــريعًا بينما قواته المنتشرة حول معسكره والتي فوجئت بالغارة والمباغتة الليلية يأخذون طريقهم طلبًا للنجاة تاركين معظم أسلابهم ومؤنهم واتجهوا إلى حائل .

هـ- معركة الأحساء :

مـنطقة الأحساء هي ما تسمى في الوقت الحاضر بالمنطقة الشرقية ، وهـي عـبارة عـن السهل الساحلي الغربي للخليج العربي الممتد شمالاً إلى الكويت وجنوبًا إلى قطر وغربًا إلى الدهناء . وهي منطقة تتمتع بعدة مميزات طبيعـية أهمـا : الموقع الاستراتيجي لاتصالها بالعالم الخارجي ، وكذا وفرة مياهها وما ينتج عن ذلك من ازدهار للزراعة وكثرة أشجار النخيل وما تنتجه مـن تمـور . لقـد تمكـن الملك عبد العزيز في الفترة التي سبقت استعادته الأحساء من بسط سلطته نفوذه على معظم منطقة نجد .

وكـان تفكيره وجهده حينئذ منصبين على توطيد وترسيخ حكمه على المناطق التي تمت استعادته لها من جهة ، والتخطيط من جهة ثانية من أجل تحقيق طموحاته المتمثلة في استعادة السيطرة على جميع الأراضي التي كانت في الماضي تخضع لحكم أجداده .

ونتـيجة للظـروف المحيطة به آنذاك والمستجدات المحلية والإقليمية والدولية قويت عزيمته وعزز ثقته في محاولة استعادة الأحساء وطرد الأتراك مـنها وضـمها إلى إمارته . إلا أن الوضع الدولي المؤثر في المنطقة آنذاك يتمـثل فـي دولتيـن كبيرتين هما : بريطانيا وتركيا الأمر الذي جعل الملك عـبد العزيـز يتريـث في اتخاذ قراره ، ويتحين الفرصة المواتية للعوامل التالية :

١- كـان الإنجلـيز يسـيطرون على الممرات المائية ذات الأهمية الاسـتراتيجية فـي مـنطقة الشرق الأوسط ، ويسيطرون على معظم الخليج

العربـــي وســـواحله ومضيق هرمز البالغ الأهمية . وكان الملك عبد العزيز يدرك ما لبريطانيا من نفوذ على المنطقة ،ونتيجة لذلك كانت له اتصالات بهم لكسب تأييدهم وحمايتهم عندما يبدأ في تنفيذ خطته الهادفة إلى الاستيلاء على الأحساء .

ولكـــن البريطانيين لم يكونوا مستعدين لمساندته في طرد الأتراك من الأحســـاء ، وذلك يرجع إلى عدة اعتبارات منها : اعترافهم بالسلطة العثمانية فـــي أواسط الجزيرة العربية ، ومفاوضة الحكومة البريطانية آنذاك الحكومة العثمانية على تحديد مناطق السيادة والنفوذ في الخليج العربي . وأنها لا تؤيد ظهور دولة عربية قوية في المنطقة ، وتفضل بقاء الإمارات العربية ضعيفة حتى يمكن السيطرة عليها .

٢- الدولـــة العثمانية كانت ذا نفوذ في المنطقة وأي خطوة توجه إلى المساس أو التقليص من نفوذها ستفشل إذا لم تحظ بتأييد دولة كبرى من الدول المنافســـة لها . وكان الملك عبد العزيز يدرك هذه الحقيقة ، وعلى الرغم من المشـــاكل المحلية والإقليمية التي عانى منها وكانت في كثير من الأحيان تتم بتدبـــير وتحـــريض من الدولة العثمانية . بقي الملك عبد العزيز في انتظار وترقـــب حتى لاحت في الأفق بوادر انفراج نتيجة لمتغيرات حدثت وكان لها تأثـــير علـــى الدولة العثمانية . فقد منيت بهزيمتين في حربها مع الإيطاليين وفقدها ليبيا ، كما انهزمت قواتها أثناء حربها مع دول البلقان . كل ذلك شجع الملك عبد العزيز على التقدم لتنفيذ خطته في استعادة الأحساء على الرغم من عدم التمكن من الحصول على التأييد الإنجليزي المرغوب[1] .

---

(١) المرجع السابق ، جـــ١ ص٢٠١ – ٢٢٢ وص٣٢٠ – ٣٢٣ .

فالملك عبد العزيز لم تكن لديه قوة نظامية ، وكان يعتمد في معاركه بعد الله على المعين الذي لا ينضب من الرجال الذين يتقدمون طواعية لخوض المعـــارك التـــي يقودهـــا ، مدفوعين إلى ذلك بدوافع دينية ووطنية وثقة في الشخصـــية القـــيادية والحنكة السياسية التي يتمتع بها . وبعد فشل محاولاته المـــتكررة الهادفة إلى الحصول على تأييد ومساندة الدولة البريطانية ، بدأ في تنفـــيذ خطـــته معتمدًا على ما توفر لديه من قوة ذاتية . وأخذ جانب الحيطة والحـــذر مستغلاً جميع الإمكانات المتوفرة والظروف الملائمة من أجل خطة دقـــيقة متكاملة تضمن له الانتصار وتحقيق هدفه . لذا كان لابد من استخدام أساليب الخداع التي يمكن بواسطتها تضليل القوات التركية عن معرفة الهدف الحقيقـــي لتحركاته . فبدلاً من أن يتجه الملك عبد العزيز بقواته إلى الأحساء توجـــه إلى الخرج وأقام مدة تزيد على الشهرين ، وقد أشاع بأن هدف حملته هو تأديب بعض القبائل الخارجة عليه . وقد باشر بالفعل شن بعض الغارات على هذه القبائل ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى صرف الأنظار عن اكتشاف مخططـــه الحقيقي . فإذا شعر بحدوث شيء من الريبة لدى الأتراك نجح في تـــبديد هـــذه الشـــكوك . ونتيجة لضعف سلطة الأتراك وانكماشها داخل مدن الأحساء والقطيف ساءت الحالة الأمنية ، وأصبح القوي هو المتحكم في زمام الأمـــور . وبحكـــم مـــا اتصـــفت به قبيلة العجمان من قوة ونفوذ في منطقة الأحساء لذلك فإنهم من منطلق مصالحهم لن يباركوا أي محاولة يبذلها الملك عـــبد العزيـــز لضم الأحساء إلى دولته . وأن مثل هذه الأمور لا تخفى عليه وهـــو مـــن عرف عنه الاتصاف بالحنكة السياسية والدراية العسكرية في كل معاركـــه الســـابقة ، فقـــد وجـــد الطـــريقة التي يمكن إبعادهم بها مؤقتًا عن الأحســـاء . فهو يعرف ما بينهم وبين قبيلة مطير من العداء لذلك اتفق معهم

علـــى محاربـــة مطير ، وضرب بهم موعدًا وحدد مكان اللقاء فخرجوا من مـــنطقة الأحســـاء ، وبـــذا تمكن من إبعادهم عن المكان الذي ينوي مهاجمته واستعادته .

اهـــتم الملك عبد العزيز بالحصول على معلومات عن الأتراك بإيفاد أشخاص متسترين ، واستطاع بواسطتهم أن يتعرف على بعض الأمور المهمة التي أفادته أثناء وضع خطة مهاجمة الأتراك في الأحساء . وعلى ضوء هذه المعلومـــات وإمكاناتـــه اســـتبعد الاشـــتباك المباشـــر مع الخصم أو الهجوم بالمواجهة ، وأن أنسب وقت للهجوم يكون أثناء الليل ، واختار أفضل الطرق للاقـــتراب ، وتوزيـــع قواتـــه توزيعًا دقيقًا يشتمل على قوات المهمة وقوات الاحتياط . وبدراسته التفصيلية لوضع الأتراك في الأحساء ووضع السكان من حضر وبدو أدى ذلك إلى معرفته الشاملة لكل دقائق الأمور . مكنته من وضع خطة ناجحة استطاع من خلالها أن يستعيد الأحساء دون إراقة دماء أو تدمير شيء من الممتلكات[1] .

لقـــد حقـــق الملـــك عـــبد العزيز في هذه المعركة الكثير من النتائج الاستراتيجية التي تدل على ما يتمتع به من بعد نظر للأمور مكنه من تحقيق هـــدف اســـتراتيجية السياســـية وخـــبرته ودرايـــته بالاستراتيجية العسكرية والتعبوية . وإن ما حققه في معركة الأحساء لم يكن مجرد مصادفة وإنما كان نتيجة مدروسة وضعها بوعي وإدراك فجاءت نتائجها مكللة بالنجاح .

---

(١) شـــبه الجزيـــرة العربـــية فـــي عهـــد الملـــك عـــبد العزيز ، خير الدين الزركلي ، جـــ١ ص٢٣ – ٣٢٣ . أمـــراء وغـــزاة ، د/عبد العزيز بن عبد الغني إبراهيم ، ص١٩ . تاريخ ملوك آل سعود ، سعود بن هذلول ص٩٨ .

و- معركة التربة :

كانت الدولة العثمانية قد ولت الشريف حسين بن علي إمارة الحجاز ، وكـــان لديـــه نزعة قوية إلى الإستقلال عن الدولة العثمانية . ولم يتورع عن الـــتحالف مـــع الإنجليز في الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك على أن يتم الاعـــتراف بـــه ملكًا على العرب . لذا كان ينظر إلى أمراء الجزيرة العربية جميعًا على أنهم في حكم التابعين له .

فـــبعد أن نجـــح الملك عبد العزيز في استعادة الرياض ، وإقامة نظام سياســـي يستند فيه على ما يعتبره حقه التاريخي كسليل للأسرة السعودي التي تمكنـــت من إخضاع نجد وبعض أجزاء من الجزيرة العربية لنفوذها ، بدافع التأكـــيد علـــى مبادئ السلف الصالح . كان الرجلان على جانب من الطموح والاعتزاز بماضيهما وتاريخ أسرتيهما مما جعل المنافسة على زعامة الجزيرة العربية تأخذ جل اهتمامهما . إضافة إلى العداء التاريخي بين أسرتيهما ، وهو الذي نشأ مع الدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى .

وكـــان القـــتال سجالاً بين الفريقين ، وكانت بريطانيا وتركيا تراقبان هذين الزعيمين وتتوقعان دخولهما في صراع مرير . وازداد حقد الحسين بن علي على عبد العزيز بن عبد الرحمن وخاف على نفسه وملكه من هذا الفتى الناهض بسرعة ، المهيأ لكل أسباب الزعامة الدينية والسياسية . وبالرغم من ذلـــك تم تبادل الرسائل والوفود بينهما وشبه اعترافهما بسلطات كل منهما إلا أن مشـــكلة تـــربة والخرمة ، بقيت ميدانًا للتنافس بينهما . مما دفع بالشريف الحســـين إلى إرسال أكثر من حملة مسلحة إليهما ، ولكن الأخوان بقيادة خالد

ابــن لؤي الذي تزعم التمرد ضد ابن عمه الشريف الحسين نجحوا في تكبيد هذه الحملات خسائر كبيرة . وقد دفعت تلك الهزائم الشريف الحسين إلى حشد أكبر قوة لديه بقيادة ابنه عبد الله وتوجيهها إلى تربة .

زحــف الأمــير عــبد الله بن الحسين بقواته المجهزة بالمعدات التي استولى عليها من الجيش العثماني بعد سقوط المدينة المنورة واحتل تربة .

قام الملك عبد العزيز بإرسال قوة من الإخوان لتنضم إلى قوة خالد بن لــؤي ، وجهــز قوة كبيرة تحرك بها من الرياض إلى تربة . وتربة تقع إلى جنوب شرق جبل حضن الذي يعتبر الحد الفاصل بين الحجاز ونجد ، وتتمتع بأهمية استراتيجية حيث تعتبر بوابة الطائف من جهة نجد ، وحصن الطائف مــن جهــة الحجاز . وكان قادة الملك عبد العزيز قد أحاطوا بتفاصيل وضع قــوات الشــريف ، كما كانوا ملمين بطبيعة الأرض . وقاموا بهجوم خاطف وقضــوا على المفارز الواقعة على طريق التقدم واستأنفوا التقدم إلى معسكر الشريف بن عبد الله وفتكوا بالقوة الموجودة به . وقامت قوة أخرى من خلال محــور الــتقدم على القوة المتمركزة على التلال شمالاً وشرق تربة بالهجوم المباغــت ، ولــم يمكنوا هذه القوة من استخدام مدافعهم ، وقامت قوة الخيالة بتطويقهم . وزاد من هول الكارثة في قوات الشريف الشلل الذي أصاب القيادة وأفقدهــا السيطرة على الموقف منذ بداية المعركة بسبب عنف الصدمة التي أحدثتها المفاجأة . كما أن غموض الموقف وضراوة القتال جعلا قوة الخصم تطلق النيران بطريقة عشوائية مما ترتب عليه أن قتل بعضهم بعضًا .

وما إن انفلق الصباح حتى كان مصير المعركة قد حسم لصالح الملك عبد العزيز وحقق نصرًا تعبويًا واستراتيجيًا ، وكان أروع الانتصارات العسكرية تخطيطًا وتنفيذًا . لقد حقق الكثير من النتائج الاستراتيجية في هذه المعركة وأهمها أنه ظهر كأقوى حاكم في الجزيرة العربية ، وجعلت هذه المعركة من قوته العسكرية في نظر خصومه قوة لا تقهر . وإن ما حدث في معركة تربة من إبادة لقوات الشريف تحت تأثير الحماس الذي ولده عنف القتال مما تسبب في إزهاق أرواح آلاف الرجال دون أن يكون لذلك تأثير على تقرير مصير المعركة . يعود إلى عدم قيادة الملك عبد العزيز المباشرة لهذه المعركة مما يعفيه من مسئولية ما قامت به قواته . وكذا حقد القبائل القاطنة حول تربة والخرمة للشريف وتأديبه لهم بسبب انتشار الدعوة السلفية بينهم ، وإحساسهم بحاجة الأراضي الحجازية إلى ضرورة نبذ البدع ونشر الأمن والسلام في ربوع البلاد .

ز- معركة حائل :

تقع مدينة حائل بين جبلي أجا وسلمى وعلى أرض منبسطة ، وتسكنها قبيلة شمر التي تعتبر بطنًا من بطون طي ، ويعتمدون في أسلوب حياتهم على الزراعة والرعي . فبعد مقتل عبد العزيز بن متعب بن الرشيد في معركة روضة مهنا تولى الإدارة ابنه متعب ، وكان نفوذه لا يتجاوز منطقة حائل وقراها . ولم يدم طويلاً في الحكم حيث اغتيل هو وأخوه على يد حمود العبيد الرشيد ، ولم ينج من القتل من أبناء عبد العزيز بن الرشيد إلا سعود حيث حماه أخواله السبهان ، وبواسطتهم انتزع الإمارة من ابن عبيد . ونتيجة لذلك

بـــدأت سلســـة من الاغتيالات بين أفراد الأسرة الرشيدية أوجدت ردود فعل متشـــائمة لدى سكان حائل ، وأدت إلى ضعف الإمارة وجعلت طريقها ممهدًا إلى الزوال .

أما عن الموقف العام للعالم العربي أثناء الحروب العالمية الأولى فقد بـــدأ الحلفـــاء يرســـمون الخطط لوراثة تركيا في الأقاليم التي لها نفوذ عليها وأوهمت بريطانيا العرب بأنها سوف تساعد الثورة العربية ضد تركيا ومن ثم الاعتراف باستقلال العرب .

ثار العرب ضد تركيا ، وأعلن الحسين بن علي نفسه ملكًا ، وقاد ابنه فيصـــل جيشًـــا إلـــى العقبة وأخذ في إثارة العرب ضد الأتراك ، مما ساعد الإنجلـــيز من دخول القدس بمساعدة عرب فلسطين وتقهقر الترك من الشام . ولمـــا بـــدأت بـــوادر النصـــر للحلفـــاء قـــاموا فـــي الخفـــاء بتوقيع اتفاقية (ســـايكس – بـــيكو) ســـرًا والتي تقتسم فيها فرنسا وإنجلترا أملاك الدولة العثمانية بينهما[1] .

فـــبعد الحـــرب العالمـــية الأولـــى أصبحت مصر والعراق وفلسطين والأردن وأقطـــار الخليج العربي خاضعة للنفوذ البريطاني ، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

أمـــا الجزيرة العربية فقسمت إلى أقسام مستقلة حيث يستقل الشريف حسين بن علي بملك الحجاز ، وعبد العزيز بن آل سعود سلطانًا على نجد ،

---

(١) توحـــيد المملكـــة العربية السعودية ، محمد المانع ، ص٥٢ – ٧٧ . تاريخ نجد وملحقاتها ، أمين الرويحي ، ص٢٤٨ .

وابـــن الرشيد على بلاد شمر ، والإدريسي على عسير ، والإمام يحيى على اليمن .

وكـــان لهذا الإجراءات من دول الحلفاء أثرها على الصراعات داخل الجزيـــرة العربـــية . وكـــان الملك عبد العزيز قد أظهر براعة في مواجهة تطلعـــات بريطانيا مستغلاً كل مواهبه في إبعاد نفوذها على نجد مصممًا على تصفية كل نجد وإنهاء إمارة آل رشيد وضمها إلى سلطنته . أما ابن رشيد فقد ظـــل إلـــى جانب الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى ، وقد أمدوه بالسلاح وشجعوه في قتال الملك عبد العزيز فكانت معركة (جراب) ، ولم تكن ذات وزن واستمر الهدوء بين الطرفين في هدنة غير معلنة . أما الملك عبد العزيز فبعد أن بسط نفوذه وأصبح لديه من القوة مما يجعله مطمئنًا إلى القضاء على آل الرشـــيد . وبمـــا وهبه الله من صفات القيادة والنظرة الاستراتيجية الثاقبة للأمـــور ، والحنكة السياسية والدهاء والدراية العسكرية . كل ذلك مكنه من التوجه إلى حائل والاستيلاء عليها بعد أن عرف أن الوضع هناك يساعد على تحقيق ذلك الغرض .

ومما زاد في تصميمه ظهور مستجدات مهمة في العراق بتعيين فيصل ابـــن الحسين ملكًا عليها ، وعبد الله بن الحسين أميرًا على الأردن . وقد قدر الملك عبد العزيز خطورة الأمر في ضوء هذه المستجدات لا سيما وأنه إذا تم التعاون بين حائل والعراق والأردن ، فسيهدد خططه الرامية إلى بسط نفوذه على نجد كلها فجعل عامل الوقت مهمًا لتحقيق هدف إستراتيجيته .

وبعد أن نفذ صبر الملك عبد العزيز من بقاء إمارة حائل على عدائها له قرر الموقف بالتحرك إلى منطقة القصيم على رأس قوة كبيرة وقرر تقسيم قواتـــه إلى نسقين واحتياطي عام . وكان النسق الأول ينقسم إلى قسمين قسم بقـــيادة ابـــنه سعود ، والقسم الثاني بقيادة أخيه محمد ، والنسق الثاني بقيادة الملك عبد العزيز ويتشكل من القوة الرئيسة ، والاحتياطي العام بقيادة فيصل الدويش .

فالنسق الأول نجح في تثبيت قوة شمر وتطويق وحصار حائل ، وأمر الملـــك عـــبد العزيز الاحتياطي العام بالتوجه إلى حائل والاتصال بدفاعاتها والتمهـــيد لقيام القوات الرئيسية بقيادته للهجوم عليها . لقد عرض آل الرشيد الصلح بالشروط التي يضعها الملك عبد العزيز إلا أنه لم يوافق على ذلك .

واصـــلت قوات الملك عبد العزيز تقدمها إلى حائل وفرضت حصارًا دقـــيقًا عليها حتى أعلنت استسلامها ، وانتهى حكم آل الرشيد نهائيًا . وبدأت بوادر الأمن ترخي سدولها على مدينة حائل ، وعامل الملك عبد العزيز أسرة آل الرشـــيد معاملـــة حسنة وصاهرهم وعفا عما بدر منهم ، وهي صفة من صـــفات الفروســـية التي يتمتع بها الملك عبد العزيز في حروبه (العفو عند المقدرة)[1] .

حـــ- معركة عسير :

ارتـــبط إقليم عسير بالحكم السعودي بروابط التأييد منذ نشوء الدعوة

---

(١) مـــن شيم العرب ، فهد المارك ، جـــ٤ ص١٧٥ . شبه الجزيرة لخير الدين الزركلي ، جـــ١ ص٢٧٤ .

السلفية لأنها جاءت من المنبع الصافي الخالي من البدع والخرافات ، وسرعان ما تحول التأثير الديني إلى نفوذ سياسي لصالح الحكم السعودي . واصلت عسير تأييدها للدولة السعودية الأولى والثانية وإمدادها بالموارد المختلفة لمواجهة مناوئيها ، وهذا ما يدل على عمق الروابط الروحية والسياسية بين الإقليمين . وبعد احتلال تركيا لعسير وقتل أميرهم استخدموا أسرته في أعمال المتصرفية يقومون باختيار واحد منهم إلى أن ولي أميرهم ، وقد نجح في الإستقلال بعسير نتيجة لظروف الدولة العثمانية . وكان فيه بعض القسوة على رعيته مما دفع البعض منهم إلى الاتصال بالملك عبد العزيز يشكون إليه قسوة أميرهم . وحاول الملك عبد العزيز التدخل بالحسنى إلا أن أميرهم اعتبر ذلك تدخلاً في شؤونه الداخلية مما دفع الملك عبد العزيز نتيجة ذلك إلى الدخول معه في صراع مسلح .

ونظرًا لأهمية الإقليم الواقع سياسيًا وجغرافيًا بين الحجاز واليمن ، ولأهمية توفير قوة كبيرة كافية لاستئصال شأفة أميرهم وإرهاب حلفائهم ، فقد تم حشد عشرة آلاف مقاتل بقيادة ابنه فيصل بن عبد العزيز . فبعد أن جهز فيصل جيشه ونظمه للقتال ، وأثناء تحركه بلغه أن أفراد بعض القبائل قد قاموا بغارة على بيشة ، فوجه قوة خفيفة الحركة وتمكنت من القضاء عليها في عملية اتسمت بالمفاجأة والحزم مما نشر الذعر والهلع في أنحاء المنطقة .

وعندما شعر الأمير أن توازن القوى ليس في مصلحته استفاد من طبيعة الأرض التي لم تساعد قوات الأمير فيصل على إحكام الخناق عليه . واقتنع الأمير فيصل بضرورة اتباع أسلوب قتال يتناسب مع طبيعة الأرض ،

وطريقة القتال التي انتهاجها هي تجنبه الدخول في صدام مباشر . فشكل قوة قتال خفيفة الحركة تقوم بمطاردته ، وقد تمكنت تلك القوة من اكتساح القرى على طريق تقدمها وسقطت أبها[1] .

ط- معارك الحجاز :

نجـح الملـك عبد العزيز في الظهور على مسرح الأحداث وتأسيس الدولة السعودية الثالثة ، بعد أن دخل في صراع ديني وسياسي وعسكري مع حاكم الحجاز الشريف حسين بن علي ، انتهى باستعادة تربة والخرمة . وبعد انـتهاء الحـرب العالمـية الأولى كان الملك عبد العزيز قد حقق كل ما هو مخطط من مراحل نضاله من أجل تحقيق هدف إستراتيجيته . وكان فيما حققه مـن انتصـارات سياسية وعسكرية في الوقت الذي أصبح فيه الحاكم الوحيد لـنجد كلهـا . ثم اتبعها بأن مد سلطانه على الإحساء والقصيم وحائل وتربة والخرمة ، ولم يعد أمامه إلا الحجاز . وقد رفض الشريف الحسين الاستجابة للمحاولات التي بذلت من الملك عبد العزيز لتحديد الحدود بين نجد والحجاز . واتخـذ الشـريف قرارًا خطيرًا بمنعه أهل نجد من الحج ، وزيادة على ذلك أصـر علـى اعتـبار أمـراء الجزيـرة العربية تابعين له بمن فيهم الملك عبد العزيز .

تدخلـت الحكومـة البريطانية في محاولة لثني الشريف عن موقفه ، ودعـت جميع الأطراف إلى مؤتمر يعقد في الكويت لبحث المشاكل بالطرق الدبلوماسـية ، ولكن الشريف لم يرسل مندوبه لحضور المؤتمر . استمر منع

---

(١) توحيد المملكة العربية السعودية ، محمد المانع ، ص٩٦ – ٩٩ .

أهـــل نجد من أداء فريضة الحج ، وتعطيله ركنًا من أركان الإسلام ، فأفتى العلماء بعدم جواز منع المسلمين من الحج وفرضوا عليه اتخاذ العمل السياسي والعسكري المناسب .

فبعد التأييد الذي حصل عليه من العلماء وبعد دراسته لهذا الموضوع مـــن جميع جوانبه وتأكده من أن الشريف الحسين رفض أي تحالف أو تفاهم معـــه لعدم إدراكه أن الأراضي المقدسة ملك للمسلمين ، وكذلك مغالاته في معـــاداة الدعـــوة الســـلفية . وبما وهبه الله من فطنة وبعد النظر ، وحرصه للوصـــول إلـــى هدف إستراتيجيته الذي لا يتحقق إلا باستخدام الإستراتيجية السياســـية ، وإلا فـــاللجوء إلـــى استخدام الإستراتيجية العسكرية . قام الملك عبد العزيز بمناورة سياسية بارعه تدل على إدراكه للأمور بأن بعث برسائل إلى أقطار العالم الإسلامي ضمنها موقف الشريف حسين من القضايا السياسية والدينـــية تمهيدًا للغزو وضمانًا لعدم حدوث أي ردود فعل ، وذلك للحساسية الخاصـــة للحرميـــن الشريفين . ونظرًا لقيام حكومتين هاشميتين في العراق والأردن تناصران الشريف ، وقد أدرك الملك عبد العزيز أن ذلك يضيق عليه الخـــناق إذا لم يتخذ زمام المبادرة بالقيام بتحركات عسكرية تؤدي إلى غزو الحجـــاز ذي الأهمية الإستراتيجية من النواحي الدينية والسياسية والعسكرية والجغرافية .

فبعد أن هيأ الملك عبد العزيز لهذه المعركة كل أسباب النجاح إقليميًا وعالمـــيًا ودينيًا وسياسيًا وإعلاميًا وعسكريًا ، وضع خطته بأن تتحرك قواته مـــن تربة ثم الهجوم على الطائف في عملية مفاجئة . وفي الوقت نفسه حشد قـــوة كبـــيرة للتحرك بها إلى الحجاز لاستغلال النجاح بالتقدم إلى مكة وجدة

والمدينة المنورة عند الأمر . بدأ الهجوم على الطائف وكان صمود قوات الشريف قويًا إلا أنه تم اقتحام الطائف وفتحها . ثم استمروا في مطاردة قوات الشريف حتى جبل الهدا مكتفين بما حققوه من انتصار لتبدأ المرحلة الثانية بالاستعداد لاستعادة مكة المكرمة[1] .

أما عن النتائج الإستراتيجية التي حققها الملك عبد العزيز من فتح الطائف فهو تحقيقه نصرًا إعلاميًا ومعنويًا على المستويين المحلي والدولي . كما أقنعت الدول الأجنبية التي أعلنت في السابق وقوفها على الحياد ولم تقم بأي ردود فعل تجاهه مما شجعه لتنفيذ مخططه للاستعادة كل أراضي الحجاز . وأيضًا تحقق له انهيار سلطة الشريف حسين ومطالبته بالتنازل لابنه ، وذلك نتيجة إحداث ثغرة في جبهة الشريف مما ساعد على استعادة مكة وبقية الأراضي الحجازية .

لقد كان لنجاح قوات الملك عبد العزيز في فتح الطائف دوي في الساحات المحلية والإقليمية والدولية ، وأظهر أن قوات الشريف حسين أعجز من أن تقف في وجه قواته . وسرعان ما عقد كبار رجال مكة اجتماعًا انتهى بمطالبة الشريف حسين بالتنازل لابنه علي ، وتحت الضغط اضطر إلى التنازل عن الملك لولده اعتقاداً من أهل الحجاز أن الصراع القائم بين نجد والحجاز لأسباب شخصية وأن تنازل الحسين سيضع حدًا لمطامع الملك عبد العزيز . وكانوا يجهلون أن الملك عبد العزيز ليس بالذي يحد من

---

(١) صقر الجزيرة العربية ، أحمد عبد الغفور عطار ، جـ٤ ص٦٨١ وص٨٢١ . الوجيز في سير الملك عبد العزيز ، خير الدين الزركلي ، ص ٨٤ – ١٠٥ .

طموحاتـــه مـــثل ذلك أو يجعله يحيد عن الهدف الاستراتيجي الذي تحركت جيوشه لتحقيقه .

أدرك الشـــريف علـــي عـــدم إمكانية الدفاع عن مكة المكرمة بالقوة المـــتوفرة لديه ، وحينما بلغه قرب وصول قوات الملك عبد العزيز إلى مكة غـــادر إلـــى جده ، وجعل مكة مفتوحة لدخول قوات الملك عبد العزيز دون مقاومة . دخل الملك عبد العزيز إلى مكة دخول الفاتحين وتمت مبايعته ملكًا على الحجاز وسلطانًا على نجد .

وإن أهـــم النتائج الإستراتيجية التي تحققت هو إدراك الملك القائد عبد العزيـــز لأهمـــية مكـــة المكرمة قبلة العالم الإسلامي ، فقد بادر إلى مغادرة الرياض ليكون قريبًا من الميدان الذي تدور فيه الأحداث . وكان لدخوله مكة أكبر الأثر بأن رفعته من مجرد حاكم إقليم داخلي إلى زعيم عالمي يشار إليه بالبـــنان . دخـــل به التاريخ الإسلامي كواحد من كبار الفاتحين وأعطى لبلده عمقًا عربيًا وإسلاميًا ودوليًا كبيرًا .

أدرك الملـــك عبد العزيز بثاقب فكره وفطرته الإستراتيجية السياسية والعســـكرية أهمية تنظيم شؤون مكة المكرمة الداخلية ليؤمن الجبهة الخلفية . فجمع أعيان مكة وحدد لهم برنامجه السياسي الذي يتبناه ، ويطلب منهم العمل علـــى تنفيذه وقال : وما رأى لكم أحسن من أن تلقى مسئوليات الأعمال على عواتقكـــم . لا أريـــد أوهامًـــا وإنمـــا أريد حقائق ، أريد رجالاً بصدق وعلم وإخلاص حتى إذا أشكل علي أمر رجعت إليهم في حله وعملت بمشورتهم ،

وتكون ذمتي سالمة وتكون المسؤولية عليهم . إنني أرجوكم السرعة في العمل لأمتع نفسي برؤية هذه البلاد المطهرة تتمشى فيها الحياة الجديدة .

وهكذا تمكن الملك عبد العزيز بهذه السياسة الحكيمة كسب ولاء أهل مكـــة ممـــا قطع على الملك علي بن الحسين أي أمل في ولائهم له . كما قام الملـــك عـــبد العزيز بتوجيه قواته إلى المدينة المنورة لحصارها وإلى رابغ والليـــث لضمان وصول الإمداد البحري إلى مكة عن طريقها . وأرسل قوة أخـــرى إلـــى ينبع لحصارها ، وقوات أخرى إلى الثغور في الشمال ووادي القـــرى فاستسلمت جميع هذه المدن . وبهذه المناورة العسكرية الواسعة تحقق لـــه هـــدف استراتيجي كبير لتثبيت قبائل تلك النواحي ضماناً لعدم تدخلها في العمليات العسكرية في جده لمصلحة الشريف .

وفشـــلت جميع الوساطات الشخصية التي بذلت بين الملك عبد العزيز والشـــريف علـــي ، وأمر الملك عبد العزيز قواته بالتحرك لمحاصرة جده . وكانـــت القيادة السياسية والعسكرية بيد الملك عبد العزيز الذي رأى أن يكون موجـــودًا فـــي جبهة القتال للأهمية الإستراتيجية والسياسية العسكرية لجده . وكان الملك عبد العزيز يدرك أن الموقفين السياسي والعسكري إلى جانبه لذا لم يكن يتعجل القيام بهجوم مباشر عليها خاصة أن بها هيئات دبلوماسية وقف أعضـــاؤها علـــى الحياد في تلك الحرب . وكانت خطته تتضمن حصار جدة بحيـــث تظل قواته على تماس مع قوات الشريف ، والضغط عليها لدفعها إلى اليأس ثم التسليم .

وبعد استمرار الحال على هذا الوضع رأى قادة الشريف على أنه لا بد من تحريك الوضع على الجبهة بالهجوم على قوات الملك عبد العزيز إلا أن هـذا الهجـوم صد . وأرغمت قوات الشريف على التقهقر إلى داخل المواقع الدفاعـية ، وفشـل الهجوم الذي كان يعلق عليه الشريف الآمال . وقد ترتب على تطور الموقف العسكري تدهور الأوضاع السياسية والعسكرية في جده ، وأصـبح من المؤكد عدم صمود الشريف على أكثر من ذلك . مما دفعه إلى الطلـب من المعتمد البريطاني التوسط لدى الملك عبد العزيز بالموافقة على الشـروط التي حملها إليه من الشريف علي ، ووافق الملك عبد العزيز على تلك الشروط بعد أن أجرى عليها بعض التعديلات[1] .

دخـل الملـك عبد العزيز جدة وتنازل الشريف علي وتم تسليم جده ، وبذلـك انتهت الحرب في ربوع الحجاز ، وبويع الملك عبد العزيز ملكًا على الحجـاز بالإضـافة إلى لقبه سلطانًا لنجد . وبسط أحكام الشريعة الإسلامية وتأييدها وفقًا لما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وأن يكون حج بيت الله الحرام عملاً آمنًا يتناسب مع قدسية أداء فريضة من الفرائض . وأن يحقق الاستقرار لمملكته بمقاومة كل المؤثرات الخارجية والداخلية والداعية إلى بث الفـرقة أو الطائفية والتي تؤثر بدورها على الاستقرار السياسي . وأن تتوفر

---

(١) أصـدق البنود في تاريخ الملك عبد العزيز آل سعود ، عبد الله الزامل ، ص٤٨٠ – ٥٤٠ . عـبد العزيـز آل سـعود وعبقريـته الشخصية الإسلامية ، د/عبد العزيز شرف وزميله ، ص٢٨٥ – ٣٣٩ . أضـواء حـول الاسـتراتيجية العسـكرية للملك عبد العزيز ، العميد ، أ/ح محمد رحمو ص١٢٩ – ١٥٣ .

لمملكـــته الفتـــية السعة الأرضية لكل الاعتبارات لتحقيق العمق الاستراتيجي ونورد في ما يلي موجزًا لفتوحات جلالته يرحمه الله :

١- لقـــد استسلم آخر حصن في الرياض في الخامس من شوال سنة ١٣١٩هـــ .

٢- في عام ١٣٢٠هـــ احتل واحة الخرج والأفلاج .

٣- في عام ١٣٢٢هـــ احتل سدير والوشم والقصيم .

٤- في عام ١٣٢٢هـــ احتل عنيزة .

٥- في عام ١٣٣١هـــ احتل بريدة .

٦- في عام ١٣٣٣هـــ احتل الأحساء .

٧- في عام ١٣٣٣هـــ ناوش القبائل الموالية لآل الرشيد .

٨- في عام ١٣٣٧هـــ كانت وقعة تربة وكان النصر حليفه .

٩- فـــي عام ١٣٣٨هـــ دخلت جيوشه عسير ثم عاد إليها في حركة تأديبية عام ١٣٤٠هـــ وبعدها استقرت الأمور .

١٠- في عام ١٣٤٠هـــ انتهت بقايا آل الرشيد .

١١- في ٧ صفر عام ١٣٤٣هـــ سلمت الطائف .

١٢- في ١٧ ربيع الأول عام ١٣٤٤هـــ دخلت القوات السعودية مكة المكرمة .

١٣- في ٧ جمادى الثاني عام ١٣٤٤هـ سلمت جدة .

١٤- في ١٩ جمادى الثاني عام ١٣٤٤هـ سلمت المدينة المنورة[١] .

لقد أسس صقر الجزيرة العربية الملك عبد العزيز يرحمه الله هذا الكيان العظيم على هدف قومي هو من أعظم الأهداف . هذا الهدف هو إعلاء كلمة : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، فجعله شعارًا على راية المملكة ، وجعل السيف رمزًا للدفاع عن هذا الهدف . وقد ذكر طيب الله ثراه ذلك بالنص عند تأسيس القوات المسلحة ، فجاء في النص : « إن الهدف من تأسيس هذا الجيش هو إعلاء كلمة لا إله إلا الله » .

لقد بنى الملك عبد العزيز يرحمه الله استراتيجية المملكة العربية السعودية العسكرية ، مشيدًا هذا الكيان على منظومة استراتيجية متكاملة . أسسها على مساحة أرضية محفوفة بالبحار من طرفيها الشرقي والغربي ، مفتوحة على الأشقاء شمالاً وجنوبًا . تقل فيها عوامل التناقض ، وتزداد فيها عوامل التوافق .

فالمملكة العربية السعودية تتحمل مسئولية من أخطر المسئوليات عبر التاريخ . فهي الكيان الذي يحمي الإسلام في كل مكان ، ويساند الأمة العربية والإسلامية ويشاركها همومها وقضاياها المصيرية . فالله أسأل أن يعز هذا الصرح وأن يعزز من قوته لخدمة راية الإسلام .

---

(١) الاستراتيجية ودور عباقرة الفكر العسكري في تطورها ، للمؤلف ، ص١٩٩ - ٢١٠ .

الأمن في عهد الملك عبد العزيز

إن مـــن أهـــم أســـباب الاستقرار السياسي والاجتماعي في أي كيان أو مجـــتمعات داخـــل المملكـــة أو خارجها وعلى مر العصور والأزمان هو اختيار الرؤساء والأعضاء من ذوي الكفايات والعلم والوجاهة والوقار إضافة إلى البطانة الصالحة الدالة على الخير المعينة عليه .

ذلك أنه من الأمور المتعارف عليها أن الإدارة الحكومية لها دور كبير في استتاب الأمن أو اضطرابه .. لأن الحكومة هي الضابط الاجتماعي القوي فـــي المجـــتمعات الحديثة فإذا شابها فساد أيًا كانت طبيعة هذا الفساد أدى إلى التفكك والانحلال والضعف وانتقل ذلك بدوره إلى أفراد المجتمع فيدور الهوى فـــي رؤوس المشاغبين والمحتالين والمتحينين إلى الفرص للانقضاض على الأمـــن فيبرز العصيان وتعدد صور الأجرام . والعكس أيضًا صحيح إذا ما كانـــت الدولة قوية مهابة ، فارضة سيطرتها على الحكم قاهرة لأعدائها بعيدة عـــن التحزب والأحزاب ، لا تعتقل بغير قضاء ولا تحكم إلا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ليس من سماتها الفرقة والتطاحن والتخاصم والتناحر كلما كانت كذلك كان عاملاً من عوامل الاستقرار والأمن والنظام .

إذا كانـــت الأشـــياء تتميز بأضدادها وكما يقال إن الضد يظهر حسنه الضـــد ، فـــإن الآمن في بلاد الحجاز ونجد مقارنة بين المرحلة التي سبقت دخـــول الملك عبد العزيز الرياض وبعد دخوله وقيام الدولة السعودية لظهر الفرق جليًا من نهب وسلب وقطع الطريق وجور الظالم من سارق وقاتل وهي عـــرف ســـائد بين القبائل يساندها ضيق الرزق وكساد التجارة وقلة المال ،

إضافة إلى اقتتال القبائل قبل توحيدها . وما هو أدهى وأمر ما يتعلق بالحجاج فقد كانت الأراضي الحجازية مضرب الأمثال في الجرائم ، كان المسافر مثله مثل المقيم لا أمن على ماله ولا على نفسه . كانت الدول ترسل مع رعاياها الحجاج قوات مسلحة لدرء الأخطار عنهم وهذه القوات الخاصة ومعها القوات الحجازية لا تجدي نفعًا في كبح جماح العصابات ومنعها من سلب الحجاج أو المواطنين الحجازيين وقتلهم وسلبهم حتى ظهرت مقولة : (الذاهب إلى الحج مفقود والعائد منه مولود) . وحالة نجد والمنطقة الشرقية هي ثارات وغارات ودماء تسفك لأتفه الأسباب فلا أمن ولا أمان ولكنها الفوضى والعدوان . لأن أسباب حفظ الأمن غير موجودة ، ضعف السلطة الحاكمة وعدم قدرتها على السيطرة وتوفير الطمأنينة للمواطنين وللوافدين والحجاج والزائرين لا حدود شرعية تقام على القتلة وقطاع الطرق ولا قطع يد السارق . هذه صورة سريعة للحالة التي كان عليها الأمن قبل مجيء الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

يتوقف استتاب الأمن في أي مجتمع على القانون الذي تطبق أحكامه على أفراد المجتمع ويحكم علاقاتهم على اختلاف أنواعها . ثم هناك عوامل مساعدة تندرج تحت الوعي الشعبي العام ، والانتعاش الاقتصادي ، والاستقرار السياسي ، وسلطة تنفيذية حازمة .

هذه المعاني والأهداف السامية وما لم نتطرق إليه أو نذكره من عوامل العز والكرامة وما يطلق عليه من حقوق الإنسان في أيامنا هذه قد اجتمعت جميعها في الشريعة الإسلامية في روعة وكمال ودقة كأحسن وأحكم ما يكون.

لأن الشـــريعة وضـــعت أصـــولاً كلـــية ومبادئ عامة للتطبيق على مختلف الجماعات والأفراد بغض النظر عن الزمان والمكان .

يقـــول الملك عبد العزيز « إني مسافر إلى مكة لا لأتسلط عليها ، بل لـــرفع الظلم والمغارم التي أرهقت كاهل عباد الله ، إني مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة وتأييدها ، فلن يكون بعد اليوم سلطان إلا الشرع ... إن الذي أبغية من هذه الديار أن تعمل بما في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ في الأمور الأصلية ، أما في الأمور الفرعية فاختلاف الأئمة فيها رحمة » .

الاعـــتقاد على أن الشريعة من عند الله سبحانه وتعالى يحمل الأفراد علـــى الطاعـــة التـــي تقـــربهم من الله تعالى . هكذا اتخذت المملكة العربية الســـعودية مع فجر تاريخها هذا الدستور الإلهي الذي يحرص على الأخلاق الفاضـــلة ومـــا هو صالح لكل زمان ومكان ومعترف بعظمته . وإن القانون مهما كان حازمًا وصارمًا في أحكامه لا يكتسب هيبته ولا يبغ غايته المرجوة إلا إذا طـــبق على الجميع قال سيِّد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين : ((وإنِّي والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[1] .

ولما كان الجميع سواء أمام الشريعة فإن تنفيذ الملك عبد العزيز حكم الإعدام في أولئك النفر الثلاثة الذين قتلوا صديقًا لهم في مدة محاكمة لم تتعد ثلاثـــة أيـــام من اكتشاف الجريمة وعلى الرغم من مكانة أهلهم وتعليقهم ستة ساعات صلبًا كان له الأثر الكبير في إشاعة الأمن .

---

(١) صحيح البخاري ، مناقب فاطمة بنت الرسول عليها السلام ، جـــ٤ ص٣٦ .

وهل الأمن والاطمئنان إلا حزم في تطبيق الشريعة الإسلامية الغراء التـــي أقامها الملك عبد العزيز بين مواطنيه . وهل الأمن والاطمئنان إلا أمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو قوام الأمر وملاكه .... وإذا كثر الخبث عم العقـــاب الصـــالح والطالح .... وإذا لم يأخذ الناس بيد الظالم أو شك الله أن يعمهـــم بعقـــاب . وهل الأمن والاطمئنان إلا بتنفيذ الحدود والقصاص والدية والتعذير .

وهل الأمن والاطمئنان لا يتمان إلا بعد القضاء على المنازعات وعلى الخلافـــات القبـــيلة فإن الملك عبد العزيز قضى على جرائم الثأر قضاءًا تامًا وبذلـــك حقـــن دماء كثيرة من المسلمين . وهل الأمن والاطمئنان إلا اهتمام بالتعلـــيم ونشر الثقافة الإسلامية والأخذ بأسباب التحضر والهجرة من البادية إلـــى المدن والمراكز الحضرية ... فكلها ليست خافية على الملك عبد العزيز الذي أولاها عناية فائقة وعرف أنها من أقوى المسببات لتحقيق الأمن والأمن الشـــامل أيضًـــا في ربوع الدولة الفتية . عند إرساء دعائم الأمن والاستقرار توقف عندها الملك عبد العزيز طويلاً لأنها أهم الركائز الأساسية لأي نهضة تنموية وخطوة مهمة على طريق التطور والتقدم والازدهار .

فعمـــل الملـــك عـــبد العزيـــز على تطهير البادية من شرور الغزو « اللصوصـــية » التي كانت شائعة آنذاك عرفًا بين القبائل . وعمد رحمه الله إلى تحضير أكبر عدد ممكن من البدو عن طريق الهجرة وهيأ لسكان الهجر آلات الفلاحة والزراعة وسهل عليهم اقتناءها ، واستكثر من الآبار الارتوازية فـــيها لاســـتيعاب الـــبدو المجاوريـــن لهـــا وانقطاعهم للزراعة ، وأسعفهم بالضروري من القوت عند إصابة الغلة في أراضيهم ببعض الآفات . وجعل

لقـــبائل الـــبادية ســـجلاً في ديوانه وسهل لكل منها سبل الاتصال به وبأمراء المقاطعات ، وبث المرشدين والوعاظ في أفراد القبائل يعلمونهم الطاعة لله في إتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، وأحكم رابطة القبيلة بشيوخها واعتبر أفـــرادها جمـــيعًا جـــند له وزعماءها مسؤولين عن رعاية الأفراد . وخص الشيوخ بمنح موسمية أو شهرية ثابتة بما يكفي حاجة القبيلة وزعيمها في حال قحـــط المـــرعى وجدب المنطقة التي يحلون فيها ، وعمل على توعيتهم بأن الإسلام يحرم ما يسمونه « الغزو » . فلا غزو من هذا النوع بعد اليوم وجعل القبيلة كلها متضامنة متكافلة في المسؤولية عند وقوع أي جريمة فيها أو في مـــا يجاورها ، فإذا ظهر الجرم كان عليها إظهار المجرم وإن اختفى المجرم عوقبت كلها .

أثناء اجتماع الملك عبد العزيز- رحمه الله مع رؤساء العشائر وقف أحد رؤساء العشائر البارزين وقال في كبرياء : « يا عبد العزيز العرب تقول قطع الخشـــوم ولا قطـــع الرسوم » ما يعني بذلك أن سلب الحجاج ونهبهم وفرض (الأتاوات) عليهم عادة جارية توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ويعتبرون ذلك رســـومًا لمرور القوافل بقراهم وديارهم ، وإنه يهون عليهم قطع أنوفهم ولا يقضي على عاداتهم . فاعتبر الملك عبد العزيز كلام هذا الرجل تحديًا خروجًا وعصـــيانًا وإصـــرارًا على ما كان عليه الأمر من نهب وسلب وقتل وقطع للطريق ، فانتهز رحمه الله هذه الفرصة لثبات إصراره وعزمه الأكيد على ما يقـــول ووضـــع حـــد للإخلال بالأمن فأصدر أمره في الحال بإنزال العقوبة الشديدة الرادعه بهذا الرجل وسجنه جزاءًا على هوجه وعظة للآخرين ، ولم يبال بكونه كبير قومه ورئيس عشيرة .

للشـــرطة فـــي الدولة الحديثة وظيفتان أساسيتان : هما المحافظة على الـــنظام والمحافظة على الأمن في الدولة تتطلبان شرطة ذات صبغة نظامية وذات سلطان وقوة وإمكانات تساعد على إثبات الذنب ، وتساعد الحكومة على تنفيذ الأحكام ، وصيانة الأمن العام والراحة والسكنية العامة وحماية الأرواح والممـــتلكات وحفـــظ ســـمعة الدولة وهيبتها بين المواطنين إضافة إلى حفظ ممتلكات الدولة .

إن الانطـــباع السائد لدى كل زائر أو سائح أو حاج أو معتمر أو مقيم أو قادم للعمل أو مدعو أو صحفي هو أن المملكة العربية السعودية تنعم اليوم بصفاء روحي وإن الناس يعيشون عيشة هانئة مطمئنة آمنة ، لا خوف عليها ولا اضطراب ولا تنازع ولا تناحر ، آمنين على أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم وأعراضـــهم ، حتى أصبح الأمن والاستقرار في المملكة مضرب الأمثال في جميع الأوساط الدولية .

مـــن هذه اللمحة عن الأمن في عهد الملك عبد العزيز ... تظهر فيها الجهود الجبارة التي بذلتها حكومة المملكة العربية السعودية على عهد عاهلها العظيم في سبيل إقرار الأمن وتوطيد النظام وتأكيد هيبة الحكم في جميع أنحاء البلاد . وفرض سلطان الشرع الحنيف على جميع المواطنين والمقيمين على أرض المملكـــة . وتوخـــي أسباب الطمأنينة والأمان لأبناء الشعب السعودي ومكافحـــة الجـــريمة ومحاربـــة الرذيلة والحفاظ على الأخلاق والقيم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقطع دابر الخلافات والمنازعات بين القبائل والأفـــراد والقضاء على ظاهرة الأخذ بالثأر ، وتأمين حجاج بيت الله الحرام مـــن القـــتل والســـرقة وأعمـــال النهب والسلب والاحتيال وقطع الطريق ،

وإشاعة الأمن والأمان في الطرق الموصلة إلى جميع مشاعر الحج والزيارة ، وحراسة حدود المملكة وسواحلها وسد ثغورها وموانيها ومرافئها . والضرب بيد من حديد على كل من تحدثه نفسه بالعبث بالأمن أو يحاول تعكير صفوه أو ترويع المواطنين . مما أدى إلى استتاب الأمن واستقرار النظام في جميع أنحاء المملكة وأصبح الناس يعيشون فيها عيشة هادئة مطمئنة ، لا خوف فيها ولا اضطراب ولا تنازع ولا تنافر ولا شغب ولا تظاهرات ، آمنين على أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم وأعراضهم .

لم يكن أبناء هذا الصرح الشامخ للأمن في المملكة بالأمر السهل الهين ، ولم يحدث دفعة واحدة بل تم على دفعات في إطار من الوحدة والتضامن والتكافل الاجتماعي ، وقد احتاجت عملية البناء هذه إلى وقت طويل واصطدمت بأوضاع ومفاهيم وقيم وأفكار وتقاليد وعادات رسخت في الأذهان أجيالاً عديدة واستقرت في النفوس أزمانًا بعيدة واستوحذت على العقول أحقابًا طويلة ، وكانت تطورًا إلى الأحسن والأفضل والأكمل في جميع النواحي دينية وسياسة واقتصادية واجتماعية وفكرية .

لقد أخذ الملك عبد العزيز بما أثبت الزمن إنه كاف لاستقامة الأمور وتقويم الاعوجاج وإصلاح الأشخاص والأشياء إنه « الدستور الإسلامي » ، فدانت له الجزيرة العربية قاصيها ودانيها عن طيب خاطر ووضعت فيه بعد الله رجاءها ، فلا غرو إن كان المواطنون راضين بحكمة العادل ومستبشرين به . وقد رفعت عن ظهورهم وصدورهم مظالم ومغارم كثيرة كانوا يعانون منها في العهود الماضية ، فلا إرهاق ولا أعنات ولا ضرائب فادحة ،

ولا مصادرة أموال ، ولا اعتقال بغير قضاء ، ولا تحكم في أعناق الرجال ، ولا إرهاب ولا تسخير ، وهي نعم جزيلة حمدوا الله عليها .

ولقد حقق الله آية الأمن في البيت العتيق وسائر سبله على أيدي الملك عبد العزيز وبرهن بتطبيق أحكام الشريعة المحمدية على صلاحيتها لكل زمان ومكان . فأقام حدود الله وسنة رسوله ﷺ ، وهذه الحدود بمثابة الحصون التي تقام حول المجتمع كالقلاع المسلحة التي تقام حول المدن . تلك القلاع المسلحة تحفظ البلاد من هجوم الأعداء وتلك الحصون الشرعية تحمي المجتمع من الشرور وتقيه تطرق الفساد فجلد على الخمر ، وجلد ورجم على الزنا ، وحرم الخلوة ومنع الاختلاط ، وقطع يد السارق ، وحرم الربا ، وأوجب الزكاة ، وأمر بالصدقة ، وحقن الدماء . وأخذ من أسباب الحضارة خيرًا كثيرًا في نشر التعليم ، وإجراء الصدقات ، وفض الخصومات ، وإيواء اليتامى وتعليمهم ، ونشر الإخاء والمساواة .

إن البناء الضخم الذي وضع المؤسس لبناته في سبيل نشر الأمن بالمملكة ، وحفظ النظام بها وكف الأيدي عن السرقة ، وكبح جماح الثوار بالحدود ورهبة السلطان لا يزال حتى يومنا هذا يعلو ويعلو ويمضي[1] .

وعيت على الدنيا ، و« الأمن » حاله عادية أعيشها ، ويعيشها الناس في وطني بصورة طبيعية . الكل يعيشون في جو من الأمن والأمان والطمأنينة ،

---

(١) الأمن في عهد المؤسس الباني الملك عبد العزيز ، مقال لصاحب السمو الملكي اللواء الطيار الركن /تركي بن ناصر بن عبد العزيز . مجلة الصقور تصدرها كلية الملك فيصل الجوية ، العدد الحادي والأربعون شعبان ١٤١٩هـ ، ص١٢ – ١٥ .

دون أن يخطـــر لهم أن هناك نقيضًا خارج الحدود ، لما هم عليه ، يفتقد فيه الأمن ويفقد الأمان ويحل محلها الروع والخوف .

وحين تفتحت مداركي ، وأقبلت على المطالعة أقرأ بنهم كل ما يصل إلـــى يدي من كتب وصحف ، كنت أدهش إذ يأتيني أخبار قوم – أي قوم – يفـــتقدون الأمن ، ويعيشون في قلق ، ويعايشون الرعب والفزع ... فأتساءل لماذا؟ ....

فقـــد كنت أظن أن الأمن حالة طبيعية ، ينشأ الإنسان في أي بلد تحت أفيائها ، فلا يعكر هذا الأمن شيء ، لأن «الدولة» جاهزة دومًا للحفاظ عليه ، والضـــرب على أيدي المفسدين والعابثين . وحين بدأت أسافر خارج البلاد ، بدأت أفهم – أكثر فأكثر – معنى الأمن الذي نعيشه .

وعرفت بعد أن شاهدت وسافرت وجربت ، أن وطني هو الوحيد الذي يتصف بصفة « الأمن » . وإنه إذا كان يعتبر « حالة عادية » بالنسبة لنا ، فهو لم ينشأ من فراغ ، ولم يأت بشكل عفوي ، وإنما تقف وراءه منظومة متكاملة من « الفكر » و« الممارسة » ... أولتها الدولة أقصى اهتمامها ، وجعلتها على رأس ممارستها .... وأن هذه المنظومة قد بدأت بعد أن هيأ الله لجلالة الملك عـــبد العزيز طيب الله ثراه ، نصره بتأسيس المملكة العربية السعودية ، التي قامت على الإسلام ، وللإسلام ، والتي كانت أول دولة إسلامية طبقت شريعة الله فـــي كـــل أمورهـــا ، فكان الأمن والأمان من أولى ثمار هذا التطبيق .

وكان أن عرفت في كل أنحاء الدنيا بتلك الصفة ، وأصبحت تجربتها الأمنية تجربة رائدة تتمناها وتتوق إليها أرقى دول العالم[١] .

قبل أن يبدأ الملك عبد العزيز مسيرته لتوحيد المملكة ، كان الأمن هو أشد ما تفتقده الجزيرة العربية . كان الناس يعيشون خوفًا مستمرًا فلم يكن هناك نظام سيحكم الناس ويحقق الأمان . ولذا كانت الجريمة هي سيدة الساحة ، والعتاة من الساطين وقطاع الطرق هم سادة الجزيرة . وكانت صفات مثل : العدل والإنصاف وضمان الحقوق غائبة تمامًا عن قاموس التعامل اللفظي والفعلي بين السكان . وجاء الملك عبد العزيز وهو مدرك تمامًا لهذه الحقيقة فكانت من أول اهتماماته انطلاقًا من منهجه الذي أسسه على أحكام الشريعة الإسلامية[٢] .

يخاطب الشيخ «سلمان بن حمد آل خليفه » الملك عبد العزيز معددًا مآثره موليًا الأمن في المملكة اهتمامًا خاصًا إذ أصبح مضرب الأمثال فيقول : « وجلالتكم جديرون بكل تجلة واحترام ، كيف لا وأنتم تديرون مملكتكم الواسعة بحسن السياسة والتدبير ، وقد نشرتم عليها ألوية العدالة والنظام ، ومددتم فيها بساط الأمان والاطمئنان والعطف والإحسان . ولعمري إن الأمان العام في جميع المملكة العربية السعودية لهو مضرب المثل وهو منقطع النظير ، ولا يكاد يوجد له في العالم شبيه أو مثيل »[٣] .

---

(١) الأمن الذي نعيشه ، حسن عبد الحي قزاز ، جـ١ ص١٣ – ١٦ .

(٢) الملك عبد العزيز رؤية عالمية ، د/ساعد العرابي الحارثي ، ص٢٦٨ – ٢٨١ .

(٣) علاقة الملك عبد العزيز بالبحرين والكويت ، عبد اللطيف كانو ، الرياض ١٤٠٦هـ .

أمـــا الكاتـــب والمفكر «عباس محمود العقاد » فقد زار الحجاز ورأى وتأثـــر بـــالواقع الأمنـــي فـــي المملكة وقال : أما الأمن في المملكة العربية السعودية ، فقد رأينا في الطريق تلك القلاع التي أقامتها الدولة العثمانية على مسافات متقاربة ، بين جدة ومكة ، لحراسة الحجاج والمسافرين . وما كانت مـــع ذلـــك تمـــنع السطو أو تؤمن الناس على الحياة والمال . رأيناها بأعيننا مـــتهدمة مخـــربة اليوم ، لأن اليوم في غنى عن حراستها . وقال لنا صاحب السعادة وزير مصر المفوض في المملكة العربية السعودية وقد مررنا ببعض القـــلاع إن الســـيدة الفاضلة الكريمة عقيلته رغبت في زيارة قبر الرسول ﷺ بالمدينة المنورة ، وهو مشغول عن مصاحبتهما بما لديه من أعمال . ولكنه لم ير داعيًا لانتظار الفراغ من أعماله ومصاحبتهما في هذه الرحلة الطويلة من جدة إلى المدينة ، لأنه مطمئن إلى حالة الأمن في جميع أرجاء البلاد . فذهبت الســـيدة وعـــادت آمنة مطمئنة ، وأقدمت وحدها على تلك الرحلة التي كانت تهيبها جميع القوافل بغير حرس ولا سلاح ، وبعد أداء الإتاوة لهذا ولذاك من قطاع الطرق[1] .

ويقول الدكتور « محمد نصر مهنا » عن عبد العزيز واهتمامه بالأمن فجعله من أول بديهيات الدولة ، ولم يتهاون في إقامة الحد على كل من يخل بالأمـــن فانتفى وقوع الجريمة فيقول : (إن الرجل يعتبر ظاهرة فريدة ، كان أكثر من ملك وأكثر من مؤسس دولة ، وأكثر من مصلح وإمام . جعل الأمن والاستقرار وتأمينهما من أول بديهيات الدولة . صحيح أنه كان حازمًا ، غير متســـامح فـــي إقامـــة الحدود ، أو متهاون مع كل من يخل بالأمن والنظام ،

---

(١) الراديو المصري ، العدد ٥٧٤ ، ربيع الثاني ١٣٦٥هـ يناير ١٩٤٦م .

وقـــد أدى ذلك إلى انتفاء وقوع الجريمة . كما نجح في استمرارية دولة قوية مـــن بعـــده تســـير على هدى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الشريفة والتمسك بتعاليم وأحكام الدين الإسلامي القويم والتقاليد العربية الأصلية)[1] .

(١) عبد العزيز بن سعود ، دراسة في الزعامة ، بحث لعبد العزيز نوار مصر ١٤٠٧هـ .

إرساء قواعد الحكم وتنظيم جهاز الدولة

فبحنكة صقر الجزيرة الملك عبد العزيز « رحمه الله » السياسية ودرايته العسكرية بعد عون الله ، وما وهبه الله من صفات قيادية ظهرت جليًا في خططه الاستراتيجية السياسية والعسكرية وشجاعته في تنفيذها – حقق الله له ما كان يتطلع إليه . ولما استقرت الأمور وتولى سلطات الحكم وزمامه أقبل على تنظيم جهاز الدولة والحياة الاجتماعية وتوجيهها . ففي « ٢٥ » جمادى الآخرة سنة « ١٣٤٤هـ » أعلنت البيعة العامة ، وأصبح الإمام عبد العزيز ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها . إلا أن الملك عبد العزيز وجد أن الوضع بحاجة إلى توحيد اسم مملكته فلا يبقى هناك ما اسمه « الحجاز ونجد » وراح مستشاروه وأفراد الأسرة المالكة وبعض زعماء العرب يدرسون الناحية المهمة ، فوجدوا أن الوحدة يجب أن تكون عامة شاملة في كل شيء .

كما وجدوا أن نظام الحكم في البلاد هو « ملكي شرعي « فاشتقوا لفظ « المملكة » منه ، ثم وجدوا أن الأمة عربية صميمة في تاريخها الحافل المجيد ولغتها الشريفة التي هي لغة القرآن الكريم المجيد فوصفوها بأنها « عربية » ووجدوا أن الواجب والشرف يقضيان بتخليد ذلك البطل الذي نهض بأمته واستعاد ملكها وأنشأ هذه الدولة الفتية فكان أمامهم « الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود » وحده ذلك البطل الفذ الذي صنع هذا التاريخ الحديث الضخم لأمته ولبلاده فوصفوا المملكة بأنها « سعودية » . وعلى هذا الأساس أصبح اسمها « المملكة العربية السعودية » وأصدر جلالته رحمه الله مرسومًا

ملكـيًا أمر فيه بتحويل اسم المملكة إلى الاسم الجديد ابتداءًا من يوم الخميس « ٢١ » جمادى الأولى سنة « ١٣٥١هـ » .

والمـتحدث عـن تـاريخ المملكة العربية السعودية أول ما ينبغي أن يـتحدث عـنه هـو جلالة الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس هذه الدولة . فالمملكـة العربية السعودية في طفولتها وفي مختلف أطوارها إنما هي تاريخ لحـياة الملك عبد العزيز يرحمه الله . فهي قبل أن تكون تاريخًا تعتبر درسًا يـتلقى مـنه الإنسـان كل معاني العظمة والرفعة ، يتعلم كيف يكون الصبر والكفـاح وقوة الإيمان والعزيمة . فأينما وليت في حياته رأيت ما يملأ النفس بالإعظـام والتبجيل ، قلب كبير ، وعقل راجح ، ونفس مؤمنة . هذه المزايا مجـتمعة هي التي استطاعت أن تحيل ذلك التفكك السائد في الجزيرة العربية إلى مملكة شامخة البنيان ثابتة الجوانب .

ففـي تاريخـنا الحديـث سـجلت الجزيـرة العربية أحداثًا اقترنت بالبطولات ، وحفلت بالإصلاحات فدفعت اسمها من أحضان العزلة والانطواء إلـى ذرى المجد والارتقاء . وكل ذلك بفضل الله تعالى ثم ما وهب ابنًا من أبـنائها الأوفـياء مـن قـوة الحق ، ورجاحة العقل ، وصبر على الشدائد ، وشـجاعة عن اللقاء ، ومضاء إلى الغاية ، وإصرار على النصر ، ذلك هو « الملـك عبد العزيز بن عب الرحمن آل سعود » رحمه الله . الذي أخذ بيدها مـن مهـاوي الجهالـة بعد كبوة دامت ردحًا من الزمن كادت تنسي فيه كل خصـال الخـير التي عرفت عنها وتفقد كل مقومات العروبة والإسلام التي تمـيزت بهـا ، فقـد قطعـت الثارات أوصالها ، ومزقتها المحن والحروب المتواصـلة أشـلاء متـناثرة ، وألهتها الجهلة والخرافات عن تعاليم دينها .

فحقــق الوحدة التي فقدتها وجمع الشمل الذي كانت تفتقر إليه ، وأعاد الوجه المشــرق المنير للشريعة الإسلامية فاستتب الأمن وانتشر الرخاء . كل ذلك تحت راية التوحيد وهي : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » التي اتخذها لواءًا لــه فأعــزه الله بهــا وأيــده بنصره وقد جعلها يرحمه الله علمًا على مملكته الفتية[1].

(١) الاستراتيجية ودور عباقرة الفكر العسكري في تطورها ، ص ٢١٣ – ٢١٤ .

الفصل الرابع

- مقتضيات الولاء والبراء والانتماء
- الأخلاق في الإسلام .
- المسؤولية ..... والحقوق .
- البيئة ..... الزمن .

منهج الإسلام الأخلاقي

حـــرص الإســـلام على أن يكون فعل الخير والتزام الفضائل ، وترك الشـــر وهجـــر الرذائل . خالصًا لوجه الله تعالى ، لا لمنفعة خاصة ، عاجلة أو آجلة ، تعود على الشخص من الفعل أو الترك . فالإسلام يلزم بالخير لذات الخير ، ويأمر بالفضائل لأنها فضائل ، بل إن توجيه الإسلام الإنسان إلى فعل الخـــير والـــتزام الفضائل لذاتيهما يقوم على الإلزام ، لا على التخيير . فهو يلـــزمك بالصدق لأن الصدق يجب أن يلتزم ، ويلزمك باجتناب الكذب ، لأن الكـــذب يجـــب أن يجتنـــب . كما يلزمك بالفضائل كلها ، لأن الفضائل يجب التزامها ، والرذائل يجب اجتنابها ، ومن ابتغى غير ذلك فقد ظلم نفسه .

ولقد ضلت الإنسانية قرونًا طويلة ، ولم تهتد إلى مفهوم الخير والشر ، ثـــم خطـــى الإسلام بها خطوة واسعة . فهو في الوقت الذي يأمرك فيه بفعل الخـــير وتـــرك الشر ، يحدد لك مفهوم الخير والشر تحديدًا واضح المعالم لا تضل بعده ولا تشقى . فهو يعلن أن كل ما يحقق مصلحة الفرد أو الجماعة ، أو يدفع ضررًا عن الفرد والجماعة ، يجب أن يفعله المؤمن ابتغاء وجه الله . كذلـــك كـــل ما يعطل مصلحة أو يلحق ضررًا بالفرد أو الجماعة ، فهو شر يجب أن يترك لوجه الله .

ومـــن هـــنا نـــرى أن الإسلام هو أول داع إلى الخير لذات الخير ، وللفضائل لأنها الفضائل . وأن دعوته الخلقية ، تقوم على إعداد خاص يطهر الـــنفس ويزكـــيها ، ويجعلها محلاً لتقبل الأمر بفعل الخير والتزام الفضائل ،

ابـتغاء وجـه الله . وهـذه الدعوة المثالية إلى الخلق الكريم ، لم تعرف لها البشرية صفة ومنهاجًا واضحًا قبل الإسلام .

لقـد كانـت عـناية الإسـلام عظيمة بتربية الخلق الفاضل في الفرد والجماعة ، وقد عبر عن هذه العناية رسول الله ﷺ بقوله :((**إنما بعثت لأتمم مكـارم الأخلاق**)) . وكان خير ما امتدح الله به رسوله الكريم قوله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[1] . لأنه تربية الله الذي إصطفاه ، وأدبه فأحسن تأديبه . وإنك لتجد في كل آية من القرآن دعوة ، إلى أصل من أصول الخلق الحسـن . وتجـد كـل مـبدأ إسـلامي يرشـدك إلى نمط من أنماط مكارم الأخلاق[2] .

العفو :

خلـق يسمو بصاحبه عن الانتقام ، ويكبر به عن المجازاة ، ويتعالى عـن أن يلقى الشر بالشر ، ويجزي السيئة بالسيئة . العفو خلة تؤثر الرحمة علـى العقـاب ، وتحـل المودة محل العداوة ، والوئام محل الخصام . نرى الرجل يؤذي في نفسه أو ماله ، فإذا قدر على خصمه ، استكبر أن ينزل إليه فـيأخذه بجريرته . وآثر أن يغفر ويرحم ، ووجد في هذا الإحسان من العزة والعظـة والطمأنيـنة مالا يجد في الانتقام . وإنما لعفو عند المقدرة . فليس الـذي يصبر على الضيم ، ويخنع للقوة ، ويستسلم للظلم عفوًا ، ولكن خائفًا ذليلاً . وقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي**

---

(١) سورة القلم آية : ٤ .

(٢) للإسلام منهج أخلاقي ، د/محمود فياض ، ص٢٧ – ٣١ .

هم ينتصرون ﴾[1] . وقد أشاد القرآن بالعافين عن الناس وبين عظم جزائهم في قوله تعالى : **﴿ و سارعوا إلى مغفرة من ربكم و جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾**[2] .

وكانت سيرة الرسول ﷺ عملاً بأمر القرآن وتأدبًا بآدابه . قال رسول الله ﷺ : **((أمرني ربي أن أصل من قطعني وأعفو عمن ظلمني))** . ففي فتح مكة المكرمة ، وصناديد قريش طوع أمره ، وقد لقي ما لقي من المشركين من ظلم وعدوان وأذى فما مد إليهم يوم الفتح والقدرة يدًا بعقاب ، ولا جازاهم بما فعلوا ، بل عفا عنهم . قال عليه الصلاة والسلام : **((يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ، قالوا : خيرًا أخ كريم ابن أخٍ كريم ، قال عليه الصلاة والسلام : اذهبوا فأنتم الطلقاء))**[3] .

ذلك مثل من أمثال تبين عن خلق رسول الله ﷺ ، وهو خلق العظيم الذي أوحاه إليه القرآن ، وإنما تتجلى بالعفو حين المقدرة ، والترفع عن الاقتصاص بالذنوب . وذلكم تأديب القرآن أمة القرآن ، وتعليم رسول الله عباد الله ، وإنما يريد القرآن أن يكون المسلمون أكبر من أن يذلوا إذا غلبوا ، وأعظم من أن ينقموا إذا قدروا[4] .

---

(١) سورة الشورى آية : ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران آيتا : ١٣٣ – ١٣٤ .

(٣) زاد المعاد لابن القيم الجوزية ، جـ٣ ص١٦٥ .

(٤) من أخلاق القرآن ، د/عبد الوهاب عزام ، ص٦١ – ٦٦ .

الرحمة :

من أشرف الخصال وأكرم الأخلاق ، وإن الله عز وجل لا يحب شيئًا مثلما يحب الرحمة والتواضع ، ولا يكره شيئًا مثلما يكره القسوة والكبرياء . وقد ورد في الحديث : ((**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**))[1] . وعن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : ((**ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة**))[2] . وليست الرحمة مختصرة للنوع الإنساني فقط ، بل لكل ذي روح .

وليس ذلك الحنان الذي في قلوب الآباء والأمهات ، وكذا سائر أنواع الحيوان مما يسوقهم سوقًا اضطراريًا إلى تعهد الولد ومراعاته في كل ما يجب له . ولا تلك الشفقة التي تجدها من نفسك إذا رأيت مظلومًا ضعيفًا أو فقيرًا بائسًا ، إلا أثرًا من آثار تلك الرحمة الإلهية . ومواساة الإخوان والجيران والشفقة على الفقراء والضعفاء من أفضل الأعمال التي حث عليها الدين وندبت إليها الشريعة . وكل ذلك من آثار الرحمة الإلهية التي قامت بها السماوات والأرض . «فرحمة الله تعالى بك وفضله عليك يجري البحار وتفجير الأنهار ، وتسيير الأنوار وخلق الليل والنهار ، وإنبات النبات وبقية الآيات ، أنواع النعم المتواترات » . وبالجملة ففيك من الإنسانية على قدر ما فيك من الرحمة ، وعلى قدر ما فيك من القسوة ، يكون بعدك من الله

---

(١) رواه الطبراني وأخرجه البخاري ، جـ١٠ ص٣٦٨ بلفظ ((**من لا يرحم لا يرحم**)) .

(٢) صحيح البخاري ، باب فضل الغرس والزرع إذا أكل منه ، جـ٣ ص١٣٥ .

وانســـلاخك من الإنسانية . وإن من القلوب قلوبًا كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما تتفجر منه الأنهار إن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . ومن كان بهذه الصفة فهو شقي في الدنيا والآخرة ، ممقوت لدى الله والناس .

وإذا لوا تصف الناس بالرحمة لكانوا كاملين في إنسانيتهم ، فلم يفعلوا فعل الوحوش الضارية بإخوانهم وبني نوعهم ، ولو تمت الرحمة في النفوس لمـــا التهمـــت الأمم القوية الأمم الضعيفة . ولو تمت الرحمة في الأغنياء لما مقـــتهم الفقراء . وإجمال القول إنه إذا استقام هذا الأصل للإنسان في الدين ، استقام له سائره ففاز بخير الدنيا والآخرة . فأذل من نفسك القسوة وكن رفيق الفؤاد ، ولا تكن من غلاظ الأكباد فالراحمون يرحمهم الرحمن .

العدالة :

كلمـــة معـــناها : الاســـتقامة والاستواء والتساوي والعدل . وإلى هذا المعـــنى تـــرجع كلمة « العدالة » صفة إنسانية تتفاضل وتتفاوت تبعًا لأسبابه ومقوماتهـــا فـــي النفس الإنسانية . وهذه الأسباب والمقومات ، إما أن تكون أمورًا كسبية إرادية ، كالتعليم والتهذيب في شتى ضروبه وأشكاله ، وأما أن تكون أمورًا جينية وهبات لا دخل للكسب فيها ، كرقة الطباع ، ودماثة الخلق التي تظهر أحيانًا مبكرة في الطفولة الإنسانية ، إما بعامل الوراثة ، أو بعوامل أخرى علمها عند مبدعها وخالقها الله جل جلاله .

ولا بـــد لكمـــال فضـــيلة العدالة من تضافر هذه الأسباب والمقومات جميعًا ، لإخراج شخصية إنسانية كاملة العلم ، موفورة الذكاء ، مهذبة الغرائز تـــدرك تمام الإدراك ، الغاية التي خلقت لها ، وتثق كل الثقة في المثل العليا ومرامـــيها الســـامية . وهـــذه تفـــرق بين مطالب الأنانية الفردية ، ومبادئ الواجبات الاجتماعية بحدود واضحة المعالم ، وتربط مع مجتمعها برباط وثيق مـــن « الشـــعور المتـــبادل » . أما عندما تنعدم تلك الأسباب والمقومات كلها أو بعضها ، فإن صفة العدالة تنعدم كذلك من الشخصية الإنسانية ، فتنزل من درك إلى درك ، حتى تنحط إلى مستوى البهيمة والوحشية .

وليست فضيلة العدالة بالفضيلة التي يسهل الحصول عليها ، ولابد من الحصـــول علـــيها من منبت شريف زكي ووراثة نقية من الشوائب ، وهمة نـــزاعة إلـــى المعالـــي . أمـــا الظلم فما أيسره وأكثره ، إنه كأشواك أودية العوســـج ، يكاد يسد على الإنسانية مسالكها . أما أثر العدالة في المجتمعات الإنســـاني ، فإنها أم العمران ، ودعامة النجاح ، وسبيل التقدم ، وأوثق وسيلة لبلوغ الأمم أوج المجد . كما أن الظلم كان ولا يزال سبب الفشل والانحطاط والضعف .

ولقـــد ضرب الله سبحانه وتعالى لنا في كاتبه الكريم ، أمثال أمم بادت وانقرضت بعامل الظلم والعدوان وتناسى فضيلة العدالة قال الله تعالى : ﴿ **لقد كـــان لسبأ في مسكنهم آية .....** ﴾ الآية[1] . كذلك أذال الله من دول بلغت أوج المجـــد ، ثـــم فســـدت طويـــة أهلهـــا فتظالموا ، وتقاسموا على أنفسهم كالقياصرة والأكاسرة الذين محا الله ملكهم . إذ أرسل عليهم جنود عدله حملوا لواء الإسلام ، فأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم . وكانت عدالة الإسلام خير وســـيلة لفض جموعهم وفتح حصونهم ، وخير ملجأ ينضوي إليه المظلومون مـــن عامـــتهم وخاصتهم ، والظلم موقعه وبيل وخيم لا يبقى ولا يذر . كانت العدالة أساس التعاليم المحمدية السامية ، ورباط مجتمعها الوثيق ، ويقوم فيه الرسول الكريم ﷺ بأعظم وأسمى قدوة عرفت لمعلم أخلاق على مر القرون .

---

(١) سورة سبأ آية : ١٥ .

كـــان يعدل بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر « لا فضل لعربي علـــى عجمـــي إلا بالـــتقوى » رســـالة تضمن الحق لكل من تثبت له صفة الإنسانية . لا تفاخر ولا تطاول إلا بالعمل الصالح المتواضع والخلق السامي الركين ، سماحة وصبر وعفو ومياسرة وهدى وإرشاد لا ظلم ولا انتقام .

العدالة فضيلة أساسية تقتضيها جميع المعاملات الاجتماعية ، تقتضيها علاقـــة المـــرء بأهلـــه ، وعلاقة الجار بجاره ، والقريب بذوي قرابته وكل مواطن مع مواطنيه ، حتى يكون السبيل أهدى والطريق أقوم .

أمـــا فضيلة العدالة من الناحية العلمية فإنها تستدعي إيضاح الأسباب والعوامـــل النفســـية ، والطبيعـــية ، والاجتماعـــية ، التـــي تنحرف بالأفراد والجماعات عن سنن العدالة ، وإن العوامل النفسية هي تلك الظواهر الفطرية لـــبعض طبـــيعة الإنسان من قبل أن تلجئه طبيعة البيئة أو عدو المجتمع إلى مقارنة الظلم والعدوان . وتعنى الأسباب الطبيعية تلك الضرورات المادية التي يلجـــأ بسببها الكائن الإنساني إلى العدوان دفاعًا عن النفس ، أو ظلم سواه في ســـبيل العـــيش . أما الأسباب والعوامل الاجتماعية فتلك النزوات التي تدفع الإنسان إلى العدوان ، متأثرًا بروح الجماعة التي يعيش فيها ، ولأجل تحقيق مطـــامح لا تقتضيها ضرورة الحياة ، وإنما هي ضرب من الأشر والبطر . وبالـــرجوع إلى مظاهر التطور الإنساني في التاريخ نجد أن العوامل النفسية

هي أقدم الأسباب ، وفيها يقول الحكيم الشاعر المتنبي :

والظلـــم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفـــــة فلعلـــــه لا يظلـــــم

ولعـــل هذه الحكمة لم تبعد عن الحقيقة كثيرًا إلا أنه يصنع الظلم في الكفة الراجحة . لأن أية فضيلة تقابله لن تستطيع الرجحان إلا ومعها تتيح في الطبيعة الإنسانية مفخرًا .

وبهـــذه الدوافـــع النفســـية قد يكون من تلك العوامل حالات مرضيه طاغية ، ومن ذلك ما يروى عن الظالم الشهير « نيرون » الحاكم الروماني . ومـــا كان من أمر فرعون موسى إذا قال : ﴿ **يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أبلـــغ الأســـباب** ﴾[1] . فالملاحظـــة التاريخية توضح لنا أسباب هذا المرض النفســـي بـــأن مـــنها مـــا هو خلل في الفطرة نفسها ، ومنها ما هو « مركب الـــنقص » الـــذي تبدو أعراضه على الذين يمتون إلى بيئات وضعيه التي لا تعرف قانونًا للحياة يلتزم ، ولا دستورًا للأدب يحتذى . إن نبات هذه الفئة لا يكون في غالب الأحيان إلا عوسجًا شائكًا كذلك الذي يقول فيه الشاعر :

عذرنـــا الـــنخل فـــي إيداء شوك يـــرد بـــه الأنـــامل عـــن جـــناه

فمـــا للعوســـج الملعـــون أبـــدى لـــنا شـــوكًا بـــلا ثمـــر جـــناه

---

(١) سورة غافر آية : ٣٦ .

والحق أن الشوك سلاح مشروع في سبيل الدفاع عن العدالة والصالح العـــام . أمـــا شوكة الظالمين وأشواكهم فليست أكثر من أذى للإنسانية ليس وراءه مـــن ثمر . وعسى أن تفيق الإنسانية من سكرتها ، وتحل العدالة محل العـــدوان ، فإن في ذلك دعامة من دعامات السلام والأمن والسعادة . وإن في تعاليم الإسلام السمحاء لدعوة حارة لهذه العدالة البيضاء[1] .

ولا شـــك أن الإنسان ذو فكرة وتميز ، ويختار من الأمور أفضلها ، ومن المراتب أشرفها ، ومن المقتنيات أنفسها . وإذا لم يعدل عن التمييز في اختياره ، ولم يغلبه هواه في إتباع أغراضه أيكون مرتضيًا ؟ بمكارم الأخلاق ومحاســـنها متـــنزهًا عن مساوئها ومقابحها . آخذًا في جميع أحواله بقوانين الفضـــائل عـــادلاً في أفعاله عن طريق الرذائل . حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقـــه ، ويكتسي حلل الجمال بدماثة شمائله . فأما مراتب الناس في قبول هـــذه الآداب ، والـــذي سميناه خلقًا والمسارعة إلى تعلمها ، والحرص عليها فإنهـــا كثـــيرة . وقد أجمع الفلاسفة على أن جميع الفضائل في أربعة أصول يتفرع منها فروع كثيرة هي :

١- « **الحكمـــة** » : وهـــي علة صحة الفكر والرؤية والتميز في سائر الأشياء ، وقوامها في : « القوة الفكرية » .

---

(١) مكارم الأخلاق ، أبو بكر ذكري ، ص٧٧ – ٩٣ .

٢- « **العفة** » : وهي علة الورع وضبط النفس عن الشهوات المؤذية الفانية ، وقوامها في : «القوة الشهوانية » .

٣- « **الشـــجاعة** » : وهـــي علـــة الإقدام ، وأن لا ينهزم المرء عند الشدائد والخوف ، وقوامها في : « القوة العصبية ».

٤- « **العدالـــة** » : وهـــي علة صحة الأفعال ووضعها في مواضعها اللائقة بها ، وقوامها في : « اعتدال هذه القوى » .

وإنها مهما اختلف الفلاسفة الأقدمون المشهورون فيما اختلفوا فيه ، فلم يخـــتلفوا أن لهـــا قوى ثلاثًا من : « فكرة ، وشهوة ، وغضب » . وإنه ليست الـــنفس بجملـــتها تشتهي وتفكر وتغضب بل قوى منها معروفة ، فتغرو كل واحدة بواحدة وهي :

القوة الفكرية

وهـــي العاقلـــة الفكرية ومسكنها الدماغ وأحد قواها الفارق بين الحق والـــباطل ، والآداب يحركها نحو أفعالها الصالحة وغرضها الحق وبها يكون الفكر . فإن اعتدلت : فصاحبها يوصف بجودة العقل وصحة الفكر والتميز ، وإن خرجـــت عـــن الاعـــتدال فإمـــا إلى الزيادة فإنه يوصف : «بالمكر »، أو النقصان فإنه يوصف : « بالبلادة ».

وتنقسم القوة الفكرية الناطقة إلى :

١- **الفضائل :** وتتكون من :

« العقل » : وهو الحلم على حقيقة المطلوب بما هو عليه .

« الذكر » : هو حصول ما سبق وجوده في الذهن .

« الحفظ » : هو ثبات صور المعاني في النفس .

« الذكاء » : هو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس .

« الحكمة » : هي إدراك أفضل المعلومات بأفضل العلوم .

« الفهم » : هو حصول المعاني الواردة على النفس .

« التميز » : هو حصول الفرق بين الحق والباطل ، والخير والشر .

« النطق » : هو شرف الإنسان .

« الصدق » : هو الإخبار عن الشيء بما هو عليه .

٢- **الرذائل :** وتتكون من :

« الـــبلادة » : وهي تعطيل هذه القوة أو طرحها من غير تقصير في أصل الخلقة .

« المكر والخبث » : هو إضمار الشر للغير واستعمال الخديعة .

« الجهل » : هو ترك استعمال الصواب لعدم المعرفة .

« الكذب » : هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه وهو مذموم .

« الحمق » : هو معرفة الصواب وترك العمل به .

« الخـــرق » : هو الحركة من غير حاجة ، ومبادرة الأمور من غير توقف .

« الغـــدر » : هـــو الرجوع عن ما يبذله الإنسان من نفسه مما يضمن الوفاء به .

« التـــبذل » : هـــو طـــرح الحشمة ، والإكثار من الهزل ، ومجالسة السفهاء .

« النميمة » : هو إبلاغ شخص عن آخر كلامًا مكروهًا .

« الرياء » : هو خلق مذموم ، غرض صاحبه حسن اعتقاد الناس فيه .

« السفه » : هو استعمال الفكر فيما لا ينبغي[1] .

---

(١) ســـلوك الممـــالك في تدبير الممالك ، شهاب الدين بن أبي الربيع تحقيق عارف عبد الغني ، ص٤٣ – ٤٨ وص٥١ – ٥٢ .

القوة الغضبية

ومســكنها القلب ، وأحد قوامها حب الغلبة أو الرئاسة . فإن اعتدلت فصــاحبها يوصف بالشجاعة والفروسية وقوة القلب . وإن خرجت عنه فإما إلــى الــزيادة : فإنه يوصف : «بالتهور وكثرة الغضب » أو النقصان : فإنه يوصف : «بالجبن وضعف النفس » . وتنقسم إلى :

١- « **الفضائل** » : وتتكون من :

« الشجاعة » : هي التهاون بالآلام والإقدام على ما ينبغي كما ينبغي .

« الحلم » : هو ترك الانتقام مع القدرة ، ومجازاة الإساءة بالإحسان .

« الــرحمة » : هــو جعل مركب من الود والجزع ، لتألم المرحوم ما يلحقه .

« البشر » : هو إظهار السرور بمن يلقاه والإقبال على محادثته .

« حســن الخلق » : هو من شيم الأنبياء ، وأخلاق الأولياء ، وأدب الله تعالى .

« العفو » : هو أنفس الأخلاق .

« عظــم الهمــة » : هو استصغار ما دون من معالي الأمور وتنقسم إلى : « الأنفة ، الحمية ، الغيرة ، التثبيت ، التواضع ، كبر النفس ، النجدة ، الشــهامة ، احــتمال الكد : هو قوة تستعمل البدن في الأعمال الحسنة وحسن العبادة » .

٢- « **الرذائل** » : وتتكون من :

« الكـــبر » : وهـــو اســـتعظام المرء نفسه واستحسانه فعله دون فعل غيره .

« العبوس » : هو التقطيب عند اللقاء وإظهار الكراهية ، وقلة التبسم .

« الجبن » : هو الجزع عند المخاوف ، والإحجام عن أدنى فزع .

« صـــغر الهمـــة » : هـــو ضعف النفس عن طلب المراتب وقصور الأمل .

« القـــيادة » : هي التهاون بما يلحق الغير من الآلام ، وهو مكروه إلا في الحروب .

« العجـــب » : هـــو الذي يرى أن الأمور الحسنه التي بغيره موجودة فيه .

« شرار الخلق » : صاحبها لا ينقاد إلى جميل القول ولا يفارق القبيح .

« الحســـد » : هو التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير ويتمنى فساد حاله .

« اللهو » : هو الإقدام على ما لا ينبغي فيما ينبغي .

« الحقـــد » : هـــو إضـــمار الشر إذا لن يتمكن من الانتقام وإخفاؤه للفرصة .

« الطيش » : هو ضد الحلم ، وهو الذهول في أدنى خبر .

« الغضب » : هو أكثر الرذائل له مواد وأسباب فمنها : « الخوف » : وهـو ألم موجع للنفس لتوقع مكروه وينقسم إلى : « الحقد ، الذعر ، الحذر ، الحياء ، الخجل ، الكسل ، الغدر ، الهزل ، الزهو » .

القوة الشهوانية

ومسـكنها الكـبد ، وبهـا بقـي التناسل والأدب يكسبها السكون فإن اعتدلـت : فصـاحبها يوصف باعتدال الشهوة في المأكل والمشارب . وإن خرجت عنه فإما إلى الزيادة : فإن بالشَّره والنهم ، أو النقصان : فإنه يوصف بكـلام الشـهوة أي أعيائها وضعفها . فهذه الأصول والمبادئ ومنها السجايا والأخـلاق في الإنسان بتوسط تلك الفضائل ، ولها في أفعالها الصادرة عنها مختلفة عند الإفراط ، والتوسط ، والتفريط . فما كان عن التوسط كان محمودًا أو سمي بالمحاسن والفضائل ، وما كان عن غير التوسط كان مذمومًا وسمي بالمساوئ والرذائل . وتنقسم إلى أقسام :

١- « **الفضائل** » : كالحكمة والعفة ، ولها أسباب : كالبحث والتعليم ، ولواحقـه : كالفقـه والفهـم ، وآثـار : كتميز الصدق والخير وإيثارهما ، وأجزاء : كحسن الروية . ففضائل هذه القوة تتلخص في :

« الوقار » : وهو سكون وثباتها وتحفظها من الحركة الزائدة .

« الصيانة » : وهي التحفظ من قبيح قولاً وفعلاً والبعد من الدناءة .

« الإدارة » : هو حال للنفس ، يقودها إلى حسن تقدير الأمور .

« الدماثة » : هي حسن انقياد النفس ولينها .

« الدعة » : هي سكون النفس عند حركة الشهوات الغالبة .

« الحياء » : هو انحصار النفس خوف إتيان القبح والحذر من اللوم .

« السخاء » : هو بذل المال من غير مسألة والبذل ينقسم إلى :

« الكرم » : وهو إنفاق المال بسهولة في الأمور الجليلة .

« الإيثار » : هو كف الإنسان عن بعض حوائجه وبذلها لمستحقها .

« النبل » : هو سرور النفس بالأفعال العظام الحسنة .

« السماحة » : هي ترك ما لا تحب تركه عند الضرورة .

« المسامحة » : هي ترك بعض ما يجب عند الحاجة إلى ذلك .

« المواســـاة » : هـــي معاونة الأصدقاء والمستحقين وينقسم إلى أربعة أقسام :

« بالمال » : كمواساة أهل الحاجة بماله :

« بالبدن » : وذلك كنصرة المرء صاحبه .

« بالعلم » : وذلك كتأديب الرجل صاحبه .

« بالكلام » : وذلك بمناضلة المرء عن صاحبه .

٢- « **الـــرذائل** »: كالجبن ، والفجور . عللها : كالنسيان ، والبلادة . لواحقها : كالندامة ، والحمق . أجزاؤها : الطيش ، وسوء الرؤية . فالرذائل الصادرة عن هذه القوة تتلخص في :

«الفجور » : هو الانهماك في الشهوات القبيحة وارتكاب الفواحش .

«الشـــره » : هو الحرص على اكتساب الأموال والإكثار من المطاعم والمشارب .

« البخل » : هو منع المسترفد أي الذي يطلب الرفد والمساعدة .

« الخيانة » : هي الاستبداد بما يؤمن عليه الإنسان وجحده ودائعه .

« إفشاء السر » : هو مركب من الخوف والخيانة وهو خلق مذموم .

« المجون » : هو استعمال الأقوال القبيحة واستحسانها .

« الشماتة » : هي المسرة بمصائب الناس وهي من رداءة الطبع .

« الحرص » : هو الكآبة على الأشياء والمبالغة في تحصيلها .

وتحتاج أن نذكر طرفًا من علم الأسباب لنستعين به ، عرضًا مأخوذًا مـــن كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه ونجعله مثلاً :

سبب الحلم : التواضع . سبب الغنى : القناعة .

سبب النبل : العفاف .

سبب الأدب : المواظبة .

سبب الحظوة : الصدق .

سبب قضاء الحوائج : الرفق .

سبب المزيد : الشكر .

سبب : الأخوة : البشاشة .

سبب الضَّعة « الخسة » : الشح .

سبب الطمع : آفة الورع .

سبب القطيعة : المعاتبة .

سبب المقت : الكراهية والحقد .

سبب الذل : السؤال .

سبب الحرمان : الكسل .

سبب العقل : المداراة .

سبب الثناء : السخاء .

سبب الجود : الفضل .

سبب الرزق : الطلب .

سبب المحبة : الهدية .

سبب الغفلة : الهوى .

سبب الفجور : الخلوة .

سبب الإحسان : إفادة الإنسان .

سبب الفقر : الشرف .

سبب المذمة : الكذب .

سبب الهوان الطمع .

والخير كله يجمعه : الحياء والعقل[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٨ – ٥٧ .

الإسلام ومكارم الأخلاق

قال الله تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا** ﴾[1] هذا نص صريح قاطع في أن هلاك الأمم وضعف شأنها ، وانحلال قواها ، إنما يكون بالشهوات المتحكمة والأهواء المتردية . وقد يكون هؤلاء مديرين سيطرت عليهم أهواؤهم ، أم كانوا ذوي تقدير دنيوي وجاه لا يستمد من الفضيلة أو الدين أو الخلق الكريم بل يستمد من النفوذ الآثم والتضليل المبثوث . أم كانوا من المقلدين لكل مرذول . فإن هؤلاء هم الذين يقودون إلى الهاوية . وفي الآية الكريمة ما يشير إلى أن الترف هو الذي يؤدي إلى الفسق ، وأن الفسق هو الذي يؤدي إلى الدمار .

وأنه كلما كان الترف المردي كانت القوى المنحلة ، وكلما كانت الإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة والإخلاص المنير كان النصر المبين والتأييد من رب العالمين . ولا غرابة في أن الترف هو الذي يجعل الأهواء توجه وتحكم وتدفع إلى الانحلال . فإذا سيطر الترف المفسد كان الفسق عن أمر الله ، وكانت الإرادة المنحلة والعزيمة الخائرة ، والجماعات الحائرة ، والقلوب المتنافرة ، والطبقات المتنابذة . وأنه مهما يكن من الكلام في أثر الترف الذي أشار إليه النص القرآني ، من أنه السبب في انحلال الأمة ودمارها وذهاب قوتها . فمن المؤكد أنه مناف لسيادة الأخلاق في الأمة ، وأنه إذا قويت أخلاقها عزفت عن الترف ، ولم تنل من الملاذ إلا ما تقوى به وما يكون سائر تحت ظل الأخلاق الدينية والاجتماعية . بحيث يكون الرجل مصدر خير لأمته ، وللإنسانية .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١٦ .

فحكم الخير والفضيلة عام في القرآن ، وأن أحكامه الخلقية والشرعية عامة لا تخص قبيلاً دون قبيل . فالصدق والعدل والحياء ، وهي فضائل في كـل زمان ومكان ، والنفاق والكذب والخيانة ، والنميمة والسعاية بالفساد في الأرض ، والقتل والاعتداء بكل ضروبه – حكم القرآن أنها شر في كل بقاع الأرض . وكذلك بالعدالة خير واجب يلزم به المسلم لا فرق بين عدو وولي ، ولذلـك يقـول الله تعـالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسـط ولا يجرمـنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[1] .

وإن علماء الأخلاق يختلفون في المقياس الضابط للأخلاق . فمنهم من يقول أنه الملذات ، ومنهم من يقول أن كل ما فيه سمو وعلو خير ، ومنهم من يقـول القـياس الضمير والوجدان . وهناك مذهب مقرر وهو أن القياس هو المنفعة لأكبر عدد وبأكبر مقدار . ولعل هذا المذهب هو أقرب الآراء لأقوال فقهـاء المسـلمين . فالغزالـي وابـن عبد السلام قررا أن الأحكام الشرعية باسـتقرائها ، يتبين أنها جاءت لمصلحة الإنسان . فما يكثر نفعه على ضرره يكـون مطلوبًـا ، ومـا يكبر ضرره على نفعه يكون ممنوعًا هذا وتتفاوت المطلوبات في الطلب بقدر الضرر من مكروه إلى محرم .

ويلاحظ في تقدير المنافع أدومها وإن كان قليلاً ، فمن يتحمل المشاق لنـيل غـرض مقصود ، لا ينال إلا المشاق ، فكل مشقة لغاية تكون من قبل الأخـذ بمـبدأ المـنفعة الكاملة الآجلة التي تقرها الشريعة ، ويقرها المذهب الخلقـي السـليم . ومن أجل ذلك كانت مشقات الجهاد يفرضها حكم القرآن لسـبيل غاية سامية ، وهي حماية الدولة ، وتوفير الأمن والاطمئنان للأمة ، وتحقيق منافعها .

---

(١) سورة المائدة آية : ٨ .

إن اللذات العاجلة التي يدفع إليها الترف المدمر للأخلاق ، تتنافى مع الديـــن والأخـــلاق ، وأنه لا يمكن أن تقوم أمة ، والترف ينخر في عظامها ويدمرها كما قرر القرآن في محكم آياته .

إن الـــترف فساد وضد مكارم الأخلاق ، لأنه أثرة وأنانية . والفضيلة نفع عام وإيثار . وإن الترف إذا ساد في أمة هزع أخلاقها ، وتقطع آحادها ، وتـــنابذوا وتفرقوا ، لأن كلاً لا ينظر إلا إلى نفسه وما يحدها ولا يخرج عن دائرتها . وإن الترف والشهوات مزيتان لا ينفصلان ، وأنهما معًا ، ينجم عنها الفســـوق والخروج على أمر الله تعالى[1] . وقد قال الله تعالى : ﴿ **فإذا جاءت الطآمـــة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى** ﴾[2] .

يقول الله عز من قائل في كتابه العزيز : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[3] . يقول الله تعالى ردًا على مـــن حـــرم شيئًا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شـــرع من الله ﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بـــآرائهم الفاســـدة وابتداعهم . أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنـــيا ، وإن شـــاركهم فـــيها الكفار في الدنيا فهي لهم خالصة يوم القيامة لا يشـــاركهم فيها أحد من الكفار . عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت

---

(١) الإسلام ومكارم الأخلاق ، محمد أبو زهرة ، ص٧ – ١٥ .

(٢) سورة النازعات الآيات : ٣٤ – ٤١ .

(٣) سورة الأعراف آيتا : ٣١ – ٣٢ .

قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله الآية فأمروا بالثياب[1] .

عرف الإمام جعفر الصادق الزهد بأنه « الاكتفاء بالحلال لا التجرد من الحـــلال » . وكـــان الإمام أبو حنيفة يدعو أصحابه إلى الاهتمام بمظهرهم ، وكان يلبس أغلى الفراء في الشتاء ، ويتحلى طول العام بثياب فاخرة ويتعطر ويتنعم بالطيبات من الرزق ، وبزينة الحياة التي أحلها الله لعباده .

لقد عاش الإمام مالك بن أنس فقيرًا ولكن حين أكرمه الله وأقبلت عليه الدنـــيا ، أثث داره بأجمل أثاث ، وزينها بأحسن زينة ، وملأ أجواءها بعرف البخور وشذى العطور . وكان حفيًا بمأكله يختار أطيب الأطعمة ، وكان يلبس مـــن الثـــياب آنقها وأنصعها . وكان يحض تلاميذه على الاهتمام بالغذاء فهو صـــحة الجســـم ، والجسم وعاء العقل ، والعلم يحتاج إلى عقول قوية سليمة وراءهـــا أجسام سليمة . وعاتبه بعض الناس في عنايته الفائقة بثيابه وطعامه وأثاث بيته فكان رده عليهم : إن البيت نسب الإنسان ، وإن الطعام يعين على نشاط الذهن ، وإن الثياب تكسب المرء ثقة بالذات وإحساسًا بالسعادة .

وكـــان الإمام الليث بن سعد متمتعًا بكل ما وهبه الله من ألوان الغنى كـــان يهب المال ويقدم الطعام ويهدي الثياب والدواب ، وما استأثر بشيء من دون الـــناس تحقـــيقًا للمفهوم الإسلامي للمال وهو أن صاحبه مستخلف فيه . وحيـــن جـــاء الإمام الشافعي مصر زار قبر الإمام الليث ، ووقف أمام عقل متوهج ، ونفس معطاء ، وكف دقاق ، وذكاء خلاق ، وهو يقول : لله أنت يا إمام لقد حزت أربع خصال : « العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم »[2] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير ، جـ٢ ص٢١١ .

(٢) الإسلام وإنسان العصر ، د/نعمات أحمد فؤاد ، ص٦٤ – ٦٩ .

الأخلاق في الإسلام

إن أركـــان الإســـلام ومبادئ الأخلاق حددها رسول الله ﷺ موضحًا الغايـــة الأولـــى من بعثته ، والمنهاج المبين في دعوته بقوله : ((**إنما بعثت لأتمـــم مكـــارم الأخـــلاق**)) . فكانت الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحـــياة ، وبذل صاحبها جهدًا كبيرًا في مد شعاعها وجمع الناس حولها . لا تتشد أكثر من تدعيم فضائلهم ، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم ، حتى يسعوا إليها على بصيرة .

والعـــبادات التـــي شرعت في الإسلام واعتبرت أركانًا في الأيمان به ليســـت طقوسًـــا مـــبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغير مجهولة ؟كلا فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه ، هي تمارين متكررة لتعويد المـــرء أن يحيا بأخلاق صحيحة ، وأن يظل متمسكًا بهذه الأخلاق . والقرآن الكريم والسنة المطهرة ، يكشفان بوضوح عن هذه الحقائق .

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها ، فقال الله تعـــالى : ﴿ **أُتلُ ما أوحَي إليكَ من الكتابِ وَأَقم الصلاَةَ إن الصلاَةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكَرِ ولذكرُ اللهِ أكبَر واللهُ يعلم ما تصنعون** ﴾[1] . فالإبعاد عن الرذائل ، والتطهير من سوء القول وسوء العمل ، هو حقيقة الصلاة .

والـــزكاة المفروضة ليست ضريبة ، بل هي :غرس لمشاعر الحنان والـــرأفة ، وتوطـــيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات . وقد نص

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٤٥ .

القرآن الكريم على الغاية من إخراج الزكاة بقوله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهِم صـدقةً تُطهّـرهم وتُزكـيهم بها** ﴾[1] . فتنظيف النفس من أردان النقص ، والتسامي بالمجتمع إلى مستوى أنبَل هو الحكمة الأولى . ومن أجل ذلك وسع النبي ﷺ في دلالة كلمة الصدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم فقال : ((**على كل مسلم صدقة قالوا : فإن لم يجد قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف قالوا : فإن لـم يجـد قـال : فيأمر بالخير أو قال بالمعروف قالوا : فإن لم يفعل قال : فيمسك عن الشر فإنه له صدقة**))[2] .

وكذلـك شرع الإسلام الصوم ، فلم ينظر إليه على أنه حرمان مؤقت من الأطعمة والأشربة ، بل اعتبر خطوة إلى حرمان النفس دائماً من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة . وإقرارًا لهذا المعنى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**من لم يدع قول الزور ، والعمل به فليس لله حاجـة في أن يدع طعامه وشرابه**))[3] . وقال ﷺ : ((**ليس الصيام من الأكـل والشـرب ، إنما الصيام من اللغو والرفث فإن سابك أحد ، أو جهل علـيك أحد فلتقل : إني صائم ، إني صائم**))[4] . والقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم بقوله تعالى :﴿ **كُتِبَ عَلَيكُمُ الصيامُ كما كُتبَ عَلى الّذينَ مِن قَبلكمُ لعلّكم تَتَّقُونَ** ﴾[5] .

---

(١) سورة التوبة آية : ١٠٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، جـ٢ ص٧٩ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، جـ٢ ص٢٢٨ .

(٤) صحيح ابن خزيمة ، جـ٣ ص٢٤٢ وجـ١٩٩٦ .

(٥) سورة البقرة آية : ١٨٣ .

وقد يحسب الإنسان أن السفر إلى البقاع المقدسة ، الذي كلف به المستطيع واعتبر من فرائض الإسلام يحسب الإنسان هذا السفر رحلة مجردة عن المعاني الخلقية . إذ يقول الله تعالى في الحديث عن هذه الشعيرة : **﴿ الحجُ أشهرٌ معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج وما تفعلوا من خير يعلمهُ اللهُ وتزودوا فإن خيرَ الزاد التقوى واتقون يا أولي الألبابِ ﴾**(١) .

هذا العرض المجمل لبعض العبادات التي اشتهر بها الإسلام ، وعرفت على أنها أركانه الأصلية ، نستبين منه متانة الأواصر التي تربط الدين بالخلق . إنها عبادات متباينة في جوهرها ومظهرها ، ولكنها تلتقي عند الغاية التي رسمها الرسول ﷺ في قوله : ((**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)) . فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكي قلبه ، وينقي لبه ، ويهذب بالله وبالناس صلته(٢) . وفي وصايا القرآن ما حرم بأمهات الفضائل ، قال الله تعالى : **﴿ قُل تَعالوا أتل ما حرَّمَ ربّكمُ عليكمُ ألاَّ تُشركوا به شيئًا وبالوالدينِ إحسانًا ولا تقتلوا أولادكمُ من إملاقٍ نحنُ نرزقكمُ وإياهُمُ ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم اللهُ إلاَّ بالحقِّ ذلكمُ وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيمِ إلاَّ بالتي هي أحسَنُ حتى يبلُغَ أشده وأوفوا الكيلَ والميزان بالقسط لا تكلفُ نفسًا إلاَّ وسعها وإذا قُلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُربى وبِعهد اللهِ أوفوا ذلِكم وصَّاكم به لعلكم تذكرون ﴾**(٣) .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٩٧ .

(٢) خلق المسلم ، محمد الغزالي ، ص٧ – ١٠ .

(٣) سورة الأنعام آية : ١٥١ – ١٥٢ .

وقــد سبقت هذه الآيات الكريمات بيانًا من الله تعالى لما أحله وحرمه مما يتعلق بالاعتقاد والتشريع والأخلاق ، والقول والعمل . فجاءت هذه الآيات لتحرر العقول من الشرك في العقيدة والشرك في القول والعمل ، حتى يكون السلوك العملي على أساس من العقيدة الصحيحة ، وحتى يكون الدين كله لله .

وتنقسم هذه الوصايا إلى قسمين :

أولاً : القسم الذي يتصل بعلاقة الخلق بخالقهم :

فــيقوم علــى الأصل الأول في الدين وهو « التوحيد » وذلك في قوله تعالى : ﴿ **قل تعَالوا أتلُ ما حرَّمَ رَبُّكُم عليكُمُ ألاَّ تشركوا به شيئًا .... ﴾**[1] . إن في تذكيرهم بأن الله تعالى رب لهم ومالك لزمامهم ، ومتصرف في حياتهم وموتهــم تصــرفًا مطلقًا . وفي النهي عن الشرك بالله ، توجيه إلى عبادة الله وحــده لا شريك له قال الله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا** ﴾[2] . لأنه سبحانه لا يقبل من العبد عملاً أشرك فيه سواه .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال : ((**يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا ســألت فاســأل الله ، وإذا اســتعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجــتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ،**

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٥١ .

(٢) سورة الكهف آية : ١١٠ .

رفعـــت الأقلام وجفت الصحف))[1] . وإذا كان النهي عن الشرك بالله يعني هذيـــن الأمرين من العبادة لله وحده ، والاستعانة بالله وحده . فقد جمع هذان الأمران معًا في قوله تعالى في فاتحة الكتاب الكريم قال تعالى : ﴿ **إيَّاكَ نعبدُ وإياك نَستعِينُ** ﴾[2] .

ثانـــيًا : القســـم الـــذي يتصل بعلاقة الخلق بعضهم ببعض :

فهـــو نوعـــان : مـــا يـــتعلق « بالعمل » : فمنه ما يتصل بالوالدين ، وبـــالأولاد ، وبالمـــال وبـــرحمة الـــنفس ، وبالكيل والميزان . أما ما يتعلق « بالقول » : الوفاء بالعهد .

ويمكن تلخيص هذه الوصايا في :

أ- الوصية بالوالدين :

قال الله تعالى : ﴿ **وقضى ربُّكَ ألاَّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إمـــا يبلغن عندك الكبرَ أحدهُما أو كلاهُما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهُما وقل لهمـــا قولاً كريمًا . واخفضْ لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كمـــا ربياني صغيرًا** ﴾[3] . وقال الله تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به**

---

(١) رواه الترمذي . والإمام أحمد بن حنبل الشيباني جـــ١ ص٢٩٣ . وأبو يعلى برقم ٢٥٥٦ .

(٢) سورة الفاتحة آية : ٥ .

(٣) سورة الإسراء آيتا : ٢٣ – ٢٤ .

شيئًا وبالوالدين إحسانًا ﴾[1] . وإن مجيء الوصية بالله ليدل على بالغ أهميتها وفي السنة النبوية توضيح لهذه المكانة العظيمة للوالدين وبيان أن برهما أحب العمـــل إلـــى الله بعد عبادته سبحانه . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قـــال : ((**سألت رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين ، قلت ثم أي قال : الجهاد في سبيل الله**))[2] .

ولمـــنزلة الوالدين عند الله تعالى لم يقصر الله برهما في حال حياتهما بل جعله ممتد الأواصر بعد موتهما . عن أبي أسيد مالك بن ربيعة قال : بينما نحـــن عند رسول الله ﷺ ، إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله أبقـــي من بر أبوي شيء أبرهما به من بعد موتهما ؟ قال : ((**نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإيفاء بعهودهما من بعد موتهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما**))[3] .

ب- حقوق الأولاد :

ثـــم انتقلت الآيات بعد الوصية بالوالدين إلى الوصية بحقوق الأولاد ، وفـــي التعبير بقوله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ أي لا تقتلوهم بـــالوأد من أجل فقر ناجز ، فأبطل الله سببية هذا العمل حيث يضمن أرزاق الآباء والأبناء فقال الله تعالى : ﴿ **نحن نرزقكم وإياهم** ﴾ . وفي السنة الشريفة

---

(١) سورة لقمان آية : ١٤ .

(٢) سورة النساء آية : ٣٦ .

(٣) سنن ابن ماجه ، جـــ٢ ص١٠٢٨ وجـــ٣٦٦٤ .

المطهـــرة بـــيان للنهي عن ذلك ، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ، قلت : ((**يا رسول الله أي ذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًا وهو خلقك ، قلت : ثم أي قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أي قال : أن تزني بحليلة جارك**))[1] .

جـــ- صيانة العرض :

ثـــم تأتـــي الوصية بالعرض والشرف في قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ . وجاء النهي عن الفواحش بصيغة الجمع ليشمل التحذير جميع أنواع الفاحشة . وقد ورد في السنة الشريفة بيان خطورة هـــذا الذنب وعظمه . وعن ميمونة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله يقـــول : ((**لا تزال أمتي بخير ما لم يفش منهم ولد الزنا فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب**))[2] .

د- حرمة النفس :

ثـــم تأتـــي الوصـــية بالنفس الإنسانية وبيان حرمتها في قوله تعالى : ﴿ **ولا تقـــتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق** ﴾ . وهي النفس الإنسانية التي حـــرم الله الاعـــتداء علـــيها لكونها معصومة بالإسلام أو بالعهد . وأما قوله تعـــالى : ﴿ **إلا بـــالحق** ﴾ فهـــو الذي أمر الشرع به : « كالكفر بعد الإيمان أو الـــزنا بعـــد الإحصـــان ، أو قتل النفس الإنسانية » . وفي السنة المطهرة

---

(١) صـــحيح الـــبخاري ، كـــتاب الأدب والإيمان . النسائي في الإيمان . والإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، جـــ١ ص٣٨١ .

(٢) مجمع الزوائد ، للهيثمي ، جـــ٦ ص٢٥٧ .

الشريفة بيان لهذه الوصية منها أن النبي ﷺ قال : ((**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة**))[1] .

هـ - المال :

بعد هذا تتجه الوصايا الإلهية إلى « المال » وكيفية استخدامه والتعامل الإجتماعي النظيف الذي لا تشوبه شائبة ما . وتبدأ الوصية بمال اليتيم وبالنهي عن القرب من ماله وعن أكله إلا بالطريق الأحسن إلى أن يصبح بالغًا رشيدًا قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده** ﴾[2] . وبين الله تعالى جزاء من يأكل أموال اليتامى ظلمًا بأن هذا يجرهم إلى النار قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا** ﴾[3] .

ثم تتدرج الوصايا الإلهية إلى بناء اقتصادي سليم وحياة اجتماعية مثالية لا تصدع من أثر الخيانة والاحتكار فيها من أثر الجشع وشح النفس قال الله تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ لا نكلفُ نفسًا إلا وسعها ....** ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيلَ إذا كِلتم وَزِنوا بالقسطاسِ المستقيمِ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً** ﴾[4] . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قدم

---

(١) صحيح مسلم ، رقم الحديث ١٦٧٦ .

(٢) سورة الأنعام آية : ١٥٢ .

(٣) سورة النساء آية : ١٠ .

(٤) سورة الإسراء آية : ٣٥ .

النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك[1] .

وحـــرم الله تعـــالى الظلم وبين عاقبته الوخيمة في قوله تعالى : ﴿ **ما للظالميـــنَ من حَميمٍ ولا شفيعٍ يطاع** ﴾[2]. وبين الرسول ﷺ نهاية الظلم يوم القيامة في قوله : ((**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فـــإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محـــارمهم**))[3] . وإذا كانـــت فضـــيلة العدل وسطًا في الأمور بين الإفراط والـــتفريط ، فـــإن الإســـلام يحـــرر هذه الفضيلة من آفة الإفراط كالمحاباة والمحسوبية ، لقرابة وغير ذلك فقال تعالى : ﴿ **ولو كان ذا قربى** ﴾[4] .

ثانيًا : القسم الذي يتعلق ((بالقول)) :

الوفـــاء بالعهد ، والعهد نوعان : عهد من الله ، وعهد من الناس . أما عهد الله فهو التزام بشرعه وما عاهد المسلم ربه عليه من الإيمان والنذور . وأمـــا العهد الذي مع الناس فيكون بالتمسك بالالتزامات الصحيحة التي ينبغي التمســـك بها بينهم في سائر العلاقات والمعاملات قال الله تعالى : ﴿ **وأوفوا بالعهد إنَّ العهدَ كان مسئولاً** ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهد اللهِ إذا عاهدتّم**

---

(١) سنن ابن ماجه ، جـــ٢ . كتاب التجارات ، ص٧٤٨ جـــ٢٢٢٣ .

(٢) سورة غافر آية : ١٨ .

(٣) مختصر صحيح مسلم ، للألباني جـــ١ كتاب الظلم ، ص٤٨٣ جـــ١٨٩٢ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١٥٢ .

(٥) سورة الإسراء آية : ٣٤ .

ولا تنقضـــوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾[1] .

ونقض العهد ليس من سمات المؤمنين ، لأنه يعمل على اهتزاز الثقة وتمـــزيق العلاقـــات ، بل إن نقض العهد من علاقات النفاق . وفي الحديث المـــتفق علـــيه عـــن عـــبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **((أربـــع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كان فيه خلة منهم كـــان فيه خلة من نفاق حتى يدعها إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعـــد أخلف ، و إذا خاصم فجر))** . غير أن في حديث سفيان و**((إن كانت خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق))**[2] .

لم تكن هذه هي كل الفضائل التي يدعو الدين إليها بل إن هناك فضائل أخـــرى وأخلاقًا كثيرة ، ولكن الآيات الكريمة اقتصرت على أمهات الفضائل وأســـس الأخلاق وغير هذه يندرج تحتها على طريق الإجمال عقيدة وشريعة وأخلاقًا[3] .

---

(١) سورة النحل آية : ٩١ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للألباني ، جـــ١ ، كتاب الإيمان ، ص١٤ رقم ٢٦ .

(٣) قضايا ومفاهيم في ضوء الإسلام ، د/أحمد عمر هاشم ، ص٧ – ١٩ .

الإسلام والقيم

إن القيَم في اللغة العربية جمع لكلمة « قيمة » فالقيمة واحدة القيم وهو ثَمن الشيء بالتقويم لأنه يقوم مقام الشيء ، ويقال ماله قيمة إذا لم يدم على الشيء . ولذ فإنه يعبر بالإقامة عن الدوام نحو : ﴿**عذاب مقيم** ﴾[١] . أي في مكان قدوم إقامتهم فيه . ويرتبط بالدوام على الشيء الثبات عليه قال الله تعالى : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله** ﴾[٢] . وإقامة الشيء توفيته حقه ، قال الله تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل** ﴾[٣] . أي توفون حقوقهما بالعلم والعمل .

والقيِّم : السيد وسائس الأمر ، وقيّم القوم الذي يقومهم ويسوس أمرهم ، والرجل قيم أهل بيته هو الذي يقيم شأنهم ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم فيها قيمًا** ﴾[٤] . وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح ومنه قوله تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾[٥] . وقوله تعالى : ﴿ **مادمت عليه قائمًا** ﴾[٦] . أي ملازمًا محافظًا.

---

(١) سورة الشورى آية : ٤٥ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١١٣ .

(٣) سورة المائدة آية : ٦٨ .

(٤) سورة النساء آية : ٥ .

(٥) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٦) سورة آل عمران آية : ٧٥ .

والقـيم الاسـتقامة قـال الله تعالى : ﴿ **دينًا قيمًا** ﴾[1] أي ثابتًا مقومًا لأمور معاشهم ومعادهم . وقال الله تعالى : ﴿ **وذلك دين القيمة** ﴾[2] .

هـذا ما أسعفت به المعاجم اللغوية حول كلمة «قوم » التي هي أصل المصـطلح القيمة أو القيم . وأشار علماء اللغة إلى معنى الثبات والدوام في بعـض ما يشتق من كلمة « قوم » وهو ما أكده أصحاب الدراسات الإسلامية بالنسـبة للقيم الإسلامية . كما أنها تحمل معنى السياسة والقيادة حيث أن القيم هـي التـي توجـه سلوك الناس وتقودهم إلى الغايات التي ينشدون الوصول إليها . يضاف إلى ذلك أن علماء اللغة يشيرون إلى أنها تحمل معنى المحافظة والإصـلاح والاستقامة . وهو ما تشترط الدراسات الإسلامية وجوده في أي قيمة من القيم حتى يمكن أن توصف بأنها قيمة إسلامية إيجابية[3] .

إن المفهوم الاصطلاحي للقيم لدى عدد من الدراسات سواء الإسلامية أو الفلسفية قد تبين هذه الجوانب التي تلتقي فيها هذه الدراسات اللغوية مع تلك الدراسات الاصطلاحية والتي تتلخص في الأقسام التالية :

مفهوم القيم في الفكر الإسلامي :

تنطلق من الإيمان بمصدرين أساسيين للمعرفة هما :

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٦١ .

(٢) سورة البينة آية : ٥ .

(٣) القيم ، مساعد المحيا ، ص٢٣ – ٢٧ .

المصدر الأول « الوحي » :

والمقصـــود به القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المطهرة . ولعل إيمـــان أولئك الباحثين بتلك الحقائق هو الذي جعلهم ينطلقون في معالجة كل جزئية يتعرضون لبحثها لموضوع « القيم » من تصور الإسلام العام والشامل ، واستيعابه للزمن والحياة وكيان الإنسان . فمن يتأمل كتاب الله سبحانه وتعالى وســـنة نبـــيه سيدنا محمد ﷺ يجد أن تعاليمها قد شملت أمور الدنيا والدين . وليس ثمة شك في أن الشمول أحد الخصائص التي تميز بها الإسلام عن كل مـــا عـــرفه الـــناس مـــن الأديان والفلسفات والمذاهب بكل ما تتضمنه كلمة « الشمول » من معان وأبعاد . ولقد عبر الشيخ حسن البنا رحمه الله عن أبعاد هذا الشمول في رسالة الإسلام بقوله :

(إنهـــا الرســـالة التي امتدت طولاً حتى شملت أباد الزمن ، وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم ، وامتدت عمقًا حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة)[1] .

فالإســـلام وهـــو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية جميعًا لم يعالج نواحيها المخـــتلفة جزافًا ، ولم يتناولها أجزاءًا . وترد إليه كافة الفروع والتفضيلات وتـــربط بـــه كـــل صادرة عن نظام شامل كامل لا يرتجل الرأي بكل حالة أو واقعـــة . إضـــافة إلى أن هذا التصور الإسلامي يمتاز بتناسق عجيب بين عقائده وعبادته ، وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق وما يحبذه ويأمر به من الأخلاق والآداب .

---

(١) الخصائص العامة للإسلام ، د/يوسف القرضاوي ، ص١٠٥ .

هذا التصور يلتمس في أصول التشريع الإسلامي «القرآن والسنة »وما انبثق عنهما من إجماع وقياس . وهذه المصادر تصور الإسلام في كل ما يصدر عنه من تعاليم وتشريعات ومعاملات ، فهو دين جاء لينقذ البشرية كلها من الركام الذي كان ينوء بأفكارها وحياتها . وينشيء لها قصورًا خاصًا متميزًا تسير وفق منهج الله القويم[1] .

وإن المجتمع المتحضر هو الذي تكون قاعدته الأسرة حيث إنها في ظل المنهج الإسلامي هي البيئة التي تنشأ وتنمي فيها القيم الإنسانية . أما حينما تكون قاعدة المجتمع هي العلاقات الجنسية الحرة والنسل غير الشرعي وتتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الجيل . عند ذلك يحق لنا أن نصف ذلك المجتمع بأنه متخلف حضاريًا بالمقياس الإنساني . وتأسيسًا على ذلك يرى أن القيم الإسلامية هي اللائقة بالإنسان ، وإن الإسلام هو الحضارة . ومن ثم فإن المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر بحيث يعيش الإنسان فيه بالقيم التي قررها الله له ويسقط عنه كل قيمة لا تنسجم مع شرع الله[2] .

المصدر الثاني « العالم » :

ويشمل البشر الموجودين فيه حيث يمكن أن نتلقى من بعضهم أخبارًا ومعلومات ، فيكون أولئك حينئذ مصدرًا للمعرفة . ويشمل الأحوال الداخلية للإنسان من الحب والكراهية والرضا ، ويشمل كذلك عالم المحسوسات من

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام ، سيد قطب ، ص٢٠ – ٢١ وص٣٥٨ .

(٢) معالم الطريق ، سيد قطب ، ص١١٢ .

أشـــجار وجبال . كما يشمل أيضًا الرؤيا الصادقة وهي تؤخذ ببعض الشروط ويعمـــل بها في الجوانب الشخصية ، ولا نعدها معرفة نضيفها إلى المعارف الدينية لدينا والفرق بين الوحي والعالم باعتبارهما مصدرين للمعرفة أن العالم خلـــق الله بيـــنما الوحي هو كلام الله ، ولهذا الاختلاف في طبيعة المصدرين نـــتائج منهجية مهمة : ومن هنا فإن الفرق بيننا نحن المسلمين وبين الملحدين والماديـــين أنـــنا نؤمـــن بمصدرين للمعرفة بينما لا يعترفون هم إلا بمصدر واحد . وحتى اليهود والنصارى الذين يؤمنون إيمانًا عامًا بالوحي لا يملكون شيئًا يقطعون بأنه كلام الله تعالى ، ولا شك أن إيمان تلك الدراسات الإسلامية بهذيـــن المصدرين للمعرفة يستتبع أن الباحثين فيها إذا أرادوا الحصول على معرفة في موضوع ما فإنهم لا يفرقون بين ما يجد منه في الوحي وما يجدونه في العالم[1] .

ويرى محمد دراز في كتابة القيم «دستور الأخلاق في القرآن » والذي أبرز فيه الطابع العام للأخلاق التي تستمد من كتاب الله سبحانه وتعالى وذلك من الناحيتين النظرية والعملية . يرى أن القيم لا تشمل فقط الإيجابية بل يؤكد سلمًا من القيم الإيجابية والسلبية رتبت بعلم وتنوعت في وفرة . كما يؤكد أن القيم الإيجابية تنقسم إلى قسمين :

١- **مـــنها مـــا هو «إلزامي »** : يجب أن يلتزم بعمله كل مسلم إذا ما تحقـــق فيه شروط ذلك العمل ، منها شهر من الحرمان يفرض على شهواتنا

---

(١) القيم ، مساعد المحيا ، ص٦١ – ٦٢ .

وعشـــر من محاصيلنا وجزء من أربعين جزء من أموالنا نوجهها إلى الفقراء وخمس صلوات في كل يوم .

٢- **ومنها ما هو «مرغوب فيه»**: وهذا هو المندوب يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه ، والقرآن يفتح الطريق إلى مشاركة أكبر . وإنما يدعو دائمًا إلى أن يـــرتفع إلـــى درجـــات أكثر جدارة كقوله تعالى : ﴿ **وأن تصـــوموا خير لكم** ﴾[1] .

كمـــا أنه قد قسم الأخلاق العملية إلى أنواع خمسة كل نوع ضمنه من النصوص القرآنية ما يؤكد عناية القرآن فيه واهتمامه به ، وذلك بحسب نوع العلاقات التي تنظمها كل قاعدة من قواعد الأخلاق . وبناءًا على ذلك التلازم بيـــن كـــل من القيم والأخلاق ، فإنه يمكن أن نعدها أنواعًا للقيم العملية هذه الأنواع هي :

أ- الأخلاق والقيم الفردية :

وتشمل الآيات المتصل بالتعاليم الخلقية للفرد . والجهد الأخلاقي والتي تأمر بصفاء الروح والاستقامة والعفة والسيطرة على الشهوات . والآيات التي تنهى عن الكذب والنفاق والبخل والحسد والانتحار ... الخ .

ب- الأخلاق والقيم الأسرية :

ويصـــفها تحـــت أقســـام الواجبات نحو الآباء والأبناء والواجبات بين الأزواج والواجبات نحو الأقارب والميراث .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٤ .

جـ- الأخلاق والقيم الاجتماعية :

ويصنفها إلى « المحظورات »تحريم القتل والسرقة والاختلاس والخيانة والتجسس . « الأوامر »مثل : أداء الأمانة ، وكتابة الدين ، والوفاء بالعهد ، وشهادة الصدق ، والإحسان إلى الضعفاء ، ودفع السيئة بالحسنة ، والعفو ، والأمر بالمعروف . « قواعد الأدب »مثل : الاستئذان قبل الدخول ، وخفض الصوت ، والمبادرة بالتحية والرد على التحية ، وحسن اختيار الحديث .

د- الأخلاق والقيم الخاصة بالدولة :

وهي تشمل الآيات التي توضح العلاقة بين كل من الحاكم والمحكوم ، وكذلك الآيات التي تنظم العلاقات الخارجية سواء في الأحوال العادية أم في حال الخصومة .

هـ- الأخلاق والقيم الدينية :

وتنطوي على الآيات التي تنظم واجبات الإنسان نحو ربه كالإيمان به وبما أنزل ، وطاعته والتوكل عليه والتدبر في آياته وصنعه وذكره ، وأداء الصلاة المفروضة وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً[1] .

---

(١) القيم ، مساعد المحيا ، ص٥٨ – ٧٩ .

القسم الثاني

مفهوم القيم في بعض الدراسات الفلسفية

يقسم الفلاسفة العلوم الفلسفية التي تبحث فيها الفلسفة إلى ثلاثة مباحث رئيسية هي : « مبحث الوجود ، مبحث المعرفة ، مبحث القيم » . وتنضوي تحت هذه الأقسام شتى المعاني التي تضبط مسالك الإنسان في خضم حياته وهي : « الحق ، والخير ، والجمال » . فقيمة الحق والخير تمليها على الإنسان فطرته ، قيمة « الحق »فيما يعلمه ويدركه ، وقيمة « الخير » فيما ينشط في سبيله . أما القيمة الثالثة فهي حلقة وسطى تقع بين الإدراك من ناحية وبين السلوك من ناحية أخرى . وتتفرع من تلك القيم الثلاث معان متعددة منها العدل ، والسلام ، والحرية .

وينقسم الفلاسفة بصفة عامة حول ما إذا كانت قيم الأشياء تحدد بمعزل عن خبرة الناس بها في الحياة الواقعية أم قيمة الأشياء في حياة الناس وتشتق من خبراتهم بها إلى قسمين :

١- اتجاه الفلسفات المثالية أو العقلية :

فهي تقول باستغلال القيم وانعزالها عن الخبرة الإنسانية . فلسفة « أفلاطون » يمكن النظر إليها على أنها بحث فيما يجب أن يكون وما يجب أن لا يكون . وبهذا يجعل مصدر القيم الإنسانية خارجًا عن الحياة الواقعية والخبر الحية للإنسان ، وأن مصدرها عالم ثابت مطلق . وأصحاب هذا الاتجاه المثالي العقلي يحددون مصدر تلك القيم بأنه ذلك العالم المثالي الذي عاش فيه المرء قبل مجيئه إلى هذا العالم الحسي . وأن ما لديه عن قيم الحق والخير والجمال هو على الأرجح ذكرياته عن ذلك العالم المثالي ، أو يحددون العقل فيما بعد المصدر الوحيد لتلك القيم .

٢- اتجاه الفلسفات الطبيعية :

فهي جزءًا لا يتجزأ من الواقع الموضوعي للحياة والخبرة الإنسانية . فهـي ترى أن قيم الأشياء هي من نتاج تفاعلنا معها ، وتكوين رغبتنا نحوها أي أن القـيم التـي نتمسـك بها هي نتاج عادات فكرية من نسج الإنسانية ، فأصـحاب هـذا الاتجـاه يـرون أن الأشياء ليست في ذاتها إنما هي أحكام يصـدرها المرء على الأشياء من خلال تفاعله معها وخبرته بها . وبناء على ذلـك فإن مفهوم القيم يتميز بخاصية أساسية هي أنه يقوم على أساس قضية معيارية وليس على أساس قضية وجودية .

إذاً القـيمة ليسـت شـيئًا مستقلاً عن الأشياء التي ترتبط بها مفاهيم الـناس ، وإنمـا هـي صفات تميز هذه الأشياء في ضوء معايير تتضمن : « الحـق » وهـو الجانـب المعرفي ، ثم « الخير » وهو الجانب الخلقي ، ثم « الجمـال » وهـو الجانـب التذوقي . وفي نظر تلك الدراسات الفلسفية تعد الأخلاق وكافة القيم الاجتماعية نتاج خبرات وتفاعل اجتماعي يصطلح أفراد المجـتمع علـيها لتنظـيم العلاقات بينهم . وذلك في نطاق الأساس الثقافي ، ويشمل الوسط الذي ينشأ فيه المرء من النظم والتقاليد والعرف . ووسيلة هذه الثقافة في إبراز القيم المحافظة على « اللغة » ويقسمونها إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : القيم الإلزامية :

وتشمل الواجبات والمنهيات ويرعى المجتمع تنفيذها بقوة وحزم سواء عن طريق العرف أو عن طريق القانون .

ثانيًا : القيم التفضيلية :

وهـــي القـــيم التي يشجع المجتمع أفراده على الإقتداء بها ، ولكنها لا تحتل مكان الإلزام التي تتطلب العقاب .

ثالثًا : القيم المثالية :

وهـــي إن كان المجتمع بفئاته المختلفة يحس باستحالة تحقيقها إلا أنها تؤثر في توجيه سلوك الأفراد .

هـــذه هي مستويات الإلزام بالنسبة للقيم في نظر أولئك الفلاسفة وهي مســـتويات ليســـت القـــيم فيها ثابتة في كل عصر وليس بعضها منفصلاً عن بعض[1] .

الخلاصة : مما سبق يتضح أن مصطلح القيمة أو القيم الإسلامية يمكن تعريفها بأنها : (الأحكام التي مصدرها المرء على أي شيء مهتديًا في ذلك بقواعد ومبادئ مستمدة من القرآن والسنة وما تفرع عنها من مصادر التشريع الإســـلامي . وتكـــون موجهة إلى الناس عامة ليتخذوها معايير على كل قول وفعل) .

وأنـــه لا يمكن أن يختار أولئك الذين يظنون أن قيم الإسلام يمكن أن يعمـــل ببعضها دون الآخر . فقد ذم الله سبحانه وتعالى أولئك في كتابه حيث قال سبحانه : ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل**

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٨ – ٣٧ .

ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾[1] .

إن المصـــدر الأول والوحيد الذي تستقي هذه القيم هو كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ، وما تفرع عنها من مصادر كالإجماع والقياس . وأي مصدر غير هذه المصادر لا يمكن أن يقبل منه ما يرد عنه إلا إذا وزن ذلك بما في التشـــريع الإســـلامي . وأن هـــذه القيمة تدور في دائرته بحيث يحتويها ذلك المصـــدر في حكم من أحكامه أو نص من نصوصه . وإن كان المصدر هو ذلـــك المجـــتمع وتفـــاعل الأفـــراد فيه عدا مصدر القيم في هذه الحالة ليس الإســـلام ، وذلك إذا لم يكن الإسلام يحتوي أو يقبل هذه القيم . أما غاية من يلتزم بهذه القيم فهي أن توجه سلوكه وتضبط قوله ، ويتخذ معايير يحكم من خلالها على كل ما يصدر عنه أو عن غيره من الأقوال والأفعال أهو حق أم بـــاطل . ومعرفة هذه القيم وربما الاقتناع بها لا يكفي وحده ، وإنما لابد من العمـــل بها على المستويات الشخصية والعامة . وأن تفريعات القيم وأنواعها وأقسامها تنقسم إلى الأنواع التالية :

١- قيم العبادات والعقائد :

وتشمل كل ما يتعلق بالعبادات القولية والفعلية كالصلاة والزكاة . كما تشـــمل ذكر الله وكل ما يتعلق بالعقيدة ويرتبط بها سواء كان ذلك من خلال بيانها وإيضاحها أو رد الشبهة الواردة عليها .

---

(١) سورة البقرة آية : ٨٥ .

٢- القيم الخلقية :

وتشـــمل كـــل الجوانـــب الأخلاقية سواء المتعلقة بالأفراد بينهم وبين أنفســـهم أو المتعلقة بالجماعات مع بعضهم . ومن أمثلة تلك القيم الأخلاقية : الصـــدق ، والأمانـــة ، والإيثار ، والحياء ، والصبر ، والعدل ، والرحمة ، والجود ... الخ كما يقابل هذه القيم ما يناقضها من القيم السلبية مثل : الكذب والخيانة ... الخ .

٣- القيم الاجتماعية :

وتعنـــي بـــه مجموعـــة أو أفراد يجمعهم رابط معين سواء كانت تلك الرابطة هي الأخوة أو البنوة أو الأبوة الأمومة أو القرابة أو الصداقة . وكل ما يترتب على ذلك من حقوق أو واجبات على الفرد منهم أو الجماعة يعد من القيم التي تدخل تحت القيم الاجتماعية .

٤- القيم العلمية :

وتشـــمل كافة الجوانب العلمية ، فكل ما يرتبط بالعلوم سواء الشرعية أو العربـــية أو الاجتماعـــية أو التطبيقية يدخل تحت تلك القيم ومن أمثلة ذلك طلب العلم[١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٨٠ - ٨٦ .

المسئولية في الإسلام

الإســـلام نظـــام اجتماعـــي متكامل الجوانب لجميع البشر في جميع أعصارهم ومواطنهم ، وهو إلى جانب هذا الشمول للإنسانية كلها منذ نزوله في محيطها الكوني والزمني ، فإنه لا يختص بميدان دون آخر ولا يقف عند جهة دون أخرى . ولكنه حريص على إصلاح سريرة الإنسان وسلوكه على السواء فهو دين عبادة يرعى صلة العبد بربه ، ودين حياة وسلوك . وهو بهذا المزج العجيب بين الوجدان والتصرف أو بين العبادات والمعاملات أو بعبارة أشمل بين الدنيا والآخرة . يجعل من الصعب فصل بعض أجزائه عن بعض ، فـــلا يســـتقيم في ميزانه إيمان العبد إذا ما أراد أن يعمل بجزء منه دون بقية الأجزاء .

فمنطق الإسلام جعل المسلمين أمة واحدة مترابطة الأجزاء ، في حين أنـــه ينظم مجتمعهم بما يكفل سلامة البناء الذي يبدأ بالفرد ، وينمو بالأسرة ، ويتمدد في شكل الجماعات ، والتي بدورها تشكل الهيكل العام للأمة .

فالشريعة الإسلامية لم تُخلِ أحدًا من المكلفين من المسئولين بمعنى أنها تعتـــبر « الفرد » مسئولاً مسئولية تامة عن ذاته ، وتحمله نتيجة أفعاله بالنسبة إلى نفسه وبالنسبة للآخرين أيضًا . تليها مسئولية « الأسرة »عن أفرادها الذين هم في رعايتها وتحت إشرافها . ثم « الجماعة » مسئولة عن توجيه الأسر التي تمـــثل الخلايـــا التـــي تتكون منها الجماعة ذاتها ، وعن سلامة الأفراد الذين يشكلون الجزئيات التي هي في حقيقتها أجزاء لذلك المجتمع الكبير . والدولة بأجهزتها وأنظمتها مسئولة عن استقامة الأفراد وسلامة الأسر وأمن الجماعة

وتقويم ما يحدث في أي مكان من ذلك من اعوجاج . وتنفيذها الشرائع وإقامة الأحكام ، وقمع كل ألوان المفاسد والشرور .

إن أقســـام المسئولية وحدودها وفقًا لما رسمته شريعة الإسلام تتلخص في :

١- المسئولية الشخصية :

وهـــي مسئولية خاصة بين العبد وربه قال الله تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمانه طائرهُ في عُنقهِ ونُخرجُ له يومَ القيامةِ كِتابًا يلقاهُ منشورًا** ﴾[١] .

فالإسلام يجعل كل فرد مسئولاً عن نفسه يجني ثمارها إن أحسن وينال عقابهـــا إن أســـاء . فالجزاء يتحمله الشخص المذنب وحده ، فلا يتعد الجزاء شخص المخالف إلى غيره إلا بمقدار اتصاله بالجريمة أو اشتراكه بها . لذلك فالإسلام حينما يقرر مبدأ العدالة في تطويق الجزاء بعنق الجاني وحده فيقول الله عز وجل : ﴿ **فَمَن يعمل مِثقالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرهُ ، ومن يعمل مِثقالَ ذَرَّةٍ شرًا يَـرهُ** ﴾[٢] . وحينما يقرر الإسلام ذلك لم يفعل إلا ما تقتضيه العدالة ويرضاه العقل وتقبله الفطرة السليمة . ولكنه وهو يحمل على عاتق كل فرد مسئوليته الكاملة عن نفسه لا يدعه هملاً ، وإنما يعده لحمل هذه المهمة . ثم هو يحيطه بالضـــمانات اللازمـــة التي تكفل توجيهه ورقابته ليصبح بعد ذلك في النهاية إنســـانًا كاملاً جديرًا بحمل أمانة الخلافة في الأرض ونشر الحق والخير بين الناس .

---

(١) سورة الإسراء آية : ١٣ .

(٢) سورة الزلزلة آيتا : ٧ – ٨ .

ومن أجل ذلك جعل الإسلام وجهته المصادر الأصلية في النفس حتى يطهرها من أدران الجريمة . وجعل على هذه الروافد التي تمد المرء بأفعاله وميوله واتجاهاته حارسًا دائمًا لا يَغفلُ ، يراقب خلجاتها ويوجه تصرفاتها . ذلك الحارسُ هو : (**ضمير الإنسان**) الذي لا يفارقه ، والذي يسيطر عليه في جميع اللحظات صحوه التي يمكن أن يحاسب فيها على ما يفعل . وعذاب الضمير أشد ألوان العذاب التي تقع على الإنسان . وتوجيه الضمير أقرب إلى الاستجابة من كل العوامل الأخرى ، وحتى ولو ضعف أو غفل عند وقوع المخالفة لم تنته مهمته ، ولكنه يستأنف عمله بالتأديب الذي لا يساويه أي لون من ألوان العقاب . ولكي يكون هذا الحارس حيًا قويًا على أداء رسالته ، فإن شريعة الإسلام تأخذ بالتربية والتهذيب بثلاثة عوامل رئيسية يرتكز بعضها على البعض الآخر[1] ، تتلخص في :

أ- صدق المعرفة بالله تعالى وصفاته واليوم الآخر وما فيه بالرسالات المتتابعة فإن ذلك الإيمان . الذي يجعل صاحبه في حالة من التقوى والخوف تموت معها الأنانية والأثرة وحب الذات والميل إلى الشهوات لتتيقظ إلى جانبها صحوة الوجدان والسمو النفسي الذي يجعل الحياة وسيلة إلى السعادة الأبدية . وقد بُثَّت الآياتُ الداعيةُ إلى الإيمان في القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ بثًا واسمع على سبيل المثال من ذلك قول الله تعالى : ﴿ **آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما**

---

(١) المسئولية في الإسلام ، محمد زكي الدين حجازي ، ص٩ – ٣٤ .

رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[1] .

لقد جاءت هذه الآية الكريمة فتذكر التقوى وتجعل من عناصرها الرئيسية الإيمان بالغيب على عمومه وخصوصه وأداء العبادة التي تربط العبد بربه ، والتي تجعله يقيم ميزان التكافل بين نفسه وغيره من الناس ثم يؤمن بوحدة العقيدة وعمومها في الرسالات . فإذا تحقق هذا الإيمان فستجد الصورة الوضيئة للإنسانية الحقة التي يتحلى بها الفرد . فيأخذ ماله ويعطي ما عليه من غير تزيف أو إنكار .

ب- العبادة التي تصل الفرد بربه ، وتسمو بخلائقه ، وتحسن بطريقها معاملاته وصلاته . أما إذا كانت العبادة مظاهر فإنها لا تصل إلى غايتها بالمقصود منها ولذا فإن القرآن الكريم وما ورد عن النبي ﷺ يضع لكل ذلك مقاييس تبين صحيح العبادة من سقيمها . ولذا فإن القرآن الكريم حينما يذكر الصلاة فإنه يذكر أثرها القوي في مقاومة الشرور ، وفعاليتها في تنقية الدوافع الشريرة في النفس الإنسانية إذ يقول الله تعالى : ﴿ **اتلُ ما أوحيَ إليكَ من الكتابِ وأقم الصلاةَ إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعونَ** ﴾[2] . والنبي ﷺ يصف لنا الصلاة المقبولة لأنها تربط صاحبها مع الجماعة برباط من التآخي والتراحم والبر .

---

(١) سورة البقرة الآيات : ١ – ٥

(٢) سورة العنكبوت آية : ٤٥ .

وليس ربط العبادة بالحياة قاصرًا على الصلاة وحدها ، وإنما هو قدر مشـــترك بين جميع الشعائر الإسلامية « فالصوم » يقول فيه النبي ﷺ : ((**من لـــم يـــدع قـــول الـــزور والعمـــل بـــه فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشـــرابه**))[1] . ويصـــف الحـــج المقبول الذي لا يصاحبه رفث ولا فسوق ولا جدال ، فيقول الله تعالى : ﴿ **الحج أشهر معلوماتٌ فمن فرضَ فيهنَّ الحجَّ فـــلا رَفـــثَ ولا فُســـوقَ ولا جدال في الحج وما تفعلون من خير يعلمهُ الله وتزودوا فإن خير الزادِ التقوى واتقونِ يا أول الألباب** ﴾[2] ويقول النبي ﷺ : ((**مـــن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**))[3] . والأمثلة على تزكـــية الـــنفس وتهذيب الخلق وإحياء الضمير بالعبادة مع ربطها ربطًا وثيقًا بالعمل في الحياة أكثر من أن تعد .

ولعل ما يقوي معنى فساد العباد عند الله تعالى إذا فسد سلوك صاحبها وساء خلقه مع الناس ما ورد من أن النبي ﷺ يصف شرار الناس بأنهم الذين تـــنقطع الصلات بين الناس وبينهم وتشذ مع الناس أخلاقهم وتسوء معاملاتهم معهم .

إن الفصـــل بين العبادة والسلوك ، أو بين الإيمان والعمل في الإسلام أمـــرًا لا وجود له فيه . والذين يقولون ذلك فهو افتيات على الإسلام أو جهل بحقائقه .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، جـــ٣ ص٣٢ . القيم ، مساعد المحيا ، ص٥٨ – ٧٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٩٧ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، جـــ٣ ص١٦٤ .

ج- من أهم العوامل التي تربي ضمير الفرد شعوره بأنه موضوع أبدًا تحت رقابة خفية تجازي على الخير وتعاقب على الشر ، فلا تنس العمل ولا تفرط في العقاب . وسواء انكشف أمر الشخص في الدنيا أم أفلت من العقاب ، فإنه لا يحول بين القوة وبين أداء مهمتها . ويوضح ذلك ما يراه العلماء من أن الحدود إذا أقيمت على أصحابها لا تكون مكفرة للجرائم التي ارتكبوها . حيث أن إقامة الحد إجراء اقتضته حماية الجماعة من الشرور التي تقع فيها ، ولا صلة له الجزاء الأخروي ، ومن هنا قالوا : « **الحدود زواجر لا جوابر** » .

ولقد شاع القرآن الكريم والحديث التذكير بإحاطة الله بأفعال الناس وكشفها وإحصائها وباليوم الآخر وما فيه فيقول الله تعالى : ﴿ **ووُضع الكتابُ فترى المجرمين مُشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتابِ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حَاضرًا ولا يَظلمُ ربّك أحدًا** ﴾[1] . ويقول جل شأنه : ﴿ **ويَعلم خائنةَ الأعيُن وما تُخفي الصدورُ** ﴾[2] فإذا اجتمع ذلك كله إلى جانب الإيمان مع ثبوت الثواب والعقاب في الآخرة كان هذا أقصى ما يمكن أن يبلغ « بالضمير » أعلى درجات اليقظة والتنبيه . وأصبح مهيأ لأداء رسالته في السيطرة على جميع أفعال صاحبه ومحاسبته على كل ما بدر منه . وقد أسهب القرآن الكريم والحديث الشريف في بيان ذلك قال الله تعالى : ﴿ **بل يُريدُ الإنسانُ ليفجرَ أمامهُ . يسألُ أيَّانَ يومَ القيامةِ . فإذا برق البصرُ . وخسفَ القمرُ . وجمع الشمسُ والقمرّ . يقولُ**

---

(١) سورة الكهف آية : ٤٩ .

(٢) سورة غافر آية : ١٩ .

الإنسَـــانُ أيـــنَ المفر . كلاّ لا وزرَ . إلى ربك يومئذ المستقرُ . ينبأ الإنسان يومـــئذ بمـــا قـــدَّمَ وأخّرَ ﴾[1] . فهذه الآيات الكريمات التي تتحدث عن هذه الخصائص الإلهية في إحاطتها ودقتها وعدلها ووقائها .

ونجد أن النبي ﷺ يحتكم إليه رجلان في شيء ويدعي كل منهما الحق فيه دون الآخر . والرسول ﷺ يعلم أن الحق لأحدهما دون صاحبه ، فلا يلجأ إلى الوحي يكشف له خبيئة الأمر ، وإنما يتجه إلى الضمير يوقظه فيهما عن أم ســـلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته ، فخرج إليهم ، فقال : ((**إنما أن بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعـــل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحب أنه صادق ، فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار ، فليحملها أو يذرها**))[2] . ولـــيس ذلك إلا دليلاً على أن إيقاظ وجدان الشخص ، وهو أجدى في إصلاح الحياة من أي وسيلة أخرى ، وأقوى من أي ألوان الحكم والقضاء .

إن آثـــار الخـــوف مـــن الله والرغبة فيما عنده الذي جعله يتحلى به صـــادقوا المؤمنيـــن دون غيرهم . فعندما تستولي على الناس «غريزة حب الـــتملك » تجـــد لدى المؤمنين «سماحة البذل »وعندما تسيطر عليهم «غريزة حـــب الحـــياة »تتجلى عند المؤمنين «عظمة الفداء والتضحية »وعندما يشتد الصراع وتسيطر غريزة «المقاتلة والعدوان »تجد عند المؤمنين أعظم الأمثلة على « التسامح والعفو »[3] .

---

(١) سورة القيامة آية : ٥ – ١٣ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للألباني ، كتاب القضاء والشهادات ، ص٢٨٠ م/١٢٩/٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص٣٥ – ٥٣ .

دور العلماء والدعاة في الشريعة الإسلامية

إن تطبيق الشريعة الإسلامية يستلزم وجود الهيئات التي تقوم بتطبيقها ، سواء كان ذلك من خلال العمل التنفيذي اليومي أو من خلال الهيئات العلمية القائمة على استنباط وتحقيق وتدقيق الأحكام الشرعية التي تلزم للتطبيق على التطورات الجارية في مختلف مناحي الحياة . فسيادة الشريعة الإسلامية أساس من أسس المواطنة في المملكة العربية السعودية . فإن أهمية الدور الذي يؤديه العلماء والدعاة في المجتمع ، باعتبارهم ركيزة أساسية من ركائز تطبيق الشرع المطهر .

إن دور العلماء والدعاة هو أحد أهم اللبنات في المجتمع الإسلامي ، فهم القائمون على تفسير الشرع وتوضيحه وتوجيه الناس ، ونصح الولاة والحكام . وهم يشكلون الشريحة الأساسية من أهل الحل والعقد ، وبدون حضورهم يصبح تطبيق الشرع معرضًا للأهواء والمصالح . وإن تطبيق الشريعة الإسلامية على أرض الواقع لا يكون إلا من خلال العلماء . والمجتهدين القادرين على تبيان الصواب من الخطأ والحق من الباطل . والذين يتصدرون للدعوة والنصح والإرشاد والتوجيه ، فهذه الفئة هي بالفعل من أجل الفئات الإسلامية وأعظمها قدرًا ومنزلة . فدور العلماء والدعاة في المجتمع الإسلامي ليس دورًا هامشيًا ، بل هو در يمكن القول أنه يدخل في صلب التنظيم الأساسي للحكم .

إن دور العلماء والدعاة في المجتمع الإسلامي هو دور متميز لا يمكن مقارنـــته بدور رجال الدين في الديانات الأرضية . وإن مصطلح رجال الدين هـــو مصطلح غريب عن الفقه الإسلامي ، فهناك علماء الدين ، وليس رجال الدين . وقد تفادى الإسلام بذلك المنعطف الخطير الذي أدى إلى ظهور فكرة العلمانية في الفكر الغربي بشكل عام .

فمكانة العلماء والدعاة في المجتمع الإسلامي إنما يستمدونها مما أفاء الله ســـبحانه وتعالى به عليهم من علم ، وبما فقهم فيه في الدين فالمكانة التي يحـــتلها العلمـــاء، والدعاة في الدولة الإسلامية هي مكانة علمية الهدف منها مصـــلحة الأمـــة ، وذلـــك من خلال قيامهم بواجباتهم الشرعية التي يقتضيها حملهم لأمانة العلم . وللعلماء مكانتهم المتميزة في المجتمع وفي الدولة ، وإن من أهم معالم دورهم في المجتمع الإسلامي : (**النصح لولاة الأمور ، توجيه وإرشـــاد الرعـــية وحـــثهم على الالتزام بأحكام الشرع ، تحديد وجه الحكم الشرعي فيما يستجد من قضايا ، رعاية طلبة العلم والمنتسبين من الناحية العلمـــية ، إبـــداء الـــرأي الشرعي في القرارات والأنظمة والمعاملات**) . والعلماء والدعاة هم عصب التطبيق الصحيح للشريعة الإسلامية . وليس من كونهـــم أصـــحاب عصمة أو ذات مصونة لا تمس ، فهم والناس سواسية لا تفـــرقة بيـــنهم في أي مجال من مجالات الحياة إلا بما أقره الشرع . كما أن درجـــة هذه المكانة إنما يحددها العالم والداعية بنفسه من خلال تفقهه وورعه وتقواه ، وحرصه على المصلحة العامة والخاصة للمسلمين[1] .

---

(١) المواطـــنة وتطبـــيقاتها فـــي المملكة العربية السعودية ، د/محمد بن إبراهيم الحسان ، جـــ١ ص١٧٦ – ١٧٩ .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومـــن الآيـــات التي تتحدث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نذكر منها قوله تعالى:﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ [2] . وقال تعالى : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آنـــاء اللـــيل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين** ﴾[3] .

وقد امتدح الله من قام بهذه المسئولية من أهل الكتاب واعتبرهم سبحانه مـــن الصـــالحين . وما ذلك إلا لأنه مهمة الأنبياء ووصية الحكماء بدءًا من وصـــية « لقمـــان » لابنه : ﴿ **يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانهى عن المـــنكر واصـــبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾[4] . والمسئولية بالإنسان المكلف هو الذي جعل الذم يتوجه إلى بني إسرائيل على تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كما يحكى حديث رسول الله ﷺ : إن أول ما دخـــل الـــنقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٤ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١١٣ .

(٤) سورة لقمان آية : ١٧ .

اتــق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا تحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكــون أكليله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم على بعض ثم قال : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾[1] .

وهــذا ما يحفز العلماء ببيان حلال الأمر من حرامه حتى تجنب هذه الأمــة اللعــنة التي صبها الله على بني إسرائيل . وكذا مسئولية الإنسان من حيــث هو عاقل مكلف بالدين ، والدين عند الله الإسلام . وكان من أمر أهل الكــتاب حلقــة تتصــل بمــا يجب أن يكون من قيام الإنسان حامل الرسالة الخاتمة ، وحق عليه أن يحملها يهدى بها من ضل عقله أو زاغ بصره .

ومســئولية العلماء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي جماع ما سبقها من ألفاظ المسئولية في القرآن والسنة . وإن ممارستها تحتاج إلى جهد وصــبر دائبيــن ، لهذا تركز اهتمام العلماء المسلمين على بيان وجوب هذه الفريضة ، وخطورة التهاون في القيام بها[2] .

ومــا كــان اهتمام العلماء وإجماعهم إلا صدى لاهتمام القرآن والسنة بهذه المسئولية ، فقد جعلها الرسول الكريم ﷺ في أحاديث عديدة قرينة أسس الإســلام . عــن حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال : ((**والذي نفسي بيده لتأمرن**

---

(١) سورة المائدة آيتا : ٧٨ – ٧٩ .

(٢) حقــيقة الإنســان بين القرآن وتصور العلوم ، د/ أبو اليزيد العجمي ، ص ١٣٠ – ١٣٣ . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، جلال الدين العمري ، ص٢١ وص٤٥ وص١١٥ .

بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عذابًا منه فتدعون فلا يستجاب لكم))[1] .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق لتحقيق رسالة الإنسان حيث يصلح نفسه ، ويسعى لإصلاح غيره ، ويبلغ نور دعوته . ويتحمل في سبيلها وفي الحفاظ عليها تتحقق أمانته ورعايته لها ، ويتحقق معنى العبادة الذي يستلزم المعرفة والطاعة ، وذلك لا يكون إلا فيما أمر الله ونهى . على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزمان أعدادًا خاصًا ، وتهيئة لهذه المهمة منها :

١- بدء الإيمان بهما عن قناعة ويقين ، لأن هذا الاعتقاد يحمل صاحبه على التضحية في سبيل إنفاذ مهمته . وبخاصة إذا كان يدرك أنها مهمة لها شأنها في إصلاح للنفس أولاً ثم إصلاح للغير . وكذلك إصرار على الوصول إلى الهدف ، فلا تردد ولا سماع للمثبطين ، ولا استكثار لما يبذل في هذه الطريق بل وحتى النفس تبذل رخيصة في سبيل الله . ولتحقيق ذلك يستلزمان معرفة بالشرع والحلال والحرام ، والدعوة وطرقها ومنهاج الدعاة ، وضرورة هذا كله إن الجسم المظلم لا يشع وفاقد الشيء لا يعطيه . إذًا فمعرفة الإسلام والوقوف على خصائص تشريعه أمر ضروري لمعرفة المعروف وتحديد المنكر . ونقف عند حدود الأمر والنهي كما ورد بها الكتاب والسنة . وليس في هذا التكليف عنت أو إرهاق بالنسبة لعوام الناس لأن

---

(١) سنن الترمذي ، جـ٤ ص٤٦٨ رقم ٢١٦٩ .

مهمتهم تتحدد بقدر معرفتهم دون تقصير منهم أو تجاهل للواجب . وهم بهذا يدعون إلى الخير بسلوكهم وبما يستطيعون من فهم وتبليغ .

٢- يستلزمان بصيرة مستنيرة بالحق ، وبصرًا واعيًا به ، لأن الدعوة طريق إلى الحق ، والطرق إلى الحق يكتنفها أعداء الحق . ولابد من معرفة مسارب الطرق وعقباته ، ولهذا ماله من الضرورة التعلم لبعض العلوم والمعارف .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسئولية الأمة المسلمة ، ويعتبر العمل الذي بمثابة نشر الدين والحفاظ عليه ، قرنًا بعد قرن وجيلاً بعد جيل . « فالخلافة » تعني القضاء بالعدل والدين ، « والعبادة » تعني كل جهد مبذول من أجل الله وطاعته فيما أمر ونهى ، « والأمانة » تعني الدين والفروض والتكاليف ، « والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » يعني تجميع كل هذه المهام في أمرين اثنين هما جماع الخلافة والأمانة وحق العبادة ، وهما إصلاح النفس وإصلاح الغير وفق ما أمر الله ونهى[١] .

من الأمور الفعالة لاستقرار الأمة ودوام النعم الالتزام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعروف هو كل ما ينبغي فعله أو قوله طبقًا لنصوص الشريعة الإسلامية . فالتخلق بالأخلاق الفاضلة والعفو عمن ظلم ، وصلة الرحم ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والإحسان إلى الفقراء ، وإثارة دور العلم والسعي لنشره ، والعدل في القضاء بين المتخاصمين ، و الجهاد في سبيل الله و التبرع للمجاهدين ، و تولية الأمناء الأكفاء ،

---

(١) المرجع السابق ، ص١٣٣ - ١٤٠ .

وتحكيم شرع الله . ذلك كله يدخل في المعروف الذي ينبغي فعله . وكل ضد لمـــا تقدم ، وهو من المنكر الذي ينبغي تركه . ومن ثم المنكر هو كل فعل أو قول لا ينبغي فعله أو قوله طبقًا لنصوص الشريعة الإسلامية .

والأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات الدينية بعد الإيمـــان بـــالله تعالى . إذ ذكر الله تعالى في كتابه العزيز مقرونًا بالإيمان . ويقـــول الرسول ﷺ حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ((**من رأى مـــنكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلـــك أضـــعف الإيمان**))[1] . وهناك الكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومـــما هـــو معـــروف أن النفس البشرية تعتاد القبيح فيحسن عندها ، وتألف الشر فيصبح طبيعة لها ، فذلك من شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المـــنكر . فإن المعروف إذا ترك ولم يؤمر به ساعة تركه لا يلبث الناس أن يعتادوا على تركه ويصبح فعله عندهم من المنكر . وكذلك المنكر إذا لم يبادر إلـــى تغـــيره وإزالته لم يمض يسير من الزمن حتى يكثر وينتشر ، ثم يعتاد ويؤلـــف . ثـــم يصـــبح في نظر مرتكبيه غير منكر . من أجل هذا أمر الله ورسوله بالمعروف والنهي عن المنكر ، وواجبه فريضة على المسلمين إبقاء لهـــم علـــى طهـــرهم وصـــلاحهم ، ومحافظة على شرف مكانتهم بين الأمم والشعوب ، وتثبيتًا لنعم الله عليهم .

---

(١) مختصر صحيح مسلم تحقيق الألباني ، جـــ١ ص١٦ رقم ٣٤ .

وإن هـناك بعـض الشروط التي ينبغي توافرها في الآمر بالمعروف والنهـي عـن المـنكر «كالواجب »كما حدده القرآن الكريم والسنة المطهرة وتتلخص في التالي :

١- أن يكون عالمًا بحقيقة ما يأمر به من أنه معروف في الشرع وأنه قد ترك بالفعل . كما يكون عالمًا بحقيقة المنكر الذي ينهى عنه ويريد تغييره ، وأن يكـون قـد ارتكـب حقـيقة ، وأنـه ممـا ينكره الشرع من المعاصي والمحرمات .

٢- أن يكون ورعًا لا يأتي بالذي ينهي عنه ، ولا يترك الذي يؤمر به امتثالا لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتًا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾[١] . وقوله تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾[٢] .

٣- أن يكـون حسن الخلق حليمًا يأمر بالرفق وينهى باللين ، لا يجد في نفسه إذا ناله سوء ، ولا يغضب إذا لحقه أذى ، بل يصبر ويعفو ويصفح لقوله تعالى: ﴿ **وأمر بالمعروف وانهى عن المنكر وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾[٣] .

٤- ألا يـتعرف على المنكر بواسطة التجسس ، إذ لا ينبغي لمعرفة المنكر أن يتجسس على الناس في بيوتهم ،أو يرفع ثوب أحد ليرى ما تحتها ،

---

(١) سورة الصف آيتا : ٢- ٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ٤٤ .

(٣) سورة لقمان آية : ١٧ .

أو يكشف الغطاء ليعرف ما في الوعاء . إذ الشارع أمر بستر عورات الناس، ونهى عن التجسس عنهم والتجسس عليهم قال الله تعالى:﴿**ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا** ﴾[1] .

٥- قبل أن يأمر من أراد أمره ، أن يعرفه المعروف إذ قد يكون تركه له لكونه لم يعرف أنه من المعروف . كما يعرف من أراد نهيه عن المنكر بأن فعله من المنكر ، إذ قد يكون فعله ناتجًا عن كونه لم يعرف أنه من المنكر .

٦- أن يأمر وينهي عن المعروف ، فإن لم يفعل التارك للمعروف ولم يترك المرتكب للمنهي وعظه بذكر ما ورد في الشرع من أدلة الترغيب والترهيب . فإن لم يحصل امتثال ، استعمال عبارات التأنيب والتعنيف ، والإغلاظ في القول ، فإن لم ينفع ذلك رفع أمره إلى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

هذا واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما حدده القرآن الكريم والسنة المطهرة . ولقد قام أمر هذه المملكة منذ نشأتها على يد جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث أسس طيب الله ثراه هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان الهدف من إنشائها هو مراقبة تنفيذ أحكام الشرع وإقامة الشعائر وحث الناس

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٢ .

على الطاعة . نسأل الله أن يديم علينا نعمة الالتزام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا البلد الأمين[1] .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتنغلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف فلا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه**))[2] . تندلق أي تخرج أقتاب بطنه « أمعاؤه » . ما أشد هذا الحديث وما أعظم هذا التخويف ، ترتعد له الفرائض ، وتنفطر من حوله قلوب الذين يخشون ربهم ويخافون عذابه .

ويشير الشيخ محمد البيجاني رحمه الله : (نحن معاشر الوعاظ إن كنا نحب الصلاح وأهله ، ونبغض الفساد وأهله ، مقصرون فيما علينا . فيا علماء الدين ، وورثة النبيين ، وحملة الشريعة ، ومستنبطي الأحكام ، أين أنتم من هذا الحديث العظيم ؟ أتؤمنون به ثم لا تطابق أعمالكم أقوالكم . فلئن كان على غيركم اجتناب الشر وفعل الخير فحسب ، فإن عليكم ذلك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وليس من يعلم كمن لا يعلم . ومن ازداد علمًا ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعدًا . ومثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه ، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه ، أو كالإبرة التي كسو غيرها وهي عارية .

---

(١) في آفاق التربية الوطنية ، د/سليمان عبد الرحمن الحقيل ، ص١٤٥ – ١٤٩ .

(٢) صحيح البخاري ، باب الفتنة ، جـ٩ ص٦٩ – ٧٠ .

والخطـــباء الذيـــن تهـــتز بهم المنابر ، ويقلون في الألوف من الناس بالخطب الرنانة التي تفيض حماسة ، وتسيل حكمة ، وتشرق فصاحة وبلاغة سيســـألهم الله تعـــالى عنها . ومن أولئك خطباء الفتنة الذين يثيرون الحروب ويهـــيجون العواطـــف ، ويعـــزون العداوة بين الناس بذكر محاسن بعض ، ومساوي بعض الآخر ، يدعون إلى البدعة ، ويصدون عن السنة . وليت ذلك دفـــاع عن باطل اعتقدوه حقًا ، أو خطأ وكذب حسبوه صوابًا وصدقًا ، ولكنه الدجـــل والـــنفاق والـــتزوير والكذب والبهتان والتغرير . وهؤلاء هم علماء الســـوء ، الذيـــن جـــاء في ذمهم ، والتحذير منهم الشيء الكثير ، من الآيات والأحاديث والحكم .

فمـــا أشـــد حاجتنا إلى إصلاح أنفسنا أولاً ، ثم إصلاح الخاصة منا . ومـــن الفرد الصالح يتكون المجموع الصالح . ومن عجز هؤلاء عن إصلاح نفســـه فهو عن إصلاح غيره أعجز . ومن بدأ بها فنهاها عن غيها ، وهداها سبيل الرشاد ، فهو الحكيم المفلح ، والصالح المصلح . وليس المراد أن نترك القـــيام بالواجب ، ونسكت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فنجمع بين الإثمين ، ونقع في خطأين ونحن نعلم . وإذا تواكلنا وحسبنا الأمر فرض كفايـــة ، قـــال قائلـــنا : هذا على فلان وليس من شأني ، وأنا قصير الباع ، وذنوبـــي كثـــيرة ، فمن يعظني ، ومن يرشدني ؟ وأنا إلى الوعظ والإرشاد أحوج تعطلت الأحكام ، واستيبت الحدود .

والإنســـان لا يحـــتقر ذاته ، فيسكت عن منكر رآه ، وهو يقدر على الإنكـــار بيده أو لسانه . ومن رزقه الله لسانًا ناطقًا ، وقلمًا سيالاً ، فعليه من الإرشـــاد ، وتوجيه من حواليه ، وكل ميسر لما خلق له . وأعظم الواجبات ،

وأكـــبر المهمات التي ميز الله بها الأمة المحمدية على سائر الأمم ، وفضلهم بهـــا علـــى الأولين والآخرين ، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قولاً وعملاً ، ولله عاقبة الأمور)[1] .

---

(١) إصلاح المجتمع ، محمد بن سالم البيجاني ، ص٤١٧ – ٤٢١ .

الإسلام وحرية الرأي

كرم الله تعالى الإنسان ، فأسجد لأبي البشر آدم ملائكته ، وكرمه قال الله تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[1] . واستخلف الله تعالى الإنسان لعمارة الكون ، وسخر كل أجناس الوجود لخدمته قال الله تعالى : ﴿ **وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[2] . ولم يشأ الحق جلا وعلا أن يباشر هذا الإنسان مهمته في عمارة الكون دون أن يسترشد بقيم السماء ، فنالت كل أمة حظها من هدى السماء ، قال الله تعالى : ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾[3] . فتوافد على هذا المخلوق المتميز بالعقل أنبياء الله ورسوله .

وشاءت إرادة الله أن تصل هذه القيم السماوية التي ينظمها منهج الله إلى الخلائق على أيدي أكرم مخلوقاته : «رسله الذين يبلغون رسالاته » وكلما ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس أرسل الله من رسله من يهدي الناس سواء السبيل . وكانت المهمة المنوطة بالرسل جميعهم هي تبليغ ، وتوصيل منهج الله إلى الناس . قال الله تعالى : ﴿ **فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين** ﴾[4] . ولا تقع مساءلة إلا لمن وصلته قيم السماء ،

---

(١) سورة الإسراء آية : ٧٠ .

(٢) سورة الجاثية آية : ١٣ .

(٣) سورة فاطر آية : ٢٤ .

(٤) سورة النحل آية : ٣٥ .

قـــال الله تعـــالى : ﴿ **ومـــا كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾[1] . وبين الحين والحيـــن يبعث الله برسول يهدي قومه إلى سواء السبيل ، يعدل لهم المسار ، ويقـــوم الاعوجـــاج ، وكل رسول يأتي برسالة تلائم الأمة التي أرسل إليها . فتوافد على هذا المخلوق المتميز بالعقل أنبياء الله ورسله ، حتى كانت الرسالة الخاتمة ، ورضي لنا الله الإسلام دينًا .

أقـــر الإســـلام حق الفرد في أن يكون له رأي يعلنه في كل شيء في الدين الذي هو من عند الله . فلك أيها الإنسان مطلق الحرية في أن ترى رأيًا يجعلك في زمرة المؤمنين أو عصابة الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿ **فمن شاء فليؤمـــن ومن شاء فليكفر** ﴾[2] . وكيف لا يكون لك هذا الحق وأنت متميز بالعقل أجلّ نعمة منحت لك . فعندما وصل العقل البشري إلى ارتقائه من أمة تحـــتفل بالبيان والأسلوب ، والنقد والتذوق للأشعار والأمثال والحكم ، ويقف قضاة الفصاحة والبلاغة حكماء في حلقات البيان . جاء خاتم الأنبياء والرسل محمـــد ﷺ من لدن ربه جل وعلا بقرآن كريم يتحدى الأمة في نقطة تفوقها . وعلـــى بســـاط التحدي خوطبت عقول أرباب الفصاحة أن يأتوا بمثل القرآن أو عشـــر ســـور أو سورة واحدة ، فعجزوا . قال الله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله**

---

(١) سورة الإسراء آية : ١٥ .

(٢) سورة الكهف آية : ٢٩ .

إن كنتم صادقين ﴾[1] . وتكررت نداءات رسول الله القرآنية تخاطب العقول ، قال الله تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[2] .

جـــاء الإسلام دينًا يخاطب العقول ، قال الله تعالى : ﴿ **إن نشـــأ ننزل علـــيهم مـــن السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾[3] . أي لو شاء الله لأنزل على الناس ما يضطرهم إلى الإيمان قهرًا ولكنه سبحانه وتعالى لا يفعل ذلك فهو لا يريد من أحد إلا الإيمان الاختياري[4] .

ولـــم يشرع القتال في الإسلام لغرض الدين وإنما فرض لحماية حرية الإنســـان في اختيار الذي يريد من خلا العقل . فالحرب تكون لتمكين العقول البشـــرية بعـــد وصول الهدى إليها من التفكير وهي في مأمن من أي طغيان يمكـــن أن يحجـــب عـــن العقيدة . وتعدد الأمثلة التي توضح أن إقناع الناس ومخاطبتهم بدعوة الإنسان الذي خصه الله بالتكريم . فالفكر الذي يصدر عن العقـــل مهمـــته الاختيار بين البدائل ، وعندما يتعطل هذا الفكر بجنون فليس موضعًا للتكليف . فهذا الفكر الذي يميز الإنسان عن غيره[5] . فالقرآن يقرر أن تكـــون المخاطبة بالدعوة على أساس عقلي بالحجة والمنطق دون إكراه . قال الله تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾[6] .

---

(١) سورة هود آية : ١٣ .

(٢) سورة الذاريات آية :٢١ .

(٣) سورة الشعراء آية : ٤ .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن الكثير ، جـ٣ ص٣٣١ .

(٥) هذا هو الإسلام ، محمد متولي شعراوي ، ص٩٧ .

(٦) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

كـــان رسول الله ﷺ يوضح للناس ما أنزله الله إليهم ، وللعقل بعد هذا التوضـــيح والبـــيان وقفة اتخاذ القرار ، وقفة يقرها القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ **وأنزلـــنا إليك لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾[1] . هذه الآية تحمـــل تقديـــرًا للعقـــل . كـــان الحق جل وعلا يمكن أن يقول : ﴿ **ولعلهم يؤمـــنون** ﴾ ، ولكن التفكير في الإسلام سابق على الإيمان . فلابد للعقل من وقفة ، فالنبي ﷺ يفصل للناس ما أجمل الله ، ويوضح لهم ما أنزله الله لعلهم ينظرون لأنفسهم فيهتدون[2] .

لقـــد استنكر القرآن الكريم موقف المعطلين عقولهم المقلدين لغيرهم ، ومثلهم بالبهائم تنقاد لصيحات الرعاة بلا وعي . نعى القرآن من يتابعون على غـــير هدى وتوعدهم ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنـــس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[3] . فأوامر الإسلام لـــم تكن متناقضة مع منطق بحال من الأحوال بحيث إذا تدبرها اللبيب وجد الصـــواب فيها . وقد أدرك هؤلاء الذين خاطبهم رسول الله ﷺ بدعوته أن ما جـــاء بـــه مـــن الأوامر والنواهي متطابق مع ما يمكن أن يصل إليه العاقل بتفكـــيره . حتى أن أعرابيًا سئل : لماذا آمنت بمحمد فقال : ما رأيت محمدًا

---

(١) سورة النحل آية : ٤٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، جـــ٢ ص٥٧١ .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .

يقول في أمر أفعل والعقل يقول لا تفعل ، وما رأيت محمدًا يقول في أمر لا تفعل والعقل يقول افعل[1] .

كان النبي ﷺ يحتكم إلى منطق العقل دائمًا ، وهو يدرك أن العقول التي يخاطبها لو تجردت عن الهوى فستسلم بمنطق دعوته . وقد صان الإسلام العقول البشرية ، وحماها أن تفكر بطريقة خاطئة استنادًا على فهم خاطئ لحقائق معينة . فرسول الله ﷺ أمين على عقول الناس وتفكيرهم ، يصون العقل من الشطط في التفكير أو الجنوح إلى الأوهام والخرافات . فقد علم رسولنا أصحابه أنه لا يجوز لإنسان بدعوى حرية الرأي أن يهدم كيان المجتمع ، أو يفرق بين الجماعات ، أو ينال من سمعة الأسر ويخوض في سير الناس وأعراضهم . في رحاب الإسلام قل ما تشاء ، ولكن لا تقل سوءًا فالله لا يحب الجهر بالسوء من القول . سنسمع نداء الحق قال الله تعالى : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾[2] . فلا يجوز تحت ستار الحرية في القول أو التعبير أن نطلق للألسنة العنان ، فتطلق الشائعات ، وتكثر من القيل والقال . بل يجب أن يرد الأمر لأولي الأمر وأصحاب الفهم ، فهم الأقدر على بيان الحقيقة واستنباط الأمور[3] .

وهناك حدود وضوابط لحرية الرأي في الإسلام ، فالكلمة أمانة ، وعلى عاتق الناطق بها مسئولية كبرى تعبر عنها الآية القرآنية

---

(١) خاتم النبيين ، محمد أبو زهره ، جـ٢ ص٥٥٥ .

(٢) سورة النساء آية : ٨٣ .

(٣) حرية الرأي في الإسلام ، د/محمود يوسف مصطفى ، ص٧ – ٢١ .

قال الله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[1] . قال رسول الله ﷺ وهـو يجيـب عن تساؤل معاذ بن جبل : أو مؤاخذون بما نقول يا رسول الله ؟ فرد رسول الله : ((**ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلاّ حصائد ألسنتهم**))[2] . والمضي في ممارسة الحرية بغير حدود ولا ضـوابط من شأنه أن يدفع بالبعض إلى الاعتداء على حقوق الآخرين ، وإلى تهديد أمن الوطن والمواطنين[3] .

فأمانة الكلمة ومسئولية ناطقها أن الكلمة ملك لصاحبها ما دامت حبيسة نفسه فهو يملكها ، فإن نطق بها ملكته وصارت حجة عليه . وإن هناك حدود لحرية الرأي في الإسلام من خلال النقاط التالية :

١- ارتباط حرية الرأي بالمقدرة الثقافية والعلمية :

حـرية الرأي تنبع من قدرة الإنسان الثقافية والعلمية ، وإشرافه على البيـئة التي يعيش فيها ، فبقدر ثقافتي أتكلم . وهناك بعض القضايا والأمور يتطلب إبداء الرأي حيالها أن يكون الإنسان ملمّا بمعرفة أو ثقافة خاصة . ولا يجـوز بدعوى حرية الرأي لمن لا يلم بهذه المعرفة أن يدلي برأيه حيال هذه القضايا . وحيث أن لكل علم أصدقاءه الذين تعلموه وأتقنوه وتخصصوا فيه ، وحيـنما يحتاج إلى رأي فواجب عليه أن يسألهم ، قال الله تعالى : ﴿ **فاسألوا**

---

(١) سورة ق آية : ١٨ .

(٢) سنن الترمذي ، جـ٥ ص١١٣ .

(٣) حوار لا مواجهة ، أحمد كمال أبو المجد ، ص٩٤ .

أهـل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[1] . ذلك أن أهل التخصص يجيدون الفتوى في موضوعهم ، ولذلك درج الناس منذ القديم على توجيه السؤال إلى من يعرف صوابه أو من يظن فيه ذلك[2] .

٢- حرية الرأي في إطار الالتزام بأسس إبداء الرأي في الإسلام :

كان النبي ﷺ يحرص على معرفة آراء الصحابة واتجاهاتهم بخصوص القضايا التي تهمهم ، فكان يعلمهم ثم يطلب منهم إبداء الرأي تجاهها . وضرب ﷺ المثل الأعلى في الإصغاء والاستماع إلى الآراء وإلى كل متحدث . حتى أن بعض المنافقين اتخذوا من هذه الصفة الحميدة مجالاً من شخصية النبي الكريم ﷺ ، وهم الذين تحدث القرآن عنهم قال الله تعالى : ﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم** ﴾[3] . أي يعطي أذنه لكل قائل يلقي فيها ما يقول له . فهم يجدون من النبي أدبًا رفيعًا في الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة ، يهش لهم ويشرح لهم صدره . هكذا فطن النبي ﷺ إلى أهمية أن يستمع للناس لإعطائهم فرصة التعبير عن الآراء . ولكنه حينما فعل ذلك جعل لجلسة إبداء الرأي أصولاً وشروطًا وأدبًا يجب مراعاتها من جانب المتكلم والسامع والحضور ، وتتمثل هذه الآداب فيما يلي :

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٧ .

(٢) علم الخطابة ، أحمد علوش ، جـ١ ص٤٩ .

(٣) سورة التوبة آية : ٦١ .

أ- أن يشجع الذي يبغي الحصول على حقيقة آراء الناس ، هؤلاء الناس على الاقتراب منه والأنس منه . لو كان الأمر غير ذلك ما تحدث الناس إليه وأفضوا عن مكنون نفوسهم . ولذلك كان النبي ﷺ يقابل الناس والابتسامة تعلو وجهه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[1] . أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك[2] .

ب- أن يعطي المستمع للمتحدث فرصة التعبير عن رأيه ، معطيًا الوقت الكافي ليبوح ما في داخله . وقد كان لرسول الله هديه في هذا المجال ، فما وضع فمه في أذنه إلا استمر صاغيًا له حتى يتفرغ من حديثه ويذهب .

جـ- ألا يتعرض المتكلم بالرأي للمقاطعة من جانب المستمع ، فمقاطعة المتحدث وهو يدلي برأيه تفسد عليه حديثه . وقد علم رسول الله ﷺ أصحابه هذا الخلق الرفيع ، فكان لا يقطع على أحد حديثه .

د- تتضمن جلسة إبداء الرأي : متحدث يعلن رأيه ، ومستمعًا له ، وقد يكون هناك حاضرون يتابعون ما يقال . ويقتضي الأمر عندئذ إلا يتدخل الحاضرون لمقاطعة صاحب الرأي حتى يتم حديثه ويفرغ منه . وقد أرشد النبي ﷺ لذلك فكان إذا تكلم هو أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير « دلالة على السكون » .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن الكثير ، جـ١ ص٣٤٠ .

هـ- أن يعي المستمع ما يقال من آراء ويفهمها ، وقد امتدح القرآن الكريم أذنًا تعي وتفهم ، قال الله تعالى : ﴿ **وتعيها أذن واعية** ﴾[1] . أي أذن تسمع وتعي وتنتفع[2] .

و- أن يعي المستمع بجانب كلام صاحب الرأي تعبيراته وحركاته وإشاراته أثناء كلامه فهي تخبر بالكثير . وكان النبي ﷺ ينقل إلى أصحابه بنظرة ما تعجز الكلمات عن أدائه من المعاني . ولذلك كان النبي يوزع مرآه على جلسائه لينقل إليهم إحساسًا بأنهم عنده سواء . ويؤكد هذا التأثير قول الحق وعلا : ﴿ **ولا تعد عيناك عنهم** ﴾[3] . فكان ﷺ يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه . ويصغي النبي ﷺ لكلمات من يتحدث ، ويتأمل كذلك انفعالاته وتعبيرات وجهه .

ز- على صاحب الرأي أن يضع نصب عينيه مصلحة المجتمع بأفراده وجماعاته وطوائفه ، فحريته مرتبطة بحريات الآخرين . والإسلام لا يحترم إلا الكلمة الأمينة الملزمة التي تسعى لما فيه مصلحة المجتمع وتهدف إلى جمع كلمتهم . وجواز مرور أي كلمة لساحة الرأي العام هو التزامها بهذا المبدأ ، والكلمة أو الرأي لا يجب أن يكون تعويضًا لبناء المجتمع .

ح- ربى الإسلام أتباعه على الشجاعة والصراحة ، وكره منطق الدس والخداع والنفاق . والأصل في الرأي أن يعلن على الناس لينتفع الناس

---

(١) سورة الحاقة آية : ١٢ .

(٢) السيرة الحلبية ، علي برهان الدين ، جـ٣ ص٢٣٧ - ٢٤٠ .

(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .

به إن كان صوابًا ، وينتقد إذا كان خاطئًا . وهناك الكثير من الآراء طرحت أمـــام النبـــي ﷺ وعمـــت فائدتها وانتفع المسلمون بها . مثلما طرح « سلمان الفارســـي » فـــي غزوة الأحزاب رأيه علانية أمام الجميع ، وقد رأى الرجل الخطـــر محدقًـــا بالمديـــنة ، وتقدم برأيه : «كنا يا رسول الله في بلاد فارس نخـــندق حولهـــا » . وكـــان سلمان قد خبر في بلاد فارس الكثير من وسائل الحـــرب وخداع القتال ، ومن ثم تقدم للرسول الله ﷺ بمقترحه الذي لم تعهده العـــرب من قبل في حروبها . وقد حدث في مواقف عديدة في تاريخ الإسلام أن طرحت آراء غير سليمة ، ثم وجد من يصوبها[1] .

والذي يتوارى برأيه أو ينافق فيه ، فهو من ذوي الوجوه المتعددة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**إن من شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**))[2] . ومن يعلن رأيه على الـــناس من خلال مسلك غير شرعي ، فقد حجب نفع رأيه عن الناس إن كان صوابًا ، والحق بهم ضرورة إن كان هذا الرأي خاطئًا .

ط- لا يحـــق للمرء بدعوى حرية الرأي أن ينال من سمعة الآخرين وشـــرفهم وكرامـــتهم . فقد ضرب لنا رسول الله ﷺ المثل الأعلى في ذلك : فكان لا يتعرض لأحد بإذاء قولي ، وكان يراقب جوانب الآخرين ويحاول أن يـــزيل هذا النقص ويوجه لتجنبه دون أن يدع أحد يشعر أن الرسول ﷺ يشير إليه ويقصده .

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ ، خالد محمد خالد ، ص٤٥ .

(٢) صحيح مسلم ، جـــ١٦ ص١٥٦ .

ي- الرأي الذي يعرضه الفرد قد يكون صائبًا وقد يكون غير ذلك .

وعلى صاحب الرأي أن يعلم أن رأيه ليس هو الرأي الوحيد ، فقد تكون هناك آراء أخرى . وقد علمنا رسول الله ﷺ ألا نتعصب لرأي نقدمه ، وألا نضيق بالرأي الآخر . ففي عديد من المواقف استمع الرسول لآراء أخرى ، ونزل عليها وعمل بها . ففي غزوة بدر عمل برأي « الحباب بن المنذر » ، وفي غزوة أحد أطاع النبي رأي القائلين بالخروج .

وموقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما عدل عن قراره واعترف بخطأه يخطب عمر الناس يومًا فيقول : (لا تزيدوا مهور الناس على أربعين أوقية ، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال) . فنهضت من صفوف النساء سيدة تقول : ما ذاك لك فيسألها : ولم ؟ فتجيبه لأن الله تعالى يقول : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا** ﴾[1] . فتهلل وجه عمر وابتسم وقال عبارته المأثورة : (أصابت امرأة وأخطأ عمر)[2] .

ك- إن حرية الرأي في كتابة التاريخ للاستفادة من دروسه وعبره فلا تثريب في ذلك . ولكن القائم بهذا العمل عليه أن يتخلق بخلق رسول الله ﷺ في مجال احترام حرمة الأموات . فلا ينبغي لإنسان أن يسب من انتقل إلى جوار ربه . فرسول الله ﷺ ما كان يذكر إخوانه الأنبياء السابقين إلا ويثني عليهم خيرًا ، ويشيد بفضلهم وجهادهم . قال رسول الله ﷺ : ((**الأنبياء إخوة**

---

(١) سورة النساء آية : ٢٠ .

(٢) رجال حول الرسول ﷺ ، خالد محمد خالد ، ص١١٣ .

أمهـــاتهم شتى ودينهم واحد))[1] . هكذا علمنا رسول الله ﷺ أن نحترم من آوى إلـــى جـــوار ربه ، وأن نذكر محاسنه ، قال ﷺ : **((لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا))**[2] .

ل- حرية الرأي يجب أن يتجافى بها صاحبها الذي ينعم بها عن الملق والـــنفاق . فصـــاحب الـــرأي يجب أن يبتغي به وجه الله ، فلا يسخر الرأي لقضـــاء مـــآرب أو بلـــوغ هـــدف بل يجب أن يكون صادقًا نزيهًا مبرأ عن الأغـــراض ويجـــب أن تكـــون كلمته إلى ما فيه صالح المسلمين ورضا الله سبحانه وتعالى .

م- حـــرية الرأي في الإسلام هي الحرية التي يراعي صاحبها حسن الكلمـــة وحكمـــة الطريقة وأدب الأسلوب . وكما يقول الله تعالى : ﴿ **وقولوا للناس حسنًا** ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحســـنة** ﴾[4] . والإسلام يعطينا حق الكلمة ، ولكن كما قال الله جل شأنه : ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم** ﴾[5] . قل ما تشاء ، ولكن لا تقـــل ســـوءًا ، انـــتقد الآخريـــن ، ولكن في حدود الصدق والنزاهة وعدم الـــتجريح . فـــإبداء الـــرأي على الطريقة الإسلامية يجب أن يكون بكلمات

---

(١) صحيح مسلم ، في الفضائل رقم ٢٣٦٥ .

(٢) صحيح البخاري ، جـــ٢ ص٤٣٤ .

(٣) سورة البقرة آية : ٨٣ .

(٤) سورة النحل آية : ١٢٥ .

(٥) سورة النساء آية : ١٤٨ .

مهذبة ، وأن يراعي كل صاحب رأي طريقة عرض رأيه ، وأسلوب حواره حتى ينتفع برأيه في تعقل وروية .

ن- مـــن الحدود التي يجب أن يراعيها كل صاحب رأي ، أن يكون قـــدوة ســـلوكية فـــي المسألة التي يتحدث فيها . ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حســـنة ، فكـــان إذا أمـــر بشيء كان أول الملتزمين به ، وإذا نهى كان أول المنتهيـــن عـــنه . وما كان رسولنا يدعو أمته بلسان القول فقط ، بل بلسان الفعـــل . وقـــد حث القرآن الكريم على تطابق قول القائل مع فعله ، قال الله تعـــالى : ﴿ **يـــا أيهـــا الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون** ﴾[1] . فالكلمة لا تســـتغرق مـــن قائلهـــا وقتًا ، ولكنها متى قيلت انتظر المستمع أن يراها وقد تجسدت فعلاً وسلوكًا[2] .

لقـــد كفـــل الإسلام حرية الرأي والتعبير بمفهومها الإسلامي ، وتعني تمـــتع الإنسان بكامل حريته في الجهر بالحق وإسداء النصيحة في كل أمور الدين والدنيا . وذلك فيما يحقق نفع المسلمين ويصون مصالحهم ويحفظ النظام العام . ومع اهتمام الإسلام بحرية الرأي والتعبير إلا أنه قد حرص على عدم تحريـــرها مـــن القيود والضوابط الكفيلة بحسن استخدامها . فهناك حدود لا ينبغـــي الاجـــتراء علـــيها وإلا كانت النتيجة هي الخوض فيما يغضب الله ، أو يخلق الضرر بالفرد والمجتمع ، ويخل بالنظام العام وحسن الآداب . وأهم تلك الضوابط تتلخص في :

---

(١) سورة الصف آية : ٢ .

(٢) حرية الرأي في الإسلام ، د/محمد يوسف مصطفى ، ص١٢٨ – ١٥٥ .

١- يجـــب أن تمارس حرية الرأي والتعبير في الإسلام بأسلوب قائم على الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، دون اللجوء إلى العنف أو الإكـــراه الـــذي يسبقه نقاش تقارع فيه الحجة البرهان . ومن بين الآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **فقولا له قولاً لينًا لعله يذكر أو يخشى** ﴾[١] .

٢- مـــن أجل حماية الفرد في المجتمع الإسلامي يجب الإفصاح عن الـــرأي والتعبير عنه فيما يضر الناس أو يؤدي للإعتداء على حرماتهم . إذا كـــان القصـــد من ورائه الخوض في الأعراض أو انتهاك الحرمات أو إفشاء الأســـرار ، فذلـــك منهي عنه في العديد من آيات القرآن الكريم . ومن دلائل ذلـــك قوله عز وجل : ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[٢] .

٣- علـــى صعيد حماية المجتمع الإسلامي وحفظ الدين من الاجتراء علـــيه . إذ تجب العقوبة حدًا وتعزيرًا على المفسد المسيء لاستخدام الحرية التـــي اعـــترف له بهـــا من أجل جلب المنفعة ودفع الضرر على المستويين الفردي والجماعي[٣] .

---

(١) سورة طه آية : ٤٤ .

(٢) سورة النور آية : ١٩ .

(٣) حقوق الإنسان في الإسلام ، د/سليمان عبد الرحمن الحقيل ، ص٥٤ – ٥٥ .

الحقوق في الإسلام

حقوق الإنسان لها مكانة سامية في الإسلام ، وهو أن الإنسان أي كان أصله وجنسه ولونه ونسبه ومنزلته الاجتماعية وماله ، مخلوق مكرم ، كرمه الله عز وجل وميزة عن سائر المخلوقات . ونظرة الإسلام إلى الإنسان يتفرع عنها كل ما على الإنسان من واجبات وماله من حقوق . وإنها تقوم منذ خلق الله تعالى الإنسان على فكرة استخلاف الله له على هذه الأرض قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[1] .

لقد استخلف الله الإنسان على هذه الأرض ليكون خليفة فيها مسئولاً ، وليأكل من طيباتها ، وليتمتع بزينتها في حدود شريعة الله . ومن هنا كانت كرامة الإنسان في إستخلاف الله له وحده على الأرض ، وفي منحه السمع والبصر والعقل كأدوات للعلم ، وفي مزية الإدارة كأداة للعمل وفقًا لشريعة الله في مصالح البشر . وإن أهم خصائص خلافة الإنسان في الأرض في شريعة الإسلام تتلخص في ما يلي :

١- هي خلافة عامة لكل إنسان .

٢- هي ليست خلافة لطبقة من الطبقات ، ولا فئة معينة من الحكام .

٣- هي خلافة « مقيدة » بمبادئ شريعة الله ، وبأحكامه التفصيلية .

---

(١) سورة طه آية : ١١٦ .

لقد اقتضت هذه الخلافة السامية للإنسان أن يتميز فيها بخصائص عدة منها : تعلق بخلقه ، فقد خلقه الله تعالى : ﴿**في أحسن تقويم**﴾[1] . وخصائص تتعلق بمسئوليته عن سلوكه وعن تصرفاته على أساس إقامة العدل والمساواة لضمان السلام وابتغاء الخير والمصلحة للجميع . وتزداد عظمة هذه النظرة إذا رجعنا إلى النظم التي كانت سائدة في مختلف جهات الدنيا قبل الإسلام . فقد كانت تنظر هذه النظم إلى الإنسان على أنه أنواع ودرجات ومراتب وطبقات ، وعندما جاء الإسلام جعل الإنسان خليفة في الأرض وأكرمه .

لقد بعث الله تعالى رسوله محمد ﷺ قال الله تعالى : ﴿ **كافة للناس بشيرًا ونذيرًا** ﴾[2] . والرسالة الإسلامية موجهة لكافة الناس لا فرق بين عربي وأعجمي ولا بين أبيض وأسود ، فالمسلمون أينما كانوا في بقاع العالم ومهما اختلفت أجناسهم وأعراقهم وتباعدت بلادهم أخوة في الدين . والإسلام يعتبر الناس كلهم أمة واحدة ويساوي بينهم جميعًا لأن رسالته موجهة إليهم قال الله تعالى : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾[3] .

وهكذا جاء الإسلام ليربط الماضي بالحاضر فوق جميع الرسالات السماوية السابقة . إذا انصهرت كلها في الإسلام ولجعل من الناس كلهم أمة واحدة ومن الأرض كلها إقليمًا واحدًا .

---

(١) سورة التين آية : ٤ .

(٢) سورة سبأ آية : ٢٨ .

(٣) سورة الأنبياء آية : ٩٣ .

هذه هي المساواة الحقة المدعومة بالأخوة والتكافل والإيثار التي سعى الفكـــر الغربـــي لتحقـــيقها دون طائل . وتلك هي العالمية التي لهث لتحقيقها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في القرن العشرين . ولم يحقق منها إلا القليل بينما حققها الإسلام منذ القرن السابع الميلادي وبصورة شاملة كاملة[1] .

اشـــتملت الشريعة الإسلامية على كل ما فيه سعادة البشرية في الدنيا والآخـــرة . واســـتوفت بتعاليمها السمحة ، وقوانينها الثابتة المحكمة ، كل ما يكفل للفرد والجماعة حياة طيبة في الدنيا ومثوبة في الآخرة ، قال الله تعالى : **﴿ من عمل صالحًا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾**[2] .

وكان للشريعة الإسلامية فضلها الذي لا ينكر حتى من أعداء الإسلام فـــي ترسيخ دعائم الحق ونشر قوانين العدالة التي أنقذت الإنسانية من مخالب الجهالـــة والضـــلالة . وأخذت بيد الضعيف ورفعت من قيمة البسطاء ، وكل فئات النوع الإنساني . وكان للشريعة الإسلامية فضلها في نظرتها الحانية إلى الفقـــراء وأبـــناء السبيل واليتامى وأصحاب المهن البسيطة ، فجعلت لهم في صفوف الحياة الكريمة مكانًا . كل ذلك قبل أن تعرف المواثيق الدولية حقوق الإنسان بأربعة عشر قرنًا . وكان للشريعة فضلها في إعطاء المرأة حقها بعد أن كانت لا حق لها ، بل كانت محرومة من كل الحقوق حتى من حق الحياة نفســـها إذ كانت توأد وهي طفلة صغيرة . لقد كفلت الشريعة الإسلامية لبني

---

(١) حقوق الإنسان في الإسلام ، د/سليمان بن عبد الرحمن الحقيل ، ص٢٩ – ٣٣ .

(٢) سورة النحل آية : ٩٧ .

الإنسان الكرامة والعزة يتمتع بها المؤمنون السائرون على هديها قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[1] .

وأقامت الشريعة الإسلامية بناء دعوتها من حقوق الإنسان بناء على أساس الإيمان بالله . وعظمة الشريعة الإسلامية وحكمتها على قوة تنفيذ هذه الحقوق من الحاكم والمحكوم . ويظهر جانب الإلتزام بتنفيذ كل الحقوق على هدى من الكتاب والسنة وطاعة الله ولرسوله . قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾[2] .

وهنا نرى الفارق الكبير بين دعوة الشريعة إلى حقوق الإنسان ، وبين الدعوات الأخرى التي تنادي بها المواثيق الدولية . فإن الدعوة إلى حقوق الإنسان في رحاب الشريعة نابعة من الإيمان صادرة من العقيدة الإسلامية التي يلتزم أمامها الإنسان المسلم . ويرى في تنفيذها الإنسان في رحاب الإيمان مأمونة الجوانب تصدر عن عقيدة وراءها حساب « ثواب أو عقاب » . وأما الجانب الثاني الذي يلزم فيه بتطبيق وتحقيق حقوق الإنسان ، انطلاقًا من الإيمان فهو جانب « المراقبة » ، وهذا ليس موجودًا إلا في الإسلام . ويظهر ذلك في سرعة إعطاء كل ذي حق حقه ، وعدم الجور على الحقوق الآخرين . فالإنسان إذا حدثته نفسه أن يسطو على مال الغير أو حياته أو عرضه أو أن يسلبه حقًا من الحقوق ، فإن عنصر « المراقبة » يوقظ في أعماقه الضمير الديني . هذا العنصر الذي يجعله يدرك خطورة ما يقع فيه ،

---

(١) سورة المنافقون آية : ٨ .

(٢) سورة النساء آية : ٥٩ .

فإنـــه يؤمـــن بأن الله مطلع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون .

فالإيمـــان هـــو الأســـاس الأصـــيل ومنه يكون الالتزام بأداء الحقوق ومراقبة الله ، فإن الشريعة الإسلامي تطبيقات لحقوق الإنسان وواجبة الأداء : « كالـــزكاة ، وصـــلة الرحم ، وإكرام الجار ، وإعطاء كل ذي حق حقه في المعاملات » التي استوفاها الفقه الإسلامي بأبوابه وفصوله .

ثـــم كـــان في الجانب الأخلاقي استثمار لهذه الحقوق حيث لا يكتفي الإنســـان بالقـــيام بالواجـــب فحسب . بل إن هناك جوانب نادى بها الإسلام ارتفاعًـــا بحقـــوق الإنســـان ، وشمولاً لكل مناحي الحياة وجوانبها المختلفة وعلاقاتها المتعددة . وتحقيقًا للأمان لهذه الحقوق نجد في الحدود الإسلامية ما يحفظ للإنسان حقه في الحياة وفي المال وفي العرض وفي الحرية والمساواة والعمل والشورى والكرامة وما إلى ذلك من الحقوق التي كفلها الإسلام .

ففي الاعتداء على حق « الحياة »تكون العقوبة من جنس الجريمة قال الله تعالى:﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ....**﴾الآية[1]. وبالنســـبة لحـــق الإنسان في الأمن نجد الشريعة قد جعلت للاعتداء على هذا الحق حدًا هو حد الحرابة ، قال الله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورســـوله ويســـعون في الأرض فسادًا أن يقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تقطع أيديهم**

---

(١) سورة البقرة آية : ١٧٨ .

وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾[1] .

وبالنسبة لحق المال نجد الشريعة قد جعلت عقوبة الاعتداء على هذا الحق في قوله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾**[2] . وعن حق النسل أو العرض نرى عقوبة ذلك في قوله تعالى : ﴿ **والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهم مائة جلدة ﴾**الآية[3] . وبالنسبة للمحصن الرجم ... وهكذا إلى آخر الحدود والعقوبات التي جاءت في الشريعة الإسلامية ، ولا نجد لها مثيلاً في أي قانون من القوانين الوضعية .

وبذا يتضح أن الشريعة الإسلامية قد استوفت كل الحقوق بعقيدتها الصحيحة التي هي أساس العبادة والعمل والأحكام والأخلاق . وبتشريعاتها ومبادئها المستقيمة التي تصون حقوق الإنسان وتحافظ عليها . إنها الشريعة التامة الكاملة التي أكملها الله وأتم بها النعمة ، قال الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾**[4] .

وبهذا التشريع الرباني المحكم صان الإسلام حقوق الإنسان ونادى بتطبيقها ، وشرع الحدود عقوبة للمعتدين عليها . وإن حماية الإسلام لحقوق

---

(١) سورة المائدة آية : ٣٣ .

(٢) سورة المائدة آية : ٣٨ .

(٣) سورة التوبة آية : ٢ .

(٤) سورة المائدة آية : ٣ .

الإنسان تستوجب على المسلمين أن يصونوا هذه الحقوق . ففي صيانة المسلم لحق غيره صيانة لحقه ، وفي إهماله لحق غيره إهمال لحقه[1] .

(١) قضايا ومفاهيم في ضوء الإسلام ، د/أحمد عمر هاشم ، ص١٩٧ – ٢٠١ .

حقوق ولاة الأمر في الإسلام

إن السمع والطاعة لولاة الأمر المسلمين أصل من أصول العقيدة ، ومن سنة الرسول ﷺ والواجبات الشرعية التي ثبتت في القرآن والسنة وإجماع السلف الصالح ، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة جدًا وأن هذا أصل عظيم في الدين . وما ذلك إلا لبالغ أهميته وعظيم شأنه . إذ بالسمع والطاعة لهم تنظيم مصالح الدين والدنيا معًا ، وبالافتيات عليهم قولاً أو فعلاً فساد الدين والدنيا . وقد علُم بالضرورة من دين الإسلام أنه لا دين إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا بإمامة ، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة .

لقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يولون هذا الأمر اهتمامًا خاصًا ، لا سيما عند ظهور بوادر الفتنة . نظرًا لما يترتب على الجهل به أو إغفاله من الفساد العريض في العباد والبلاد . واهتمام السلف بهذا الأمر ما قام به الإمام أحمد بن حنبل حيث كان مثالاً للسنة في معاملة الولاة[1] . يقول يرحمه الله : (اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلى الإمام أحمد وقالوا له : إن الأمر قد تفاقم وفشا يعثون (إظهار القول بخلق القرآن) ، ولا نرضى بإمارته ولا سلطانه . فناظرهم في ذلك وقال : « عليكم الإنكار في قلوبكم ، ولا تخلعوا يدًا من طاعة ، لا تشقوا عصا المسلمين ، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم ، وانظروا في عاقبة أمركم ، واصبروا حتى يستريح

---

(١) حقوق ولاة الأمر ، د/عبد العزيز بن إبراهيم العسكر ، ص٣ – ٥ .

بـــر ويســـتراح مـــن فاجـــر » . وقـــال : ليس هذا يعني : « نزع أيديهم من طاعته »[1] .

ومـــا جـــاء في كتاب السنة للإمام البربهاري حيث قال : (إذا رأيت الـــرجل يدعـــو على السلطان ، فاعلم أنه صاحب هوى . وإذا سمعت الرجل يدعـــو للســـلطان بالصلاح فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله تعالى . ويقول الفضيل بن عياض : (لو كان لي دعوة ما جعلتها إلا في السلطان)[2] .

وممـــا يجدر العلم به أن قاعدة السلف في هذا الباب زيادة الاعتناء به كلمـــا ازدادت حاجـــة الأمة إليه . سدًا لباب الفتن الذي هو أصل فساد الدنيا والدين . ولإيضاح التذكير بالأمور التالية :

أولاً : وجـــوب عقد البيعة للإمام القائم المستقر المسلم والترهيب من نقضـــها . والدلـــيل على ذلك أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما جاء إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال عـــبد الله بـــن مطـــيع : اطـــرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة ، فقال : لم آتك لأجلس ، أتيتك لأحدثك حديثًا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**من خلع يدًا مـــن طاعـــة ، لقـــي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات ليس في عنقه بيعة ، مات ميتة جاهلية**))[3] .

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح ، جـــ١ ص١٩٥ – ١٩٦ .

(٢) طبقات الحنابلة ، جـــ٢ ص٣٦ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، جـــ١٢ ٢٤٠ .

ثانـيًا : أن مـن غلـب فتولى الحكم واستتب له فهو إمام يجب بيعته وطاعته ، وتحرم منازعته ومعصيته . عن عبد الله بن دينار قال : شهدت ابن عمـر حيـث اجـتمع الناس على عبد الملك ، قال : (اكتب إني أقر بالسمع والطاعـة لعـبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله ما استطعت ، وإن بني قد أقروا بمثل ذلك)[1] .

ثالثًا : إنه لا بأس بتعدد الأئمة والسلاطين ، ويجب الطاعة لكل واحد مـنهم بعد البيعة له على أهل القطر الذي ينفذ فيه أوامره ونواهيه ، كصاحب القطـر الآخـر . يقـول الشيخ ابن تيمية (والسنة أن يكون للمسلمين إمام واحـد ، والباقون نوابه . فإذا فرض أن الأمة خرجت عن ذلك لمعصية من بعضها ، وعجز عن الباقين ، أو غير ذلك . فكان لها عدة أئمة ، لكان يجب على كل إمام أن يقيم الحدود ، ويستوفي الحقوق)[2] .

رابعًـا : أن النبي ﷺ أمر بطاعة الأئمة الموجودين المعلومين ، الذين لهم سلطان يقدرون به على سياسة الناس . لا بطاعة معدوم ولا مجهول ، ولا ليس له سلطان ولا قدرة على شيء أصلاً[3] .

خامسًـا : لا يـزال الـناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء ، فإن عظمـوا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم ، وإن استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأحكام كيف يبايع الإمام الناس ، جـ١٣ ص١٩٣ .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ، جـ٣٥ ص١٧٥ .

(٣) منهاج السنة النبوية ، جـ١ ص١١٥ .

(٤) تفسير القرطبي ، جـ٥ ص٢٦٠ .

سادسًا : أن النصوص الشرعية قد تضافرت على وجوب السمع والطاعة للولاة في غير معصية الله . عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : ((**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة**))[1] . قوله فيما أحب وكره أي فيما وافق غرضه أو خالفه .

سابعًا : كما وردت النصوص الشرعية في وجوب طاعة الأمراء ، **عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله إنا كنا بشر ، فجاء الله بخير ، فنحن فيه ، فهل وراء هذا الخير شر ؟ قال : « نعم » قلت : هل وراء ذلك الشر خير ؟ قال : « نعم » . قلت فهل وراء ذلك الخير شر ؟ قال : « نعم » . قلت : كيف ؟ قال : ((يكون بعدي أئمة ، لا يهتدون بهداي ، ولا يستنون بسنتي ، وسيقوم فيهم رجال ، قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس . قال : قلت : كيف أصنع يا رسول الله ﷺ إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضرب ظهرك ، وأخذ مالك ، فأسمع وأطع))**[2] .

وفي هذا الحديث الشريف وصف النبي ﷺ هؤلاء الأئمة لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته ، وذلك غاية في الضلال . ومع ذلك فقد أمر النبي ﷺ بطاعتهم في غير معصية الله . فإن قادك الهوى إلى مخالفة هذا الأمر الحكيم والشرع المستقيم لحقك الأثم . وهذا الأمر النبوي هو من تمام العدل الذي جاء الإسلام به .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، جـ٣ حـ١٤٦٩ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، جـ٣ حـ١٤٧٦ .

ثامنًا : أن طاعة ولاة الأمر من المسلمين من طاعة الله ورسوله ، يدل علـــى ذلك أحاديث صحيحة . منها ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : ((**من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقـد عصـــى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصـــاني**)) وفـــي لفظ مسلم ((**..... ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني**))[1] .

وقـــال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصـــون لأحـــد فـــيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور ، وغشهم ، والخروج عليهم بوجه من الوجوه)[2] .

تاســـعًا : أن الوقـــيعة في أعراض الأمراء ، والاشتغال بسبهم وذكر معائـــبهم خطيـــئة كبـــيرة نهى عنها الشرع المطهر وذم فاعلها . وهي نواة الخروج على ولاة الأمر ، الذي هو أصل فساد الدين والدنيا معًا . فكل نص فـــي تحـــريم الخـــروج وذم أهله ، دليل على تحريم السب وذم فاعله . وفي الصـــحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله أي الإسلام أفضل ؟ قال : ((**من سلم المسلمون من لسانه ويده**))[3] .

وقـــد ورد في النهي عن سب الأمراء على الخصوص ، لما في سبهم مـــن إذكاء نار الفتنة ، وفتح أبواب الشرور على الأمة . عن زياد بن كسيب

---

(١) صحيح البخاري ، جـــ١٢ حـــ١١١ . صحيح مسلم ، جـــ٣ حـــ١٤٦٦ .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ، جـــ٣٥ ص١٢ .

(٣) صحيح البخاري ، جـــ١/٥٤ . وصحيح مسلم جـــ١/٦٥ .

العــدوي قال : (كنت مع أبي بكر تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثــياب رقــاق ، فقال أبو بلال : تنظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق . فقال أبــو بكر : اسكت سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله**))[1] . وخلاصة القول ، قد علم بالضرورة من دين الإسلام أنــه : « لا ديــن إلا بجماعــة ، ولا جماعة إلا بإمامة ، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة » . وأن بالسمع والطاعة لولاة الأمر ، وما يترتب على ذلك من الخير ونصــر المظلــوم ردع الظالم ، واستتاب الأمن ، واجتماع الكلمة . وأن ما يترتب على ضد ذلك من الفرقة والخلاف والعواقب الوخيمة[2] .

---

(١) سنن الترمذي ، رقم ٢٢٢٥ .

(٢) حقوق ولاة الأمر ، د/عبد العزيز إبراهيم العسكر ، ص٦ – ٢٨ .

الإسلام والبيئة

خلق الكون :

إن الله خلــق الكون في ستة أيام ، وليست هذه الأيام مثل أيامنا ، قال الله تعالى : ﴿ **وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾[1] . إن هذا الكون خلقــه الله تعــالى : ﴿ **قــل أئــنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فــيها وقــدر فــيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى الســماء وهــي دخــان فقــال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعيــن . فقضــاهن سبع سماوات في يومين وأوحي في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[2] .

فــالأرض خلقــت فــي يومين ، والجبال والبحار والأنهار والأرزاق والأقوات في يومين والسماء خلقت في يومين . قال الله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما وما مسنا من لغوب** ﴾[3] . وتفيد آيات أخرى أن الأرض خلقــت غــير « مدحوة » أي غير صالح للإقامة عليها ، ثم خلقت الســماء بعد الأرض . ثم دحيت الأرض وصارت مستديرة ، أو غير كاملة الاستدارة لأنه منبعجة عند خط الاستواء ، مفرطحة عند القطبين .

---

(١) سورة الحج آية : ٤٧ .

(٢) سورة فصلت الآيات : ٩ – ١٢ .

(٣) سورة ق آية : ٣٨ .

فالمؤمن يتأمل في خلق الكون ، فيجد أثر القدرة الإلهية في كلما خلق الله سبحانه وتعالى . ويجد ذلك في السماء العالية ، والجبال الراسية ، والبحار والأنهـــار ، والأرض والنـــبات ، والشـــمس والقمـــر ، والنجوم والفضاء ، والهـــواء . ويجد التكامل والتناسق في هذا الكون ، وشاهد ببصره وبصيرته أثر القدرة الإلهية .

ومـــنظومة الكـــون كلـــه خاضع لله خضوع القهر والغلبة ، فالسماء والأرض والشمس والقمر ، والليل والنهار والبحار والجبال والنجوم والشجر والـــدواب . وسائر المخلوقات مقهورة بفطرتها على الامتثال لأمر الله ، قال الله تعـــالى : ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكـــل فـــي فلك يسبحون** ﴾[1] . فلا تملك الشمس أن تظهر بالليل ، ولا الليل يملـــك أن يسبق النهار فيأتي أوانه . وكل ما في الكون له وظيفته يؤديها في امتثال وطاعة[2].

البيئة لغويًا :

كلمـــة البيـــئة من «بوأ » يقال : تبوأت منزلاً أي نزلته ، « والمباءه » مـــنزل القوم في كل موضع ، وكذلك معاطن الإبل والغنم ، أي منازلها حول الماء « مباءة » فالبيئة هي المنزل والمكان الذي ينزل فيه الإنسان أو الحيوان . كمـــا أن البيئة تعبر عن الحالة فيقال : هو من بيئة حسنة أو من بيئة سوء . فالبيـــئة تطلق على المكان أو الحالة ، والبيئة أيضًا هي الإطار الذي يمارس

---

(١) سورة يس آية : ٤٠ .

(٢) الدين والحياة ، د/عبد الله شحاتة ، ص١١ – ١٦ .

الإنسان حياته ، مثل الهواء والماء والأرض . كما تشمل البيئة عناصر الثروة مثل : الزراعة ، والمصائد ، والمعادن ، والبترول ، وتتلخص في :

١- السماء :

رفع الله السماء وزينها بالنجوم ، وجعلها سقفًا مرفوعًا ، وهي من آيات الإبداع والقدرة الإلهية ، ومن آثارها : « الغلاف الغازي المحيط بالأرض يحميها من ملايين الشهب التي تهبط عليها من الفضاء الخارجي ، ويحفظ الأرض في درجة مناسبة من الحرارة ، وهو الوسيط الذي يحمل بخار الماء المتصاعد من البحار ليكثف منه مطرًا . يستنشق الإنسان الأكسجين ، ويستنشق النبات ثاني أكسيد الكربون ، ولو وجد الإنسان وحده لمات ، ولو وجد النبات وحده لذبل ، ولو كان الأكسجين بنسبة ٥٠% أو أكثر من الهواء بدلاً ٢١% لكثرت الحرائق » فالكون كله متكامل ترعاه يد الله : ﴿ **صنع الله الذي أتقن كل شيء** ﴾[١] .

٢- الأرض :

بين الإنسان والأرض حنين وولاء ، فهذه الأرض أم رؤوم خلقنا منها ، ونأكل من خيراتها وندفن بين أحضانها . قال الله تعالى : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[٢] . ومن معادن الأرض ، خلقت العناصر الصلبة التي تحتوي عليها أجسامنا وأجسام الأحياء

---

(١) سورة النمل آية : ٨٨ .

(٢) سورة طه آية : ٥٥ .

مـــن حيوان ونبات . فالأرض وعاء لنعم الله المتعددة على الإنسان ، بل هي مائدة الله في هذه الدنيا . يأكل منها الإنسان والحيوان والطير ، وفيها صنوف الأرزاق ، ومـــن واجبـــنا المحافظة عليها سليمة نافعة مفيدة . علينا أن نتتبع أساليب مفيدة مما يساعد على خصوبة التربة وتحسينها[1] . الإسراف في إنتاج موارد الأرض واستهلاك خيراتها ، وما يتفرع عن هذا الإسراف من تخريب وإفســـاد للبيئة ومصادر نعم الله وإحسانه . ويتكرر التحذير في القرآن الكريم من مغبة الإفساد في الأرض ومن محاربة رسالات الله التي تهدف إلى إشاعة الصـــلاح في الأرض وتوفير مقومات الإيواء فيها . فالأرض أعظم مصادر العـــيش والحـــياة بـــدون منازع . ويعتمد مستقبل أية أمة إلى حد كبير على الطـــريقة التـــي تستعمل بها الأرض . وحين كان الإنسان يحسن التعايش مع الأرض كانت الحضارات تقوم ، وحين يسيء هذا التعايش تنهار الحضارات وترحل إلى مكان آخر يحسن فيه إنسان آخر التعامل مع الأرض.

والأســـاس فـــي حسن الانتفاع بالأرض قاعدتان : الأولى الإقامة في الأرض حيث تتوفر حرية العبادة ، قال الله تعالى : ﴿ **يا عبادي الذين آمنوا إن أرضـــي واســـعة فإياي فاعبدون** ﴾[2] . والثانية حرية السفر في مناكب الأرض كلهـــا للـــتجارة والعمل . وللانتفاع بخيرات الأرض منهاجان : فإما مـــنهج الله في « الحلال الطيب » الذي يفرز مفاهيم في الاقتصاد تهيئ لجميع الـــناس الانتفاع وتشيع التعاون والتكافل بينهم ، وتوفر للجميع التمتع بالطيب مـــن الغـــذاء المؤدي إلى العافية والرخاء . وأما منهج الشيطان في « الحرام

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٢ .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٥٦ .

الخبيـــث » الـــذي يعزز نظريات في الإنتاج والاستهلاك تصيب البشر كلهم بالضـــنك وتشـــيع الاستغلال والاحتكار والابتزاز ونهب مقدرات الشعوب ، ومضاعفات المجاعات والفتن في الأرض والفساد الكبير[1] .

٣- الماء :

الماء وسيلة من وسائل الطهارة والنظافة ، وله أثر في إحياء الأرض بعـــد موتها ، وتأهيلها للزراعة والإنتاج . ويجب العناية بمياه البحار والأنهار وحمايـــتها مـــن الـــتلوث ، وإعـــادة تأهيلها . فقد قضت حكمة الله أن جعل « ٧٠% » مـــن الكـــرة الأرضـــية مغطـــاة بالمياه ، وهي المسئولة عن تقديم «٧٠% » من الأكسجين اللازم للكائنات الحيه ، بينما تقدم النباتات المزروعة « ٣٠% » مـــن الأكسجين اللازم لهذه الكائنات . لقد أمرنا الله بعمارة الأرض وإصـــلاحها ونهـــى عـــن الفساد والإفساد قال الله تعالى : ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعـــد إصـــلاحها** ﴾[2] . ويجب نشر الوعي البيئي لحماية البيئة ، وإن الكـــون يتأثر بعضه ببعض . وحق الانتفاع بالمياه مكفول للجميع بلا احتكار ولا غصب ولا إفساد ولا إسراف .

٤- الجبال :

لهـــا منافع متعددة فهي أوتاد تمسك بالأرض ، وتحفظها من الزلازل والبراكيـــن ، وهـــي في نفس الوقت مستودع لمياه الأمطار ، ومخزن للماء

---

(١) الأمة الإسلامية ، د/ماجد الكيلاني ، ص٨١ - ٨٤ .

(٢) سورة الأعراف آية : ٥٦ .

الفـــرات . وقـــد ربط القرآن بين رسو الجبال وكونها أوتادًا ، وبين الأبخرة السحب ومجاري الأنهار ، وقد قرن القرآن الكريم بين الجبال والمياه . فإذا لم تذكـــر الأنهـــار مـــع الجبال ، ذكر ما يكون من آثارها من الخصب والنماء والقـــوت والـــزرع والمتاع قال الله تعالى : ﴿ **والجبال أرساها . متاعًا لكم ولأنعـــاكم** ﴾[1] . وقال الله تعالى : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** ﴾[2] .

٥- الزراعة :

نعمة ملموسة من نعم الله سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه يسوق المطر ويحـــي بـــه الأرض ، وينبـــت النبات ، وتتحول الأرض الهامدة إلى جنات وبســـاتين . وزروع نضـــرة تنبـــت وتحيا وتترعرع ، ويستفيد منها الإنسان والحـــيوان والطـــير وكل كائن حي ، قال الله تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامـــه . أنـــا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقًا . فأنبتنا فيها حبًا وعنـــبًا وقضـــبًا . وزيتونًا نخلاً . وحدائق غلبًا . وفاكهةً وأبًا . متاعًا لكم ولأنعـــاكم** ﴾[3]. ولفت القرآن أنظارنا إلى بدائع الله في هذا الكون ، ومن ذلك إحـــياء الأرض بعد موتها . وإنبات الجنات من العنب والذرة والقمح والقطن والتفاح والبرتقال وسائر الفواكه والثمار ، وأنواع النخيل والنباتات فمنها الحلو والحـــامض ، قـــال الله تعالى : ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من**

---

(١) سورة النازعات آيتا : ٣٢ – ٣٣ .

(٢) سورة الحجر آية : ١٩ .

(٣) سورة عبس الآيات : ٢٤ – ٣٢ .

أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

وللزراعة أثرها النافع في تحسين البيئة ، وفي تجميل الكون ، وزيادة الرقعة الخضراء ، وإطعام الإنسان والحيوان . ولها أهمية قصوى في تخليص البيئة من ثاني أكسيد الكربون ، وفي إنتاج الأوكسجين أثناء عملية التمثيل « الكلور فيلي » . إن الزراعة نعمة تستحق الشكر بالمحافظة على التربة وإدامة تأهيلها ، وتحسينها ومساعدتها على أداء وظيفتها على أحسن وجه . لقد قص القرآن علينا قصة يوسف الصديق عليه السلام ، حين عبر رؤيا الملك ، وبين له أن النيل سيفيض سبع سنين ، ثم يجف سبع سنين . ومن الواجب ادخار القمح في سنابله ، والذرة في كيزانه ، وبناء الصوامع والمخازن ، والاقتصاد والتوسط في الإنفاق بدون إسراف أو تبذير[2] .

ويمكن حصر الأحاديث النبوية التي تعرضت لقضايا البيئة في أربع مجموعات :

١- الأحاديث التي تحث على غرس الأشجار ، والمحافظة عليها :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((**ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به**

---

(١) سورة الرعد آية : ٤ .

(٢) الدين والحياة ، د/عبد الله شحاتة ، ص٢٣ – ٢٤ .

صدقة)) رواه البخاري ومسلم . وخير البر أدومه ، وأفضل الصدقة ما بقي وعـم نفعـه ، وقـد رغب الإسلام أبناءه في وجوه كثيرة من الخير ، وخير العـبادة قلبية وبدنية ومالية . وإن الصدقة الجارية العام نفعها ، إما أن تكون وقفًا أو غرسًا أو مسجد تبنيه أو نهر تجريه .

أمـا الغرس والزرع فمن أفضل القرابات وأحسن المبرات ، تحيا به الأرض ، وتخـرج بـه طيبات الثمار ، والحبوب والحشائش التي يعيش بها الإنسان وسائر الحيوانات . ومن غرس شجرًا أو بذر زرعًا لم تسقط منه حبة ولا ورقة إلا وكانت في صحيفته ، وما يأكل منه إنسان ولا بهيمة ولا طير ، إلا وكتـب له بذلـك عند الله أجرًا . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضـي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **((ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كـان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السبع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ، ولا يزرؤه أحد إلا كان له صدقة))** [1] .

يرغـب نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام في الزراعة ويحث عليها لأنها قوام الحياة وعماد المعيشة . ويقول ﷺ : **((من بنى بنيانًا في غير ظلم ولا اعتداء ، أو غرس غرسًا في غير ظلم ولا اعتداء كان له أجرًا جاريًا ما انتفع به من خلق الرحمن تبارك وتعالى))** . ومن غرس غرسة من الأشجار المثمرة النافعة بعودها وورقها وثمرها وظلها وخصائصها الأخرى ، كالنخل والكـرم والزيـتون فإنما الأجر بمقدار النفع . وأنفع الأشجار أطولها عمرًا

---

(١) مختصر صحيح مسلم للألباني ، ص٢٥٨ رقم ٩٧٨ .

وأطيــبها ثمــرًا ، تحصل الصدقة الجارية . وقد رغب النبي ﷺ في المنافع العامــة ، وذكــر مما يعود بالأجر على صاحبه بعد موته أشياء كثيرة كقوله ﷺ : ((**سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته : من علم علمًا ، أو أجــرى نهرًا ، أو حفر بئرًا ، أو غرس نخلاً ، أو بنى مسجدًا ، أو ورث مصحفًا ، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته**))[1] .

٢- الأحاديــث التــي تحــث على رحمة الحيوانات وحسن معاملتها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((**بينما رجل يمشــي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيه فشرب ثم خرج فإذا كلــب يلهــث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطــش مثل ما بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ماء فأمسكه بفيه حتى رقي فســقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا يا رسول الله : وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا ؟ فقال في كل كبد رطبة أجر**)) . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ((**عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلــت فــيها النار ، لا أطعمتها وسقتها إذا هي حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**)) . رواه البخاري وسلم .

---

(١) إصلاح المجتمع ، محمد سالم البيحاني ، ص١٨٤ - ١٩٠ . ((شرح مئة حديث مختارة مما اتفق عليه البخاري ومسلم)) .

اصـــنع المعروف وضعه حيث شئت فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عمـــلاً . واعلم بأنك إذا تصدقت بقليل أو كثير تريد به وجه الله على مستحق أو غـــير مســـتحق فإن أجرك في ذلك على الله . وإن لك في كل كبد رطبة صدقة ، ولا تحتقرن من الخير شيئًا . وفي الحديثين وما جاء على مثالهما من التعاليم المحمدية ما لو عمل الناس بها لأغنى عن جمعية الرفق بالحيوانات ، ولسد أفواه الذين لا يعرفون الإسلام إلا أنه دين القسوة ، واحتقار الضعيف . ومـــا علموا من رسول الله ﷺ أنه كان أرحم الناس بالضعفاء ، وأكثرهم رفقًا بالـــبهائم وكـــل ذي روح . يفتح للهرة الباب وهو يصلي حين يسمعها تحكها بأظفارهـــا ، ونظر إلى حمار قد وسم في وجهه فيقول ﷺ : ((**ولعن الله من فعـــل به هذا**)) . وروى أنه عالج كلبًا أجرب وديكًا مريضًا . وأنه أمر قومًا مـــن الأنصـــار بالتخفـــيف عن بعيرهم الذي في خدمتهم وقال عليه الصلاة والســـلام : ((**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**))[1] .

وفي القرآن الكريم سورة تسمى سورة النمل ، وفيها حديث عن النمل والهدهـــد . وهـــذه الحيوانات لها ممالك ونظام ودور مهم في الحياة قال الله تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطـــنا فـــي الكتاب من شيء** ﴾[2] . والمراد بالكتاب هنا كتاب الكون ، فهو غاية في الدقة والنظام والتكامل ، لأنه في يد القدرة الإلهية التي نحيا في ظل

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٩٠ – ٣٩١ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٣٨ .

رعايــتها وعنايتها . وفي سورة النمل حديث عن عسل النحل ، وبيان أن فيه شفاء للناس ، وفيها عن اللبن الذي يستخرج من بين فرث ودم .

٣- الأحاديــث التــي تحث على الحفاظ على صحة البيئة :

عــن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عــنه خــرج إلــى الشام حتى إذا كان بقرية «يسرغ » لقيه أهل الأجناد أبــو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فقال ابن عباس : فقال عمر ادع المهاجرين الأولين ، فدعوتهم ، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجت لأمر ولا نرى أن تــرجع عنه ، وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء . قال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي الأنصــار ، فدعوتهــم له ، فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عني . ثم قال : ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر بن الخطاب رضي الله عــنه بالــناس : إنــي مصبح على ظهر « أي مسافر في الصباح عائدًا إلى المدينة » ، فأصبحوا عليه . فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفرارًا من قدر الله ؟ فقــال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، وكان عمر يكره خلافه ، نعم نفر مــن قدر الله إلى قدر الله . أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديًا له عدوتان « أي حافــتان » إحداهمــا خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة

رعيــتها بقــدر الله ، وإن رعيــت الجدبــة رعيــتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عــبد الرحمن بن عوف وكان متغيبًا في بعض حاجاته ، فقال : إن عندي من هــذا علمًا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا علــيه ، وإذا وقع بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه**)) . قال : فحمد الله عمر بن الخطاب ثم انصرف[1] .

ومــن تعاليم الإسلام عدم دخول المريض على الأصحاء حتى لا ينقل إليهم العدوى . وقد أمر الإسلام بالتداوي ، وعلاج المرض ، عن جابر رضي الله عنه عن سول الله ﷺ أنه قال : ((**لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل**))[2] . والإسلام دعا إلى النظافة والطهارة وحث على الاستنجاء والوضوء والاغتسال ، ونظافة الثوب والطعام والشراب والمساكن والشوارع ، ومصادر الماء[3] .

---

(١) مختصر صحيح مسلم للألباني ، كتاب الطاعون ، ص٣٩٠ جـ١٤٨٥ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للألباني ، ص٣٨٦ جـ١٤٦٧ .

(٣) الدين والحياة ، د/عبد الله شحاتة ، ص٢٥ – ٢٧ .

تلوث البيئة

تزايد اهتمام العلماء في السنوات الأخيرة لمشكلة تلوث البيئة لما تسببه مـــن أضرار جسيمة بصحة الإنسان ، وكل الكائنات الحية ، ومنها ما يعتمد عليه الإنسان في كافة أنواع طعامه ، ومنها :

١- تلوث الهواء :

يعـــد تلـــوث الهواء بعادم السيارات وأدخنة المصانع من أهم مسببات الأمـــراض وخاصـــة في المدن المزدحمة . ومن بين الأمراض التي يسببها تلـــوث الهـــواء الأمراض الصدرية مثل : الربو الشعبي بالإضافة لما تسببه الأدخـــنة والغـــبار المتصاعد من المصانع المختلفة من نزلات شعبية مزمنة وضـــيق في التنفس لما يحتويه عادم السيارات على عنصر الرصاص ، هذا العنصـــر ينتج عن احتراق الوقود الداخل في تركيبة العنصر السام . ويؤدي الـــتعرض المـــتكرر الشـــديد لمركبات الرصاص إلى التسبب في الكثير من المضـــاعفات فـــي جمـــيع أجهزة الجسم . وينصح العلماء المتخصصون في معالجـــة مشاكل البيئة بضرورة أن تتخذ الحكومات الإجراءات المناسبة ضد الأخطـــار التي يسببها تلوث الهواء . ومن بين هذه الإجراءات تخفيض نسبة الرصـــاص فـــي الوقـــود ، واتخاذ الاحتياطات الصحية عند بناء المصانع ، وزيـــادة الـــرقعة الخضراء ، وزراعة الأشجار التي تساعد على تقليل نسبة تلوث الهواء .

٢- ثقب الأوزون :

يؤكد العلماء أنه قد حدث ثقب فيما يسمى بطبقة الأوزون « من طبقات الجـو العلـيا » نتـيجة زيادة استخدام مركبات « الفوروكربون »في صناعة المبـيدات الحشـرية ، ومستحضرات التجميل وغيرها في صورة رشاشات « سـبراي » . ومـن المعروف أن طبقة الأوزون تمنع نفاذ كميات كبيرة من أشـعة الشـمس فـوق البنفسجية التي يؤدي كثرة التعرض لها إلى الإصابة بسرطان الجلد ، وبعض أضرار أخرى[١] .

---

(١) مجلة الفنار ، القوات الجوية الملكية السعودية ، العدد السادس ص٩ .

مبادئ الاستراتيجية السعودية للبيئة

لقد تم تطوير استراتيجية بيئية تقوم على أن الإنسان مستخلف من الله عــز وجل في هذه الأرض ليعمل على عمارتها لحضارته ومستقبله ، ولبني البشر جميعًا . وتعتمد على المبادئ الأساسية الآتية :

أولاً : حماية المعطيات البيئية والمقومات الطبيعية وتنميتها والمحافظة على تنوعها .

ثانيًا : التكامل في عملية التخطيط التنموي على جميع المستويات وفق الاعتــبارات البيئــية في بنية التحليل الاقتصادي والحسابات المالية ، خاصة على المستوى الوطني .

ثالــثًا : اعــتماد التحليل البيئي وتقويم الآثار البيئية للمشاريع التنموية « حكومية وأهلية » خلال عمليات التصميم وانتهاء بالتشغيل والصيانة ، مرورًا بشتى المراحل التنفيذ والتشييد وتشمل هذه الاستراتيجية أبعادًا عدة أبرزها :

أ- البعد الحضري :

والــذي يقــوم علــى المفاهيم المدن والمراكز الحضرية المهيأة بيئيًا وصحيًا . ويتم التأكيد في ذلك على الإنتاج والتوزيع والاستهلاك المرشد للمياه بشــكل عــام ومــياه الشرب على وجه الخصوص . وكذلك تطوير عمليات الصــرف الصحي واستكمال شبكاته ، والمعالجة السليمة للمياه الناتجة عنه .

مـــع مـــراعاة شتى بدائل التقنية المتاحة التي توفر أقصى اعتبارات السلامة للوطن .

ب- البعد الصناعي :

حيث تعمل المملكة على التوسع في الصناعة النظيفة القابلة للإستمرار التـــي تؤكـــد تحديث وسائل الإنتاج والإقلال من آثارها السلبية . خاصة في مجـــال البيـــئة والمـــوارد الطبيعية والحد من النفايات الصناعية ، مع توفير الحوافز المناسبة من أجل استخدام أكفأ الوسائل التقنية المتاحة .

جـــ- البعد الزراعي :

مـــن حيث تطوير سياسات للزراعة قابلة للإستمرار ، تؤكد الاستخدام الأمـــثل والأكفأ لموارد السعودية المائية . بالإضافة إلى تطوير وحماية البيئة الساحلية محافظة على الثروة السمكية وتنميتها .

د- البعد البشري :

الذي يشكل مع رفع كفاءته والتنمية له ، العمود الفقري للإستراتيجية البيئـــية . حيـــث يعتبر الإنسان « المواطن » المكون الرئيسي والأساس لثروة الأمة ، بوصفه المورد الدائم التجديد الذي لا يصيبه النضوب .

إن استراتيجية المملكة العربية السعودية البيئية ذات بعد دولي وإقليمي يقـــوم علـــى المشاركة الفعالة والبناءة في أمور البيئة وقضاياها على الساحة

الدولية . بما يتفق وموقع المملكة ومكانتها الخاصة بين الدول النامية والدول المنتجة ، والمصدرة للبترول والطاقة[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٤ .

قمة الأرض

خمس سنوات مضت على انعقاد قمة الأرض في « ريو دي جانيرو » والتـــي علقت عليها الآمال لإنقاذ الأرض من تدهور بيئي محتوم . وفي قمة الأرض الثانـــية التي انعقدت بمنظمة الأمم المتحدة « بنيويورك » عام ١٩٩٧م كـــان الهـــدف تقويم نتائج المقررات التي صدرت عن قمة الأرض الأولى . والتي تمخض عنها جدول أعمال القرن « ٢١ » الذي اعتبر برنامج عمل دولي شـــامل لجميع حقول التنمية المستديمة . ويركز جدول أعمال القرن « ٢١ » علـــى الإجراءات الضرورية لاستئصال : « الفقر ، والجوع ، وتغيير أنماط الاستهلاك المدمرة ، وصون الموارد الطبيعية وإداراتها » . وأهم النواحي التي تطرق إليها :

١- تغير المناخ :

تطويـــر مـــوارد للطاقة أكثر فعالية ، وتشجيع تطور النقل والصناعة لتقلـــيص حـــدة الـــتلوث ، واجتـــناب اســـتعمال الملوثات المستنزفة لطبقة « الأوزون » .

٢- الغابات :

ناشـــد جـــدول الأعمال دول العالم العمل على صون الغابات وتوسيع رقعتها .

٣- التصحر :

يؤثر في حياة سكان الأرض ، ويعادل ربع مساحة اليابسة ، فيؤدي . إلـــى تدهور الأرض الزراعية وانتشار الفقر . لذا يجدر قبل أي شيء اتخاذ تدابير وقائية لحماية الأرض الزراعية غير المتأثرة بعد .

٤- الزراعة :

الحاجـــة الماســـة إلى زيادة الإنتاج الغذائي في العالم . لذا على جميع الدول وضع برامج وطنية للزراعة المستديمة والتنمية الريفية .

٥- التنوع البيولوجي :

ضرورة الحفاظ على هذا التنوع من خلال : الأبحاث ، وصيانة عدد أكبر من الأنظمة البيئية الطبيعية ، وتشجيع الممارسات المستديمة في المناطق المحيطة بالمواقع المحمية .

٦- إدارة البيوتكنولجيا :

وذلـــك بالتركيز على برامج نقل التنكولوجيا والتدريب المهني وجمع المعلومات . وذلك لتمكين البلدان النامية من الإفادة من إنجازات البيتكنولوجيا المتطورة في البلدان الصناعية .

٧- موارد المحيطات :

تطبـــيق بـــرامج وقائـــية بمـــا فيها تنظيم دولي أكثر صرامة للشحن البحري ، وتصريف النفايات والصيد .

٨- موارد المياه العذبة :

العمل على زيادة إمدادات المياه العذبة للمناطق الحضرية والريفية .

٩- الموارد الكيمائية السامة :

تقويم « ٥٠٠ »مادة كيمائية جديدة بحلول العام « ٢٠٠٠م » . وأوصى بترويج المقاييس الدولية للملصقات على أوعية المواد الكيميائية .

١٠- النفايات الخطرة :

اســتخدام إنتاجــية أكثر نظافة ، وبتدمير النفايات وإيجاد بدائل للمواد السامة ، وتبادل التكنولوجيا المأمونة ونقلها .

١١- النفايات الصلبة :

على جميع الدول وضع معايير لمعالجة النفايات وتصريفها بحلول عام « ٢٠٠٠م » .

١٢- النفايات المشعة :

حــث الحكومــات على دعم جهود الوكالات الدولية ، أمثال : الوكالة الدولــية للطاقــة الذرية ، واتفاقيتي «بامكون ولندن »بتنظيم استخدام النفايات المشعة والتخلص منها[١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٥ .

مؤتمر التنمية وتأثيرها في البيئة

عقـد في عام « ١٤١٨هـ/١٩٩٧م »بمدينة الرياض ، وتلقى المؤتمر عددًا كبيرًا من الدراسات التي تتعلق بمحاوره المختلفة وأهما :

١- **التلوث البيئي :** بما في ذلك معالجة قضايا انبعاث الغازات ، التحكم بالنوعية ، ومياه الصرف ، التعمر ، التآكل ، ورشح التربة .

٢- **إدارة النفايات ومعالجتها :** بأنواعها الثلاثة : « البلدية ، الصناعية ، الطبية » .

٣- **الدراسات الاقتصادية المتعلقة بالبيئة :** من البحوث المقدمة مواضيع عن المعالجة الحرارية للمخلفات الصناعية ومخلفات المستشفيات ، التأكد في سواحل الخليج العربي لمراقبة ورسم الخرائط البيئية من الأقمار الاصطناعية ، معالجة مياه الصرف ، تطبيقات أجهزة اقتصادية على إدارة البيئة والطاقة ، تقدير دور الرصاص كملوث بيئي في المنتجات النفطية ، أثر محطات توليد الطاقة الكهربائية على تلوث الهواء ، مخاطر تلوث الهواء في مصافي تكرير النفط .

ولقد قدم المعهد العربي لإنماء المدن ورقة أثر التخطيط العمراني على البيـــئة ، جـــاء فيها : إن الزحف العمراني للمدن والمناطق الصناعية خلال القـــرن الحالـــي أدى إلى تدمير مكونات النظام البيئي في الكثير من مناطق العـــالم . وهـــناك عـــدة مجالات تبادلها التخطيط العمراني تهدف إلى تحقيق التوازن بين الأنشطة الإنسانية ، من أهمها :

١- الدراســـات الطبيعية التي تتناول عناصر الأرض والمياه والهواء والغطاء النباتي والحيواني التي تعيش في المنطقة . والكيفية التي تستغل فيها هذه المصادر من قبل الإنسان ، أو تأثير النشاط العمراني عليها .

٢- وضـــع الأســـس والمعايير التي تحقق حاجات الإنسان ونشاطاته المختلفة دون الإخلال بالتوازن البيئي .

٣- القـــيام بدراســـة تقويم الأثر البيئي لمشاريع العمرانية والإنتاجية ومشاريع البنية التحتية .

٤- اســـتخدام التقنـــيات الحديـــثة مثل الاستشعار عن بعد ، وأنظمة المعلومـــات الجغرافـــية في تحليل الوضع البيئي والعمراني . وقياس التأثير المحتمل للمقترحات التخطيطية على التوازن البيئي[١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٧ .

إن الإسلام نظام أخلاقي متكامل للتعاون على البر والتقوى ، وسلامة البيـــئة كـــون أن الفرد المسلم عضو في المجتمع المسلم يهتم بأمور الناس ، ويحـــرص على سلامتهم ، ويسهم في أمور الخير . والإنسان مأمور بالأمانة والصـــدق والصـــبر ، وكل هذه تسهم في تكامل شخصيته ودوره في خدمة المجتمع والتعاون على النظافة والرعاية الصحية والثقافية والاجتماعية ، مما يمهد لسلامة البيئة وحس تأهيلها إلى العمل النافع ، والسلوك الحضاري .

أهمية الزمن والوقت لدى المسلمين

لقــد استطاع الإنسان بالإسلام ، أن يقدر دوره في الفعل الحضاري ، ويــنظر إلــيه كقيمة بالتفكير الذي يمكنه من التبصر وتقدير العواقب . ومن الــتعامل مع المتاح ، وخلال رؤية شمولية تستصحب الزمن بأبعاده الثلاثة : « الماضي ، والحاضر ، والمستقبل » .

لقــد أصــبح الإنسان المسلم ، يستشعر قيمة الزمن ، بعد أن كان قبل الإســلام كــلاً ، مستســلمًا للــنظرة الدهرية ، متخاذلاً عن التفكير بإمكانية التغيــير . قال الله تعالى : ﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكــنا إلا الدهــر وما لهم من ذلك من علم إن هم إلا يظنون** ﴾[1] . فجاء الإســلام ليقرر أن الإنسان المسلم هو الذي يسخر الزمن ويملكه . والإسلام أضاف بعدًا ممتدًا آخر للحياة والزمن ، أضاف بعدًا غيبيًا غير منظور تحقق من خلاله : « الحس بالزمن في الدنيا ، واستشعار المسؤولية عنه في الآخرة ، وإدراك الأجــل في ضوئه » . قال الله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلــنا لهم أزواجًا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بئات إلا بإذن الله لكل أجل كتاب** ﴾[2] . وإيقاظ الحس المستقبلي ، والإعداد له ، والتفكير بالتداعيات والعواقب .

---

(١) سورة الجاثية آية : ٢٤ .

(٢) سورة الرعد آية : ٣٨ .

لقـد أدخـل الإسلام الزمن في حساب المسلم ، من خلال ملاحظات الظواهـر الكونية ، وحركتي الشمس والقمر ، وتعاقب الليل والنهار . وربط أداء العـبادات التي تمثل أركان الإسلام وتقيم بناءه « بالزمن » فللصلاة زمن وحسـاب ، وللزكاة حول ونصاب ، وللحج مواقيت وأهلة وأشهر معلومات ، وللصوم شهر ورؤية هلال ، فأي تساهل أو غفلة أو تنازل عن الزمن يفوت الثواب ويوقع بالمسئولية .

كما لفت النظر إلى بعض الأزمنة المتميز للفعل وبركة الإيمان والعمل فـي : « يوم الجمعة ، ويوم عرفة ، وعشرة ذي الحجة ، وليلة القدر ، ويوم عاشوراء ، وشهر رمضان ، والأشهر الحرم » .

فكم سيكون الواقع مريرًا والأمر خطيرًا ، إذا وقع الذهول عن حكمة العـبادات وآثارهـا فـي النفس ، « الغفلة عن قيمة الزمن » . وإذا علمنا أن متوسـط إنتاجـية الفرد في معظم بلاد العالم الإسلامي اليوم ، قد لا يتجاوز النصف ساعة يوميًا . وكم سيكون الحال رهيبًا ، عندما نعلم أن بعض البشر لا يمـارس عمـلاً أصلاً ولا يستثمر طاقته ، ويقبل بإلغاء نفسه . إنها حالة الوهـن الحضـاري التي أخبر عنها الصادق المصدق ﷺ حيث يسيطر حب الدنـيا ، فيظهر إنسان الحق والإستهلاك ، ويغيب إنسان الواجب والإنتاج . فتنتهي الأمة إلى مرحلة القصعة التي تتخاذل فيها ، وتتكالب عليها الأمم لأكل خيراتها ، وتعطيل طاقاتها[1] .

---

(١) التقويم القطري ، الشيخ عبد الله إبراهيم الأنصاري ، مركز البحوث والدراسات ، ص٩ .

أما عن أهمية الوقت والحرص على استغلاله ، فقد نظرت في أحوال بعض شباب المسلمين ، وتأخرهم عن قافلة الحياة بالرغم من أن ركب التطور يسير ، وهم في غفلتهم نائمون ، وعجلة الزمن تقرض أعمارهم رويدًا رويدًا ، وهم عنها قعود خاملون . وأعداؤهم يتربصون بهم الدوائر ، فلم يدعوا مكيدة لهم إلا عملوها ، ولا مضرة بهم إلا صنوعها ، وهم في سباتهم يعمهون . فقد قنعوا بالجلوس الساعات الطوال أمام شاشة التلفزيون أو بعض وسائل الترفيه المضيعة للوقت . كيف لا وقد اجتمع لدى الغالبية منهم الثلاثي الخطر : « الشباب ، والفراغ ، والمال » يقول الشاعر :

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده

ثم بالمقارنة بينهم وبين سلفنا الصالح وشباب الإسلام في عهده الزاهر الذين كانوا قدوة ونموذجًا ومثلاً أعلى يحتذي للخير والصلاح والتقوى والخلق الرفيع . فما أبعد الفرق بين الفريقين ، وما أوسع البون بين الفئتين . وإن من أقوى الأسباب في وجود هذه الهوة بينهما بعد النشأة الصالحة في البيت الصالح هو استغلال الوقت عند الفريق الصالح ، والتفريط فيه عند الفريق الطالح .

فسلفنا الصالح عرف قيمة الوقت ، فراح يستغل ليله ونهاره أحسن استغلال في أمور الدنيا والآخرة معًا . فبارك الله له في وقته وبارك الله في أقواله وأفعاله . فكان حقًا ميمون النقيبة ، مبارك الوقت ، حسن السيرة . وأما الفريق الطالح ففرط في وقته ، ولم يقم وزنًا للوقت بلياليه وأيامه ، ولا بشهوره وأعوامه . ورسخ في ذهنه أن الحياة هي ذلك المتاع الزائل .

لذا يجب على شباب المسلمين أن يعرفوا قيمة الوقت ، وكيف ينبغي استغلاله بطريقة صحيحة حتى نكتسب الحسنين : نعيم الدنيا وثواب الآخرة .

لقد اعتنى القرآن الكريم بالوقت عناية فائقة ، مما يدل دلالة واضحة على قيمة الوقت وأهميته في حياة المسلمين ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا** ﴾[1] . أي أن الله تعالى جعل الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر ، فما فات المسلم من العمل في أحدهما تداركه في الآخر . ويحذر القرآن الكريم المفرطين في أوقاتهم الذين يفوتهم العمل فيها وينذرهم من الحسرة والندامة على ذلك التفريط يوم القيامة حيث يقول قائلهم حينئذ ﴿ **يا ليتني قدمت لحياتي** ﴾[2] . لقد مضى العمل ولن يعود . « فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل » .

ولشدة أهمية الوقت فقد أقسم به سبحانه فقال تعالى : ﴿ **والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى** ﴾[3] . كما أقسم بالزمن حيث قال سبحانه : ﴿ **والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[4] . يقول الإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى : ﴿ **والعصر** ﴾ هو الدهر أي الزمن على قول أكثر المفسرين وهو الراجح فإن تسمية الدهر عصرًا .

---

(١) سورة الفرقان آية : ٦٢ .

(٢) سورة الفجر آية : ٢٤ .

(٣) سورة الليل آيتا : ١ – ٢ .

(٤) سورة العصر كاملة .

أمـــا مـــا ورد عـــن قـــيمة الوقت وأهميته في السنة النبوية المطهرة الشريفة ، فقد روى معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ((**لا تـــزول قدمـــا عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفـــناه ، وعـــن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه**))[1] .

وروى الحـــاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رســـول الله ﷺ أنه قال : ((**اغتنم خمسًا قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك**))[2] . نعم شبابك قبل هرمك فالشباب فيه القوة ، وفيه النشاط وفيه الحـــيوية ، وفـــيه خفـــة الحـــركة وسرعة إنجاز العمل . فاغتنمه في العمل الصـــالح ، وانـــتهز فرصـــته فـــي الطيبات من القول والعلم ، قبل أن تشيخ وتهـــرم ، تـــروم فعـــل الطاعات فلا تستطيع ، وتود اكتساب الحسنات فلا تقدر ، وما أصدق ذلك الشاعر :

ومـــا أقبحَ التفريطَ في زمن الصِّبَا ... فكيفَ به والشَّيبُ في الرأسِ نازلُ

تَـــرحل عـــن الدُّنيا بزاد من التَقُّى ... فعمـــركَ أيـــام تُعـــد قلائِـــلُ

واغتنم : « **صحتك قبل سقمك** » : فأنت وأنت تتمتع بالصحة والعافية يكـــون لديك استعدادًا بممارسة الطاعات والعبادات وفعل الخيرات . فالصحة نعمـــة عظيمة لمن اغتنمها للعمل في الدنيا والآخرة معًا كما جاء في الأثر :

---

(١) رواه الطبري في المعجم الكبير ، ص٢٠ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ، جـ٤ ص٣٠٦ .

« أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » . وقال الله تعـــالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحســـن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين** ﴾[1] .

وفي المحافظة على الصحة أوصى الرسول ﷺ بعدم الإفراط والتفريط فـــي الطعـــام والشراب ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((**ما ملأ آدمي وعاءً شـــرًا مـــن بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه**))[2] .

وقـــد جـــاء في الأثر : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » . وصدق الشاعر حيث يقول :

فـــإن الـــداءَ أكـــثرَ مـــا تـــراهُ يكـــونُ مـــنَ الطعامِ أو الشرابِ

واغتـــنم « غناك قبل فقرك » : وذلك لأن الغنى لا يدوم ، فكم سمعنا عن غنى افتقر وساءت حاله حتى اضطر إلى السؤال ، وكم سمعنا عن فقير اغتنـــي فطوبى لمن يستغل فرصة غناه في بسط يده في الصدقات فينال حمد الناس في الدنيا وثواب الله في الآخرة . وإن الغنى لا يدوم ، وأن ﴿ **ما عندكم يـــنفذ وما عند الله باق** ﴾[3] . والإنفاق المقصود هو الإنفاق في سبيل الله .

---

(١) سورة القصص آية : ٧٧ .

(٢) رواه ابن ماجة في الأطعمة . والترمذي في الزهد . والإمام أحمد ، جـــ٤ ص١٣٢ .

(٣) سورة النحل آية : ٩٦ .

أي أنفــق فــي سبيل الله ولا تخش القلة والفقر ، فالله يعوض عليك جزاء ما أنفقت في الدنيا والآخرة .

واغتــنم « فــراغك قــبل شــغلك » : والفراغ نعمة كبرى إذا أحسن استغلالها وهو جحيم لا يطاق إذا أهدر أو أنفق في المعاصي واقتراف الذنوب والآثــام . عندئذ يكون وبالاً على صاحبه ، فيندم حيث لا ينفع الندم على ما بــدر منه من تفريط وينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ **أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين** ﴾[1] .

ولما كان الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، كما قال بعض الحكماء فــبادر أنــت فأقطعه في طاعة الله عز وجل ، في قراءة القرآن ، في الذكر والدعــاء ، فــي تشــييع جــنازة ، في صلة رحم ، في عيادة مريض ، في الصدقات ، في إغاثة ملهوف ، في تفريج كربة مكروب ، في نصرة مظلوم ، في إفشاء السلام ، في المصافحة والكلمة الطيبة .

واغتــنم « حياتك قبل موتك » : ولما كانت حياة المرء هي كل رأس مالــه ، فلمــاذا لا يستغل كل لحظة من لحظاتها في فعل الخيرات واكتساب الحســنات . وإن المرء ميت لا محالة مهما طال عمره . وهناك نخبة ممتازة من عباد الله الصالحين اتخذوا من الدنيا جسرًا إلى الآخرة ، فجدوا واجتهدوا واعملوا لما بعد الموت . علموا أن الدنيا فانية مهما طال عمر الإنسان فيها ، فجعلوا أكثر أعمالهم للدار الباقية[2] .

---

(١) سورة الزمر آية : ٥٦ .

(٢) الوقت أغلى من كنوز الأرض ، شعبان جبريل عبد العال ، ص٥ – ١٧ .

أمـــا مـــا قاله العلماء والأدباء في الوقت ، فيقول ابن القيم : (وقت الإنســـان هـــو عمره في الحقيقة ، وهو مادة حياته الأدبية في النعيم المقيم ، ومـــادة معيشته الضنك في العذاب الأليم وهو يمر مر السحاب . فما كان من وقـــته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته ، وإن عـــاش فيه عيش البهائم . فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة ، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة ، فموت هذا خير من حياته)[1] .

وقال بعض الحكماء : (من أمضى يومًا من عمره في غير حق قضاه أو فرض أداه ، أو مجد أثله أي ورثه أو حمد حصله ، أو خير أسنه ، أو علم اقتبسه ، فقد عق يومه ، وظلم نفسه[2] . وليحيى بن هبير قوله :

والوقـــت أنفـــس ما عنيت بحفظه وأراه أســـهل مـــا علـــيك يضيع

وكـــان مـــن حرصهم على الوقت أن وصل إلينا من إنتاجهم هذا الكم الهـــائل من المؤلفات في شتى العلوم والآداب والفنون والمعارف الإنسانية . ويعبر شاعرهم عن مدى حرصه على الاستفادة من الوقت فيقول :

إذا مـــرّ بـــي يوم ولم اقتبس أدبًا ولم استفد علمًا فما ذاك من عمري

بيـــنما لـــو سألت أحد البطالين من أبناء هذا الزمان : لماذا لا تعمل ؟

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم الجوزية ، ص١٨٤ .

(٢) الوقت في حياة المسلم ، د/يوسف القرضاوي ، ص١٣ .

لمـــاذا لا تحـــاول الاستفادة من وقتك الضائع ؟ لقال لك على الفور : إن هذا الزمان زمان سوء ، ولا خير فيه !! فرد الشاعر على هذا الإدعاء بقوله :

نُعيـــبُ زَمَانَـــنَا والعَيـــبُ فيـــنَا ومَـــا لزمانَـــنَا عَيـــبُ ســـوانا

وَنَهجـــوا ذا الـــزَّمَانَ بِغَـــيرِ ذَنبٍ ولَـــو نَطَـــقَ الـــزَّمانُ بِـــنَا هَجَانا

وكـــانوا يقولون : من كان يومه كأمسه فهو مغبون ، ومن كان يومه شـــرًا من أمسه فهو ملعون . وقالوا : من علامة المقت إضاعة الوقت . ولقد اجتمعت كلمة العلماء والأدباء في تعريف الوقت بكلمة موجزة فقالوا : «الوقت هو الحياة » ، وهل الحياة إلا الليل والنهار ومما قيل في الوقت واغتنامه شعرًا قول بعضهم :

اغتـــنم فـــي الفراغ فضل ركوعٍ فعســـى أن يكـــونَ موتُـــك بَغـــتَه

كـــم صـــحيحٍ رأيت من غير سُقمِ ذهبـــت نفســـه الصّـــحيحة فَلـــتَه

نعـــم فهذا أمر محسوس مشاهد ، فكم من شباب في عنفوان الصحة ، تفاجأ به وقد مات . ومادام الموت يأتي بهذه السهولة فلماذا لا يغتنم المرء أيام حياته في طاعة الله قبل حلول الأجل .

واعلم أخي المسلم أن من لم يسعفه وقته بالعمل الكثير ، فلا ينبغي أن يعرض عن العمل القليل مع الاستمرار فيه ، ويستشهد بهذين البيتين :

الـــيومَ شـــيءٌ وغَـــدًا مـــثلهُ مـــن نُخـــب العلـــم التـــي تُلتَقَط

يُحَصِـــلُ المـــرءُ بَهـــا حكَمـــةً وَإِنَّمـــا السَّـــيلُ اجـــتِماعُ الـــنُّقَط

وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري تعظه : (أما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ... ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلـــم ... فأعمل ... وإذا كان مثل سفيان الثوري يحض على العمل وهو من ســـادة التابعين . فكيف بنا نحن في تقصيرنا وتفريطنا ، نسأل الله أن يتولان برحمته)[1] .

---

(١) الوقت أغلى من كنوز الأرض ، شعبان عبد العال ، ص١٨ – ٢٦ .

الأنساب

لم تعتن أمة من الأمم بالأنساب كعناية العرب بأنسابهم فقد أصبح لديهم علمًا له فوائده وقواعده . فقد كانت الأنساب في الجاهلية وسيلة تجمع العرب بعضهم إلى بعض تضم شملهم وتشد أزرهم ، وكانت أنسابهم رداءًا يدفعون به كثيرًا من الأخطار عنهم . ثم أصبحت الأنساب آية الشرف ، فمن صفا نسبة كان أرفع شرفًا وأكرم محتدًا[1] .

بعث الله جل وعلا رسوله الكريم ليخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور الحق واليقين إلى الصراط المستقيم . فسعدت الإنسانية بهدية وارتفعت بتعاليمه ، وازدادت رقيًا وفخرًا وسؤددًا . مما قلل من شأن التفاخر بالأنساب وجعل التقوى مكرمة للإنسان . قال الله عز وجل من قائل : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[2] . ومعرفة أنساب الأمم مما افتخرت به العرب على العجم ، لأنها احترزت على معرفة نسبها ، وتمسكت بمتين حسبها ، وعرفت جماهير قومها وشعوبها ، وأفصح عن قبائلها لسان شاعرها وخطيبها واتحدت برهطها وفصائلها وعشائرها ، ومالت إلى أفخاذها وبطونها وعمائرها ونفت الدعي فيها ونطقت بملء فيها[3] .

---

(١) مجموعة الرسائل الكمالية في الأنساب ، محمد سعيد كمال ، ص٤ .

(٢) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري جـ٢ ص٢٧٦ .

وروى ابـــن تيمـــيه بإسناد صحيح من حديث سعيد الجريري عن أبي نضـــرة قـــال : حدثنا من شهد خطبة النبي ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق ، وهـــو على بعير فقال : ((**يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، ألا إن أباكم واحـــد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ألا لا فضل لأسود على أبيض إلا بالتقوى ، ألا قد بلغت ؟ قالوا : نعم قال : ليبلغ الشاهد الغائب**))[1] .

روى الإمـــام أحمد رحمه الله في مسنده أن النبي ﷺ قال : ((**يا أيها الـــناس إن ربكـــم واحـــد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى ألا هل بلّغت**))[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**إن الله قـــد أذهـــب عنكم عيبة الجاهلية ، وفخرها بالآباء مؤمن تقي أو فاجر شـــقي ، أنـــتم بنو آدم ، وآدم من تراب ليدعنّ رجال فخرهم بأقوام هم فحـــم جهـــنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان ، التي تدفع بأنفها النتن**))[3] .

ومما ينسب لمحمد بن الربيع الموصلي :

الـــناس فـــي صور التمثال أكفاء أبوهـــــــم آدم والأم حـــــــواء

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيميه ، جـــ١ ص٣٦٣ .

(٢) رواه الإمـــام أحمد في مسنده ، ٤١١/٥ . والهيثمي في مجمع الزوائد ، ٢٢٦/٣ ، ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٣) رواه أبـــو داود فـــي ســـننه فـــي كتاب الأدب ، جـــ٥ ص٣٣٩ . مختصر صحيح مسلم ، للألباني ، ١٧٨٧/١ .

فمـــن يكون منهم من أصله شرف يفاخـــرون بـــه فالطيـــن والمـــاء
مـــا لفخـــر إلا لأهـــل العلم إنهم علـــى الهـــدى لمن استهدى أدلاء

يذكـــر ابـــن تيمـــيه رحمه الله من أن العبرة بالأسماء التي حمدها الله وذمهـــا ، كالمؤمـــن والكافر ، والبر والفاجر ، والعالم والجاهل بالأعمال لا بالأنساب . فهناك الكثير من أصناف العجم من الحبشة وفارس والروم سابقون فـــي الإيمان والذين لا يحصون كثرة على ما هو معروف عند العلماء . وإن كثيرًا منهم برزوا في الإيمان والدين والعلم مثل ابن سيرين ، وعكرمة مولى ابـــن العباس وغيرهم حتى صار هؤلاء المبرزون أفضل من أكثر العرب إذ الفضـــل الحقيقـــي هو إتباع ما بعث به محمدًا ﷺ من الإيمان والعلم باطنًا وظاهرًا ، فكل من كان فيه أمكن كان أفضل ، والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة مثل : الإسلام والإيمان ، والبر ، والتقوى ، والعمـــل الصـــالح ، والإحســـان ، ونحو ذلك ، لا بمجرد كون الإنسان عربـــيًا ، أو أعجميًا ، أسود أو أبيض ، وأصبح الأكرم هو الأتقى ، ولله در القائل :

لعمـــرك مـــا الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالاً علي النسب
فقـــد رفـــع الإســـلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الحسيب أبا لهب[1]

أمـــا فضـــائل العـــرب علـــى غيرهم من جنس العجم : « عبرانيهم ، وســـريانيهم ، وروميهم ، وفارسهم » ، فقد وردت أحاديث في فضائل العرب

---

(١) المشروع الروي للشلي ، جـــ١ ص٣٠ وص٩٢ .

ومـــزاياهم والـــذي علـــيه أهل السنة والجماعة . وأخرج البيهقي والطبراني وأبـــو نعـــيم عـــن ابن عمر قال : ﷺ : ((**إن الله خلق الخلق فاختار من الخلـــق بنـــي آدم ، واخـــتار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضـــر ، واخـــتار مـــن مضر قريش ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارنـــي من بني هاشم فأنا من خيار إلى خيار**))[1] . وعـــن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**إن الله عز وجل اصـــطفى كنانة من ولد إسماعيل عليه السلام ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصـــطفى مـــن قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**))[2] . وهذا لا يعني أن فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم بسبب كون النبي ﷺ منهم وإن كان هذا من الفضل بل هم أنفسهم أفضل . وبذلك ثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل العرب «نفسًا ونسبًا » قال الشاعر :

قـــــريش خـــــيار بنـــــي آدم وخـــيار قـــريش بـــنو هاشـــم
وخـــير بنـــي هاشـــم كلهـــم نبـــي الإلـــه أبـــو القاســـم

فاسم العرب في الأصل كان اسمًا لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف : أولهم : أن لسانهم كان اللغة العربية ، الثاني : أنهم كانوا من أولاد العرب ، والثالث : أن أماكـــنهم كانـــت أرض العـــرب وهي جزيرة العرب . فلما جاء الإسلام وفتحـــت الأمصـــار ســـكنوا ســـائر البلاد ، ومن أقصى المشرق إلى أقصى المغـــرب ، وإلـــى ســـاحل الشام وأرمينية . ثم انقسمت هذه البلاد قسمين :

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطي ، جـ١ ص٣٨ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للألباني ، كتاب الفضائل ، ص٤٠٢ رقم ١٥٢٣م ٥٨/٧ .

مـــنها ما غلب على أهله لسان العرب ، ومنها ما العجمية كثيرة فيهم . فهذه الـــبقاع انقسمت : إلى ما هو عربي ابتداء ، وإلى ما هو عربي انتقالاً ، وإلى مـــا هو أعجمي ، كما تقسم الأنساب إلى ثلاثة أقسام : قوم من نسل العرب ، وهـــم باقون على العربية لسانًا ودارًا ، أو لسانًا لا دارًا ، أو دارًا لا لسانًا . وقـــوم مـــن نســـل العـــرب صارت العجمية لسانهم ودارهم . وقوم مجهولو الأصل ، لا يدري أمن نسل العرب هم أم من نسل العجم[1] .

إن العـــروبة والعجمية باللسان والخلق والصفات لا بالنسب . كما أن العصبية للجنس من أسباب التفرق والخلاف . وعن النعمان بن بشير رضي الله عـــنهما قال : قال رسول ﷺ : **((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعـــاطفهم مـــثل الجســـد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى))**[2] .

فضل علم الأنساب :

إن معـــرفة الأنســـاب علم لا يليق جهله بذوي الهمم لما فيه من صلة الأرحام ، والوقوف على ما ندب إليه النبي ﷺ[3] . عن أبي هريرة رضي الله عـــنه عن النبي ﷺ قال : **((تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صـــلة الـــرحم محـــبة فـــي الأهـــل مثراة في المال منسأة في الأجل أو في الأثر))**[4] . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : **(تعلموا أنسابكم تصلوا**

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيميه ، جـــ١ ص٤٠٢ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للألباني ، ص٤٧٢ رقم ١٧٧٣م ٢٠/٨ .

(٣) الإنباه على قبائل الرواه لابن عبد البر ، ص٥٤ .

(٤) رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم صحيح الجامع ، ١/٢٩٦٥ .

أرحامكم ولا تكونوا كنبط السوداء إذ سئل أحدكم ممن أنت قال من قرية كذا ، فـوا الله إنه ليكون بين الرجل وبين أخيه الشيء لو يعلم الذي بينه وبينه من دخله الرحم لردعه عن انتهاكه) .

فالرسـول الكـريم صلوات الله وسلامه عليه كان حريصًا على حفظ الأنتسـاب . وروى قتيبة أن رجلاً قال للبراء بن عازب رضي الله عنهما : (أفَررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين . قال لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، لقد رأيـته وإنـه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبـا سفيان آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول : ((**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**))[1] .

وأجاب الإمام الحليمي عن الأحاديث التي وقع فيها الانتساب إلى الآباء أنه ﷺ لم يرد بذلك الفخر ، وإنما أراد تعريف منازل أولئك ومراتبهم . ومن ثـم جاء في بعض الروايات قوله : ((**لا فخر**)) فهو من التعريف بما يجب اعتقاده ، أو هو إشارة إلى نعم الله تعالى فهو من التحدث بالنعمة[2] .

عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ((**ليس من رجـل ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه إلا كفر ، ومن ادعى قومًا ليس له فيهم فليتبوأ مقعده من النار**))[3] . وعن أبي عثمان قال : لما ادعى زياد لقيت أبا بكـرة فقلت له : (ما هذا الذي صنعتم ؟ أني سمعت أن سعد بن أبي وقاص

---

(١) صحيح البخاري ، باب من قاد دابة غيره في الحرب ، جـ٤ ص٣٧ .

(٢) المشرع الروي ، جـ١ ص٦٢ .

(٣) صحيح البخاري ، باب المناقب ، جـ٤ ص٢١٦ – ٢١٩ .

يقــول : ســمعت أذناي من رسول الله ﷺ وهو يقول : ((**من ادعى أبًا في الإسلام غير أبيه يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام**))[1] . وقد روي عن النبــي ﷺ مــن الوجــوه الصحاح ما يدل على علمه بأنساب العرب . وكذا أبو بكر رضي الله عنه كان أعلم الناس بالنسب نسب قريش وسائر العرب ، وكذلك جبير بن مطعم وابن عباس وعقيل بن أبي طالب كانوا من أعلم الناس بذلك . وهو علم العرب الذي كانوا به يتفاضلون وإليه ينتسبون .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ **وجعلــناكم شعوبًا وقبائل** ﴾ الآية[2] . قال الشعوب القبائل العظام والقبائل الــبطون . وقال المفسرون في قوله عز وجل : ﴿ **وفصيلته التي تؤويه** ﴾[3] عشــيرته الأدنــون . وقــال أهل النسب الشعوب الجماهير التي تفرقت منها العــرب ، ثــم تفرقت القبائل من الشعوب ، ثم تفرقت العمائر من القبائل ثم تفرقــت الأفخــاذ مــن البطون ، ثم تفرقت الفصائل من الأفخاذ وليس دون الفضــائل شــيء . الــرجل رهطه الأدنى وبنو أبيه ، وقد قيل بعد الفصيلة العشيرة وليس بعد العشيرة شيء .

ويقول النويري : (إن جميع ما بنت عليه العرب في نسبها أركانها ، وأسســت علــيه بنيانها ، عشر طبقات . الطبقة الأولى « الجذم » بمعنى قطع الخــوض فــيما فــوق قحطــان ومعد وعدنان ، واقتصر علي ذكر دونهم ،

---

(١) مختصر صحيح مسلم للألباني ، كتاب الإيمان ، ص١٩ رقم ٤٨م ٥٧/١ .

(٢) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٣) سورة المعارج آية : ١٣ .

لاجـتماعهم علـى صحته . ومنه قول رسول الله ﷺ لما انتسب إلى معد بن عدنان قال : ((**كذب النسابون فيما فوق ذلك**)) لتطاول العهد . الطبقة الثانية « الجماهير » بمعنى الاجتماع والكثرة ومنها قولهم : جماهير العرب . والطبقة الثالـثة « الشعوب » وواحدها شعب ، وهو الذي يجمع القبائل وتتشعب منه . والطبقة الرابعة « القبيلة » وهي التي دون الشعب تجمع العمائر ، وإنما سميت قبـيلة لتقابل بعضها بعض . والطبقة الخامسة « العمائر » وواحدها عمارة ، وهي التي دون القبائل وتجمع البطون . والطبقة السادسة « البطون »وواحدها بطن : وهي التي تجمع الأفخاذ . والطبقة السابعة « الأفخاذ » وواحدها فخذ : والفخـذ تجمع العشائر . والطبقة الثامنة « العشائر » وواحدها عشيرة : وهم الذيـن يتعاقلون إلى أربعة آباء وسميت بذلك لمعاشرة الرجل إياهم . الطبقة الحادية عشرة « الرهط » وهم الرجل وأسرته ، والرهط دون العشرة والأسرة أكثر من ذلك[1] .

لقـد أوضح النويري بأن عدنان « جذم » قبائل معد «جمهور » . نزار بـن معـد « شعب » ، مضر «قبيلة » ، خندف « عمارة » وهم ولد إلياس بن مضـر ، كـنانة « بطـن » قريشٍ « فخذٍ » ، قصي «عشيرة » ، عبد مناف « فصيلة » ، بنو هاشم « رهط » .

قـال الكلبي : (الشعب أكبر من القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخـذ ، ثـم الفصـيلة ، ثـم العشـيرة ، قال الله تعالى : ﴿ **وفصيلته التي**

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري الباب الرابع في الأنساب ، جـ١ ص٢٧٧ – ٢٨٥ .

تؤويـــه ﴾[1] . وقال الله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[2] . وقال الله تعالى : ﴿ **وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا** ﴾[3] .

الشـــعب ثـــم قبـــيلة وعمـــارة ... بطـــن وفخـــذ والفصـــيلة تابعـــة
فالشـــعب مجـــتمع القبـــيلة كلهـــا ... ثـــم القبـــيلة للعمـــارة جامعـــة
والبطـــن مجمعة العمائر فاعلمهن ... والفخـــذ مجمـــع البطون الواسعة
والفخـــذ مجمـــع الفصـــائل هاكها ... جـــاءت علـــي نســـق لها متتابعة
فخـــزيمة شـــعب وإن كـــنانة ... لقبـــيلة مـــنها الفصـــائل شـــائعة
وقـــريش تســـمى بالعمارة يا فتى ... وقصـــي بطـــن للأعـــادي قامعة
ذا هاشـــم فخـــذ وذا عباســـها ... أثـــر الفصـــيلة لا تناط بسابعة[4]

علـــم الأنســـاب علم يعرف به تفرع القبائل والبطون والأسر وتناسلها فرعًا من أصل ، وأبنًا عن أب ، وأبًا عن جد مهما علا ، فإذا كان الإهتمام به فـــي الزمـــن الســـابق خصوصًا عند العرب ، فقد أصبح الاهتمام به في هذه العصـــر أعظم . فالأطباء بتجاربهم الطبية والعملية قد قرروا أن الأمراض ، والأغراض ، والميول ، والنزعات ، والأخلاق يتوارثها الفروع عن الأصل ، وكـــذا علمـــاء الـــنفس وتكلـــم بذلك الشعراء والأدباء . وتجيء بذلك الدماء المـــتفرعة من الأصول الأسرية والقبلية والشعبية والجنسية مما يجعل المرء يـــتحرى فـــي مصـــاهرته وزواجـــه النسب الذكي والصهر الأبي والعنصر

---

(١) سورة المعارج آية : ١٣ .

(٢) سورة الشعراء آية : ٢١٤ .

(٣) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٤) كنز الأنساب ومجمع الآداب للحقيل ، ص٢٥ .

النظيف[1] . لقد أطلق العرب على الأنساب اسم « العلم » فهو علم رفيع وعلم فاضل ، وهذا العلم لهذه الأمة من أهم العلوم ، فمعرفة النسب وسيلة للتعارف الذي ينتج عنه التقارب ، وأداء الحقوق بين الناس والأقربون أولى بالمعروف ، وله فوائد جمة كما هو معروف في كتب الشريعة الإسلامية ، وفي الأبواب الفقهية : « كالحضانة ، والوصية ، والإقرار ، والرضاع ، والوقف ، والمواريث ، وغيرها »[2] .

وقد أمر رسول الله ﷺ بمعرفة الأنساب والعلم بأصلها يقع بتظاهر الأخبار ، ونظام جيوش الجهاد في صدر الإسلام قام في الأكثر على وشائج الأنساب . ودراسة الأنساب بالغة القدم كما نصر النسب شيخ الإسلام ابن تيميه فقال : (لا سبيل لضبط الدين وفهمه إلا باللسان العربي والفكر العربي) . وقال الإمام ابن حزم : (إن علم النسب علم جليل رفيع إذ يكون التعارف ، وكل علم هذه صفته فهو فاضل لا ينكره إلا جاهل أو معاند . أما الذي تكون معرفته من النسب فضلاً في الجميع وفرضًا على الكفاية – نعني على من يقوم به الناس دون سائرهم – فمعرفة أسماء أمهات المؤمنين المفترض حقهن على جميع المسلمين ، ومعرفة أسماء أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم الذين حبهم فرض ، وإذا لم نعرف الأنساب لم نعرف إلى من نحسن ولا عمن نتجاوز[3] .

---

(١) كنز الأنساب ومجمع الآداب حمد بن إبراهيم الحقيل ، ص٢٥ .

(٢) المعجم اللطيف للشاطري ، ص١١ – ١٥ .

(٣) الشجرة الزكية في الأنساب وسير آل بيت النبوة للمؤلف ، ص٣٤ – ٣٩ .

الخاتمة

الحمـــد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه وبعد :

أمـــا بعد : فإنني أحمد اله حيث أعانني على إتمام هذا الكتاب ووفقني إلـــى إنجـــازه . إلا أننـــي لا أزعـــم أننـــي استعطت إلا إحاطة بكل جوانب الموضـــوع. ولكـــنها لقطات عابرة .... ولمسات هادفة .... وجهد متواضع شعاري فيه ... « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق » ولله در القائل :

لَعَمرِي لقد أنفقتُ في البحث قُوَّتي ولـــم آلُ جُهدًا في اقتناصَ العَوالِيَا

وطُفتَ وفَتَشتَ الطُّروسَ [1]ولَيتَني خَلصـــتُ كفافًا [2] لا عليَّ ولا لِيَا

وحســـبي أن أكـــون قد أدليت بدلوي في هذا الموضوع وأسهمت فيه بجهد المقل الذي يعترف بالتقصير . فإن أحسنت فمن الله جل وعلا ... وإن أسأت فمني .... وما توفيقي إلا بالله هو حسبي عليه توكلت وإليه أنيب .

السيد /يوسف بن عبد الله جمل الليل

---

(١) الطروس : الكتب .

(٢) خلصت كفافًا : إلا من رحمة الله وعفوه ورضاه وتوفيقه .

المؤلف :

- اللواء الركن / السيد يوسف بن عبد الله جمل الليل .
- ولد في المدينة المنورة عام ١٣٥٦هـ .
- تخرج من الكلية الحربية المصرية عام ١٣٧٦هـ .
- عمل في عدة وحدات تعبوية وتعليمية .
- كلف وعمل في القيادة العربية الموحدة بالقاهرة ضمن أعضاء الوفد العسكري السعودي مدة خمسة أعوام من عام ١٣٨٤هـ - ١٣٨٩هـ .
- التحق بمعهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، قسم الدراسات الفلسطينية ، عام ١٣٨٥هـ .
- حصل على عدة دورات عسكرية داخلية وخارجية .
- حصل على ماجستير في العلوم العسكرية من كلية القيادة والأركان بالقوات المسلحة السعودية عام ١٣٩١هـ .
- قام بعدة زيارات لبعض جيوش دول شقيقة وصديقة .
- تدرج في عدة مناصب قيادية وأتم الخدمة العسكرية في ١٤٢٠/٧/١هـ .

كتب للمؤلف

١- أسلحة الدمار الشامل الحرب الكيماوية ، ١٤٠٩هـ .

٢- أسلحة الدمار الشامل الحرب الذرية النووية ، ١٤١٠هـ .

٣- الاستراتيجية ودور عباقرة الفكر العسكري في تطورها ، ١٤١٣هـ .

٤- الشجرة الزكية في الأنساب وسير آل بيت النبوة ، ط١ ١٤١٤هـ - ط٢ ١٤٢٣هـ .

٥- عود على بدء في جبلة اليهود « مجلدين » ، ١٤١٨هـ .

٦- عمدة الطالب في نسب آل أبي طالب لابن عنبة (تحقيق وتشجير . إلى جانب إسهاماته في العديد من المجلات العسكرية .

المراجع

١- الآداب الشرعية ..... لابن مفلح .

٢- أحكام القرآن ..... لابن عربي .

٣- الإسلام وإنسان العصر ..... د/ نعمات أحمد فؤاد .

٤- الإسلام والحضارة ..... لمطيع النونو .

٥- الإسلام والحضارة الغربية ..... د/محمد حسين .

٦- الإسلام ومقتضيات العصر ..... د/ أنور ماجد عشقي .

٧- الاستراتيجية ودور عباقرة الفكر العسكري في تطورها ..... للمؤلف .

٨- الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز وحروبه ..... للعميد أ.ح محمود رحمو .

٩- إصلاح المجتمع ..... محمد بن سالم البيحاني .

١٠- أصدق البنود في تاريخ عبد العزيز آل سعود عبد الله الزامل .

١١- أضواء كاشفة ..... لأسعد بيوض التميمي.

١٢- اقتضاء الصراط المستقيم ..... ابن تيميه .

١٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..... جلال الدين العمري .

١٤- الأمة الإسلامية ..... د/ماجد غرسان الكيلاني .
١٥- الأطلس التاريخي للدولة السعودية ..... إبراهيم جمعة .
١٦- الإنباه على قبائل الرواة ..... ابن عبد البر .
١٧- البداية والنهاية ..... لابن كثير .
١٨- التاج الجامع للأصول ..... منصور علي ناصف.
١٩- تاريخ نجد ..... عبد الله فلبي .
٢٠- تاريخ ملوك آل سعود ..... سعد بن هذلول .
٢١- تفسير القرآن ..... القرطبي .
٢٢- تفسير آيات الأحكام ..... محمد السايس .
٢٣- تهذيب سيرة ابن هشام ..... عبد السلام هارون .
٢٤- تطور مبدأ المشروعية ..... د/ محمد السناري .
٢٥- التقويم القطري ..... عبد الله إبراهيم الأنصاري .
٢٦- توحيد المملكة العربية السعودية ..... محمد المانع .
٢٧- الجامع الصغير ..... السيوطي .
٢٨- جزيرة العرب في القرن العشرين ..... حافظ وهبه .
٢٩- الجواب الكافي ..... ابن القيم الجوزية .

٣٠- حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم	د/أبو اليزيد العجمي .
٣١- حرية الرأي في الإسلام	د/محمـــود يوســـف مصطفى .
٣٢- حوار لا مواجهة	أحمد كمال أبو المجد.
٣٣- حقوق الإنسان في الإسلام	د/سليمان عبد الرحمن الحقيل .
٣٤- حقوق ولاة الأمر	د/عـــبد العزيـــز بن إبراهيم العسكر .
٣٥- الحسبة في الإسلام	ابن تيميه .
٣٦- الحكم الجديرة بالإذاعة	ابن رجب .
٣٧- حضارة العرب	جوستاف ليبون ترجمة عادل زعيتر.
٣٨- الحريات العامة	د/عبد الحميد متولي .
٣٩- خاتم النبيين	محمد أبو زهره .
٤٠- خلق المسلم	محمد الغزالي .
٤١- الخصائص العامة للإسلام	د/يوسف القرضاوي .
٤٢- الخصائص الكبرى	السيوطي .
٤٣- الخليج العربي	قدري قلعجي .

٤٤- الدين والحياة ..... د/عبد الله شحاتة .
٤٥- الدول العربية الكبرى ..... محمد كامل المحامي .
٤٦- الدولة السعودية في الجزيرة العربية ..... طارق الأفريقي .
٤٧- رجال حول الرسول ..... خالد محمد خالد .
٤٨- الرسالة التبوكية ..... ابن القيم .
٤٩- الرسول القائد ..... محمود شيت الخطاب.
٥٠- زاد الميعاد ..... ابن القيم الجوزية .
٥١- سلوك الممالك في تدبير الممالك ..... شهاب الدين بن أبي الربيع .
٥٢- سنن الترمذي ..... أبي عيسى بن سورة .
٥٣- سنن ابن ماجه ..... أبي عبد الله محمد بن يزيد .
٥٤- سنن الدارمي ..... أبي محمد عبد الله الدارمي .
٥٥- سنن أبي داود ..... سليمان بن الأشعث السجستاني .
٥٦- الشجرة الزكية في الأنساب وسيرة آل بيت النبوة ..... للمؤلف .

٥٧- شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ..... خير الدين الزركلي .
٥٨- السيرة الحلبية ..... علي برهان الدين .
٥٩- الشرك ومظاهره ..... مبارك الميلي .
٦٠- الشريعة الإسلامية والقانون الدولي ..... علي منصور .
٦١- صحيح البخاري ..... الإمام أبي عبد الله بن محمد البخاري .
٦٢- صحيح ابن خزيمة ..... ابن خزيمة .
٦٣- صحيح مسلم ..... الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج .
٦٤- صقر الجزيرة ..... أحمد عبد الغفور عطار .
٦٥- علم الخطابة ..... أحمد علوش .
٦٦- العلاقات الدولية في الإسلام ..... كامل سلامه الدقسي .
٦٧- عبد العزيز آل سعود وعبقريته الشخصية الإسلامية ..... د/ عبد العزيز شرف ومحمد شعبان .
٦٨- علم السياسة ..... محمد نصر مهنا .
٦٩- عصر الدول والإمارات ..... د/ شوقي ضيف .
٧٠- عنوان المجد في تاريخ نجد ..... عثمان بن بشر .

٧١- علاقة الملك عبد العزيز بالبحرين والكويت .. عبد اللطيف كانو .
٧٢- عبد العزيز بن سعود ..... عبد العزيز نوار .
٧٣- العربية السعودية ..... عبد الكريم موسى أبا الخيل .
٧٤- العدالة الاجتماعية في الإسلام ..... سيد قطب .
٧٥- في آفاق التربية الوطنية ..... د/ سليمان بن عبد الرحمن الحقيل .
٧٦- فيض القدير شرح الجامع ..... المناوي .
٧٧- في ظلال القرآن ..... سيد قطب .
٧٨- قضايا ومفاهيم في ضوء الإسلام ..... د/أحمد عمر هاشم .
٧٩- القيم ..... مساعد المحيا .
٨٠- قضايا نظرية في السياسة المقارنة ..... د/عبد الغفار رشاد .
٨١- قوافل العروبة ومواكبها ..... محمد جميل بيهم .
٨٢- القاموس المحيط ..... الفيروز آبادي .
٨٣- القانون الدستوري والأنظمة السياسية ..... د/عبد الحميد متولي .
٨٤- كتاب الإيمان ..... د/محمد نعيم ياسين .
٨٥- كنز العمل ..... الطبراني .

٨٦- كنز أنساب ومجمع الآداب ..... حمد بن إبراهيم الحقيل .

٨٧- للإسلام منهج أخلاقي ..... د/محمود فياض .

٨٨- لسان العرب ..... ابن منظور .

٨٩- ليس من الإسلام ..... محمد الغزالي .

٩٠- من أخلاق القرآن ..... د/عبد الوهاب عزام .

٩١- من أخلاق الإسلام ..... يوسف الدجوي .

٩٢- نظرية الإسلام وهديه ..... أبو الأعلى المودودي.

٩٣- نضال القومية العربية ..... عبد السلام الأدهمي .

٩٤- نهاية الأرب في فنون الأدب ..... النويري .

٩٥- نسب قريش ..... أبي عبد الله مصعب الزبيري .

٩٦- الوقت أغلى من كنوز الأرض ..... شعبان جبريل عبد العال .

٩٧- هذا هو الإسلام ..... محمد متولي الشعراوي .

٩٨- الوقت في حياة المسلم ..... د/يوسف القرضاوي .

٩٩- الولاء والبراء في الإسلام ..... محمد سعيد القحطاني.

١٠٠- الولاء والبراء في الإسلام ..... صالح بن فوزان الفوزان .

١٠١- الوحيد في التاريخ والجغرافية والقومية الوطنية ..... محمد أمين .

١٠٢- الوجيز في عهد الملك عبد العزيز ..... خير الدين الزركلي .

الدوريات والمجلات

١ مجلة الفنار — القوات الجوية الملكية السعودية .

٢ مجلة الصقور — مقال للواء الطيار الركن/صاحب السمو الملكي الأمير تركي بن ناصر بن عبد العزيز .

٣ مجلة اليمامة — مقال حدود المحبة ، فهد العريفي .

الفهارس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٧
المقدمة	١٣
الفصل الأول	
الولاء والبراء	٢٧
المفهوم اللغوي للولاء والبراء	٣٩
المفهوم الشرعي في الفرق بين الموالاة والتوالي	٤٣
مقتضيات الولاء والبراء	٥٣
الإسلام بين دعوى التعصب والتسامح مع الكفار	٩٧
الفصل الثاني	
الانتماء	١٠٩
أعداء الدين والوطن والوطنية	١١٢
تمدن الوطن	١٢١
القومية	١٢٩
القومية والإسلامية	١٣٧
الدولة	١٦١
نشأت الدولة	١٦٧
قوة الدولة	١٧٥

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الثالث

جذور الحكم السعودي والأسس التي قام عليها ١٨٥
نشأت الدولة السعودية ١٨٧
الدولة السعودية في دورها الثاني ٢١٥
الدولة السعودية في دورها الثالث ٢٢٥
معارك الملك عبد العزيز الحربية ٢٤٧
الأمن في عهد الملك عبد العزيز ٢٧٥
إرساء قواعد الحكم وتنظيم جهاز الدولة ٢٨٧

الفصل الرابع

بعض من مقتضيات الولاء والبراء والانتماء ٢٩١
نهج الإسلام الأخلاقي ٢٩٣
الإسلام ومكارم الأخلاق ٣١٣
الأخلاق في الإسلام ٣١٧
الإسلام والقيم ٣٢٧
المسئولية في الإسلام ٣٤١
دور العلماء والدعاة في الشريعة الإسلامية ٣٤٩
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٥١
الإسلام وحرية الرأي ٣٦١
الحقوق في الإسلام ٣٧٥

الموضـــوع	الصفحة
حقوق ولاة الأمر في الإسلام	٣٨٣
الإسلام والبيئة	٣٨٩
تلوث البيئة	٤٠١
قمة الأرض	٤٠٧
مؤتمر التنمية وتأثيرها في البيئة	٤١٠
أهمية الزمن والوقت لدى المسلمين	٤١٣
الأنساب	٤٢٣
الخاتمة	٤٣٣
المراجع	٤٣٧
الفهارس	٤٤٥